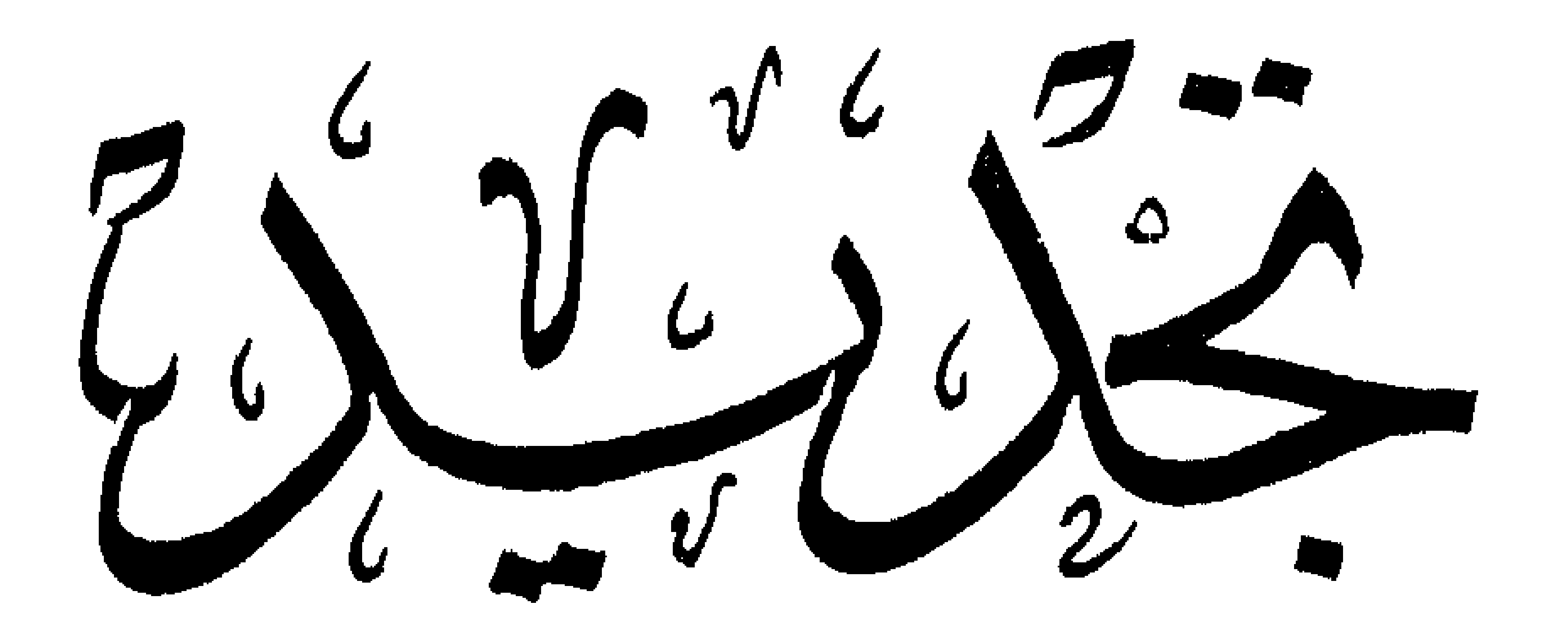
تجديد

الدكتور
طه حسين

تحقيق وتقديم
محمد سيد كيلاني

دار الفرجاني
القاهرة - طرابلس - لندن
١٩٨٤



الدكتور

طه حسين

تحقيق وتقديم

محمد سيد كيلاني

الناشر

دار الفرجانى

ص . ب ٢٣٨٢ الحرية – مصر الجديدة

١٩٨٤

تقديم

[وهم – يعنى المصريين قد خضعوا لضروب من البغى وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان والرومان . وجاءتهم أيضا من العرب]

هذه الجملة وردت فى مقال تحت عنوان « دائرة » فأثارت زوبعة عنيفة فى القاهرة ودمشق ، فشنت جريدة « فتى العرب » الدمشقية حملة شديدة على طه حسين تردد صداها فى صحيفتى البلاغ والمقطم وبين الأوساط المثقفة من المصريين . قالت صحيفة البلاغ (٧ ــ ٩ ــ ١٩٣٣) .

ولم يكد ينشر هذا المقال فى دمشق وتتناوله الأيدى حتى سرت بين اللجان الأدبية والجمعيات الثقافية حركة ناشطة لم تكن تألفها من قبل . فقد عقد فريق كبير من الشباب السوريين ممن ينتمون إلى هذه اللجان الأدبية اجتماعا وضعوا فيه مقال الأستاذ طه حسين موضع الدراسة ، ثم قرروا أن ينهجوا حيال مؤلفاته وكتبه نهج النازى الألمانى حيال الكتب التى وضعها اليهود فى الطعن على القومية الألمانية .

وقد تقرر فى اجتماع الشباب السوريين توجيه دعوة إلى الجمعيات العربية الأدبية والسياسية فى العراق وفلسطين وجميع الأقطار العربية

لإحراق مؤلفات طه حسين المطبوع منها ومقاطعة مايحتمل أن يطبع من جديد .

وقد بنى هذا القرار الذى سينفذ فى البلاد العربية كافة على اعتبارات ماضية ترجع إلى الكتاب الذى ألفه الدكتور طه حسين تحت عنوان (فى الأدب الجاهلى) كما بنى على اعتبارات جديدة ترجع إلى المقال الأخير الذى نشر فى كوكب الشرق ضد العرب .

وإن المجامع الأدبية واللجان العلمية تفكر تفكيرا جديا فى تأليف فرق من الشبان يناط بها الطواف على المكاتب وإخراج مؤلفات الدكتور طه حسين منها ، واعتبارها ممنوعة التداول فى البلاد العربية لمخالفتها لروح القومية المنتشرة فى بلاد العرب ، وتهجم صاحبها على حرمة التاريخ وعبثه فى ذكريات الأجداد الذين حرروا العنصر المصرى من سياط الفاتحين ، وأعطوه لغة قوية وديانة رضية وحضارة لا تقاس بها حضارات العالم القديم .

ومما علمناه أن هذه الطريقة التى ستتبع حيال مؤلفات الأستاذ طه حسين ستتبع أيضا حيال المؤلفين المصريين الذين يشجعون الشعوبية فى حملاتهم على روح القومية العربية » .

* * *

وكان عبد الرحمن عزام أول من اهتم بالرد على طه حسين فى مصر . فكتب مقالا فى البلاغ تحت عنوان « أليست مصر عربية ؟ » عاب فيه على طه حسين ما نسبه إلى العرب فى مقاله الذى اقتطفنا منه

الجملة التى أثارت العاصفة . فرد عليه طه بمقال تحت عنوان « بغى » ذكر فيه أنه ليس من خصوم العرب ولا المنكرين لما كان لهم من مجد مؤثل وعزباق على الزمان وليس خصما للنهضة العربية الحديثة ، ولا لهذه الدعوة التى يذيعها العرب إلى وحدتهم القومية

فكتب عبد الرحمن عزام مقالا آخر عنوانه «أليست مصر عربية ؟» جاء فيه : منذ أيام كتبت تحت هذا العنوان «أليست مصر عربية ؟» كلمة وجهتها للدكتور طه حسين ، وبالأمس قرأت فى كوكب الشرق مقالا هو مزاج من العتب والاتهام . وكأنما شقّ على صديقى الدكتور طه أن أطلب إليه إيضاح جملة قصيرة ذكرها فى فصل طويل ، فظن أنى أردت به شرا ، أو أننى أحدثت به شرا عن غير قصد .

والشر الذى يشير إليه هو غضب بعض الناس واحتجاجهم على العبارة التى طلبت توضيحها ، وأبى الدكتور أن يساعدنا على فهم قصده منها . وهى عبارة تطوى فى نفسها معنيين : الأول أن فتح العرب لمصر ، وحكمهم لها كان بغيا وعدوانا كفتح الرومان والفرس واليونان والفرنسيين وغيرهم .

والثانى أن مصر ردتهم عنها أو أفنتهم فيها كما فعلت بغيرهم .

ولوأن هذه المعانى قالها رجل غير صديقى الدكتور طه ، وكان له من المكانة فى نفسى ماللدكتور طه ، لناقشته فى الحال ، لأننى كما يعلم الدكتور طه رجل يؤمن بعربية مصر . ويرى فى تاريخ العرب مُثلا عليا ، ويضع الوحدة العربية بين ناظريه أسمى غايات الحياة .

فكيف يخطر للدكتور طه وهو يعلم منى هذا الإيمان ــ أن اعتراضى على عبارته وطلبى توضيحها كان بقصد المكربه ؟ نعم إن كلمته كانت كلمة قصيرة فى فصل طويل ونعم إنها جاءت عرضا فى أثناء الدفاع عن غرض شريف ، ولكن الدكتور طه ليس ممن يلقون الكلمات جزافا ، وهو من الكتاب الممتازين . ولقد أردته أن يبين قصده فسكت . فلو كنت أريد اللجاجة والشر لطالبته بالإفصاح عن قصده مرة أخرى ، ولكنى خشيت أن يكون قد تحرج أو أن تكون ظروفه لا تسمح له بالتبسط فى هذا الحديث أو الجدل فيه ، فامتنعت عن الكتابة إكراما له وضنا به .

وبالأمس ، وبعد أن أحدث سكوته الشر الذى يشير إليه ، يريد الدكتور طه أن يعتبر سكوتى أنا ابتهاجا بالشر ، وما كان إلا رغبة منى فى مسايرة الدكتور فيما اختار من السكوت ووقوفا فى الخطة التى ظننت أن مسئوليته فى « الكوكب » قد استلزمتها .

إذن قد ظلمنى صديقى ــ والله يعلم ــ أننى ما كنت أضمر إلا أن أتجنب زيادة إحراجه .

وأدنى إلى الحق والصواب أن نتصارح ، وقد وصلنا إلى ضرورة المصارحة فإما أن يكون الدكتور طه حسين لا يرى رأيى فى عربية مصر ، ولا فى الوحدة العربية ، وله كامل الحرية فيما يعتقده ، وليس لأحد أن يحاول اضطهاده فى عقيدته . وإما أننا على تمام الاتفاق ، هذا هو الجوهر فى الأمر .

والقول بسامية قدماء المصريين واشتراكهم مع العرب فى أرومة واحدة هو قول يؤيده ما بين الهيروغليفية والعربية من تشابه . وقد كان العرب يدعون خئولة قدماء المصريين لهم قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة . وجاء القصص الإسلامى مؤيدا لهذه الدعوى ، ثم جاء محمد ﷺ فأوصى بالقبط من المصريين خيرا ، وعلل هذه الوصية بأنهم من ذوى القربى ، وذوى الرحم

حدثوا ما شئتم عن خوفو ومينا فهل تجدون فى الناس إنصاتا ؟ ثم حدثوا عن عمر ، أو أبى عبيده أو خالد ، أو سعد من فاتحى مصر وسوريا والعراق ، أفلا تجدون إنصاتا كإنصات البنين للآباء ؟ هذا هو أصلهم الذى يعرفون به ، وهذا هو أصلهم لا ينكرونه . فما معنى إقامة الشعوبية فى مصر الحديثة أو غيرها من الأقطار العربية على أساس ينكره أهلها ولا ينصتون إليه ؟

أما الشق الخاص بتاريخ الفتح العربى أو ما بعد الفتح من نوع الحكم ، فإن الدكتور طه لم يوضح لنا فيه شيئا ، بل زاد الأمر غموضا بالإشارات إلى ثورات للمصريين واستقلال عن السلطان العربى . ونحن لا نعلم أى الثورات أو الاستقلالات يقصد . ومع ذلك ليس هذا جوهريا إلا إذا أراد به إبعادنا عن الحقيقة التى نريدها ، وهى عربية مصر الحديثة ، لأن كل آمالنا تنحصر فى مصر العربية ، مصر الحديثة التى تناهض الانجليز » .

وقد اتهم طه حسين صديقه إبراهيم عبد القادر المازنى بأنه يدس له ويكيد ، ويجنى على حرية الرأى ويمكر به . فرد المازنى بمقال تحت

عنوان « مصر والعرب » « البلاغ ٩ ــ ٩ ــ ١٩٣٣ » جاء فيه : « يحسن أن أقول لصديقى الدكتور طه حسين فى مستهل هذه الكلمة إنى أنا كاتب مقال « مصر والعرب » فى البلاغ ، أدافع به عن حرية الرأى ، بل عن حرية الخطأ ، ولم أوقعه لأنى لم أر موجبا لذلك ، ولأنه كان لى فى البلاغ فى اليوم نفسه مقال آخر فوق توقيعى . وقد نشره الأستاذ صاحب البلاغ وهو مقر له ، وراض عنه .

ثم يحسن أن يعلم صديقى الدكتور طه أيضا أن مقال الأستاذ عبد الرحمن عزام نشر فى البلاغ وصاحبه غائب عنه فى الإسكندرية ، لا يعلم من أمره إلا مثل علم القراء بعد نشره ، فلا دس هناك ولا كيد ، ولا دعوة ــ كما توهم ــ إلى الجناية على حرية الرأى ، ولا مهارة فى إذاعة الشر إلا أن أكون أنا متهما عنده بمثل ذلك . فإن كان هذا فلا كلام لى معه ، وليتوهم ما يشاء ولن أباليه حينئذ أو أعنى بمجادلته فى ذلك ، لا بالتى هى أحسن ولا بالتى هى أخشن .

ولا أدرى كيف سبق إلى وهمه أن هناك دسا وكيدا أو مكرا يحتاج منه أن يعلن فى غير تؤدة أنه لا يخافه أو يحسب له حسابا ؟؟ إن كل ما فى الأمر أن جملة زل بها قلمه فآخذه عليها ونبهه إلى الخطأ فيها الأستاذ عزام بأرق عبارة وأخلاها من العنف والشدة . والأستاذ عزام لا يسأل عما كتبته جريدة « فتى العرب » أو عما هَمَّ به الشبان فى سوريا . ولقد نشرت جريدة المقطم قبل البلاغ خلاصة ماقيل وكتب فى هذا الموضوع فى سوريا ، وعادت المقطم فى اليوم التالى فانتقدت

مايفكر فيه الشبان السوريون ، ونصحت لهم بالانصراف عنه . وهذا عين ما فعلناه ، وكنا لها تالين ، لا سابقين .

وكان مدار ماقلنا وقالت المقطم : إن الرأى – خطأ كان أم صوابا – لا يقاوم بالحجر والاضطهاد والمطاردة ، بل برأى مثله وبحجة أقوى من حجته . وتوسعنا نحن فى بيان ذلك تصفية للمعنى وتقريرا له فى الأذهان . وزدت أنا على ذلك أن كتبت مقالا أطول بعثت به إلى جريدة « فتى العرب » ألومها فيه ، وأدعوها إلى مناصرة الحرية ، لا التحكم فإن كان هنا دس وكيد ومكر فقد دست المقطم إذن قبلنا وكادت ومكرت . فلماذا ينساها الدكتور طه ويتعلق بالبلاغ أو يتحكك به ؟ ولو أنصف لشكره على دفاع لم يكن مضطرا إليه ولا مطالبا به ، وإنما قام به لوجه الله ، لوجه الحرية .

وليس أبغض إلىّ من الكلام الملفوف الذى يفسح المجال للخيالات والأوهام السيئة مثل قول الدكتور طه « وعفا الله عن قوم يريدون شيئا فيسلكون إليه طريق الذود عن العرب ، والدفاع عن الأحساب والأنساب ، لأنهم لا يستطيعون أن يسلكوا إليه طريقه الواضحة . ولو قد سلكوها لوجدوا فيها شوكا وحسكا كثيرا . »

وعفا الله عنا جميعا ، فما أحد منا غنى عن عفوه ورحمته ، ولكن ما هذا « الشيء » الذى يشير إليه ولا يصرح به ؟ والصراحة من احترام النفس . وقد يسمى الناس لجوء الكاتب إلى التعمية وإيثاره الغموض فى نسبة السوء إلى الغير وقذفهم بالتهم – قد يسمون هذا حذقا ويحسبونه كياسة ولباقة . أما أنا فأعرف أن هذا هو المكر

السيىء ، والكيد المعيب ، والدس الذى لا يليق بالرجال . فمن كان يعرف على رجل عيبا متعلقا بعمل عام فليعلنه وليجاهر به ، أو فليسكت ، ذلك أكرم له وأمثل برجولته .

ويختم الدكتور طه كلامه ببيت يقول فيه صاحبه :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

ومانعرف – ولا نظن الدكتور يعرف – أن العنكبوت ضرب على البلاغ أو أحد من كتابه بنسجه . ومابصحيفة البلاغ ، بل بغيرها الخمول ، ولسواها ، لا لها خفاء الشأن ، وضآلة الحال ورقته . ومافى البلاغ مغمور مدفون ولله الحمد ، وإنا لنعمل فيه راضية نفوسنا ، مرتاحة ضمائرنا ، جارية أقلامنا بما تنطوى عليه من رأى وعقيدة . وأكرم بذلك من قضاء علينا ، لا نسأل الله إلا المزيد منه .

وساء الدكتور طه أن نقول فى معرض الدفاع عن حرية الرأى أنه أخطأ ، مافى ذلك شك . وقد حاول أن يبين أنه لم يخطىء ، فنفى عنا الجهل بالتاريخ وبرأنا من الغفلة عن حقائقه ، فله الشكر على ذلك أو هو لم ينف ذلك ، ولكنه نفى أن نكون من الجهل والغفلة بحيث نعتقد «أن حكم العرب فى مصر قد كان كله خيرا وبرا ، وعدلا وإنصافا ، قد برئ من الجور والحيف وخلص من البغى والطغيان ، هذا كلام يقوله العامة وأشباه العامة . فأما المثقفون ، وفى مقدمتهم صديقى عبد الرحمن عزام وكتاب البلاغ فيعلمون حق العلم أن حكم

العرب لمصر كان فيه الخير أول الأمر حين حمل إلى مصر الإسلام ولكنه بعد ذلك كان كحكم العرب لجميع البلاد الاسلامية مزاجا من الخير والشر ، ومن العدل والجور . وقد ضاقت مصر به وثارت عليه وجدَّت فى الثورة حتى ظفرت باستقلالها من السلطان العربى » .

فنقول لصديقنا الدكتور طه إننا لا نحتاج إلى علم خاص بالتاريخ لنعرف أن حكم الانسان للانسان يكون فيه الخير والشر ، والعدل والجور ، وأن كل أمة قديمة أو حديثة فى كل مكان من هذه الأرض لقيت هذه الألوان من حكامها سواء أكانوا من أهلها أم كانوا غرباء وأجانب . والدكتور طه لم يقل هذا وإنما قال إن مصر ابتليت بالبغى والعدوان من الفرس والعرب وغيرهم ، فمعنى هذا أن هذه خلاصة الرأى الذى انتهى إليه الدكتور طه فى حكمهم لمصر ، وأن كفة الشر والجور رجحت عنده فاستحق عهدهم فى مصر أن يذكر مقرونا بالبغى والعدوان ، ليس إلا . ومن هذا نرى أن دفاع الدكتور طه عن كلمته لا ينهض ، وتسويغه لها لا يستقيم . وماكنا لنعنى بهذا الجدل لولا أن الدكتور كره أن يقال عنه إنه أخطأ كأنما هو معصوم ، فذهب يكابر . ولو اعترف واعتذر لكان ذلك أكرم له وأمثل به فى رأينا .

ومن دواعى أسفى أن أوجه الكلام إلى صديق لى بهذه اللهجة ، ولكنه أسرف فى سوء الظن ، وأفرط فى الغضب ، وذهب يحصب البلاغ وكتابها بتهم الكيد والدس والمكر ويزعمهم مضروبا عليهم

بيت من بيوت العنكبوت ، ويقول كلاما لا عهد لنا به منه إلا في هذا الزمن الأخير ، ونصارحه بأن هذا كله لا يليق بأدبه وفضله وعلمه ، وما أردنا به وله إلا الخير صرفا ، ولا خطر لنا ونحن نكتب ما كتبنا إلا أن نزجر المقلدين عما نعتقد أنه شر صريح فإن شاء فليؤمن ، وإن شاء ....

وهو يعرف الباقى

جذبت هذه القضية اهتمام كثيرين من المثقفين فى كل من القاهرة ودمشق . فكتب سيد فتحى رضوان (فى البلاغ ١٩ - ٩ - ١٩٣٣) تحت عنوان « لا فرعونية ولا عربية بعد اليوم » مقالا جاء فيه :

« لست أعرف موضوعا تناوله الكتاب بالبحث أسوأ حظا من هذا الموضوع . فما يعرف الكتاب ولا البحاث كيف يعرضون له فى هدوء .

لسنا تائهين نريد أن نجد أمة ننتسب إليها ونلتصق بها ، ونفنى فيها . لنا أصل يجب أن نعض عليه بالنواجذ مهما كان شأنه ، فما تحتاج الأمم القوية إلى تاريخ يسندها إذا كانت عناصر القوة قد تحركت ، وإنما التاريخ وسيلة من وسائل إحياء الأمم » .

وختم مقاله بهذه العبارة « لا فرعونية ولا عربية بعد اليوم ، إنما مصر ، ومصر دائما ، ومصر فقط »

وعقدت مناظرات فى بعض الأندية حول هوية مصر ، وهل هى فرعونية أم عربية . وقف عبد الله عفيفى[1] يرد على دعاة الفرعونية بقوله :

« طلعت علينا فى هذه الأيام الأخيرة فكرة ضارة ، تدعو إلى الفرعونية ، وتريد لها أن تسود ثقافتنا وتفكيرنا ، قائلين إن ذلك هو مجد الخلود ، وسؤدد الأجيال . وإن الرجوع بمصر وبأهلها إلى عهد الفراعنة الشداد ووثنيتهم البالية هو سبيل القوة والعظمة ، ووسيلة الجاه والحياة .

ومادروا أنهم يطالبوننا بالجمود والنكران لهذا التراث المجيد الطاهر الذى ورثناه عن آبائنا العرب الكرام » .

***

ولم يعدم طه حسين من يقف إلى جانبه من أدباء دمشق ، فكتب سامى الكيالى تحت عنوان « طه حسين والعرب » مقالا جاء فيه .

« آلمتنى – والله – تلك النزوة الطائشة التى أثيرت على ضفاف بردى ، والتى أثارها بعض شباب دمشق الذين اتهموا زعيم التجديد الأدبى الدكتور طه حسين بالشعوبية ، وقرروا أن ينهجوا إزاء مؤلفاته نهج شباب النازى حيال مؤلفات اميل لدويغ وتوماس مان من كتاب اليهود الألمان .

---

(١) كوكب الشرق ٢٧ – ٩ – ١٩٣٣

« وأنا أستطيع أن أقول إننى أكثر الناس قراءة لمباحث الدكتور طه حسين ، فى وسعى أن أؤكد وقلبى مطمئن أننى لم أر كاتبا عربيا استطاع أن يكشف عن عبقرية العرب وعن عقليتهم وأدبهم ومدى جهودهم فى الحضارة والتمدين كشفا يرتكز على البحث والتدليل والاستقراء كالدكتور طه حسين »

***

واشترك توفيق الحكيم فى هذه المعركة ، وكانت حملته على العنصر العربى شديدة وظالمة . كتب – قبحه الله – تحت عنوان [1]« إلى الدكتور طه حسين » . « كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحسّ والمادة . لذة سريعة منهومة ، مختطفة اختطافا ، لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الأغريق الحركة ، أى الحياة . وعند العرب السرعة أى اللذة .

« كل شىء يحسونه – يعنى العرب – إلا عاطفة الاستقرار ، وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟ دولة أنشأتها الظروف ، ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيال واسع ، ولا تفكير عميق ، ولا إحساس بالبناء . لهذا لم يعرف العرب البناء سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد . الأسلوب العربى فى العمارة من أوهى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن . وإذا عاش اليوم فإنما يعيش بالزخرف » .

(١) الرسالة العدد العاشر فى ١٩٣٣/٦/١

وقد رد عليه طه حسين [1] بمقال تحت عنوان « إلى الأستاذ توفيق الحكيم » جاء فيه :

« .. ولكن رأيك فى العرب وآثارهم فى حاجة شديدة جدا إلى التقويم وقد ذهب إلى مثل ما ذهبت إليه جماعة من المستشرقين منهم دوزى ورينان . وأحسبكم جميعا تظلمون العرب ظلما شديدا ، وتقضون فى أمرهم بغير الحق . فلو أنكم ذهبتم تقارنون بين العرب وبين الهنود والفرس والمصريين القدماء لما كان من حقكم أن تقدموا هذه الأمم فى الأدب على الأمه العربية بحال من الأحوال ، لأننا لا نكاد نعرف من أدب هذه الأمم فى تاريخها القديم شيئا يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربى . فإلى أن يستكشف أدب هذه الأمم ـــ إن كان لها أدب أكثر من الذى نعرفه ـــ يجب أن نؤمن للعرب بالتفوق عليها فى الشعر والنثر جميعا » .

« وأنت تميز اليونان بالحركة ، وتميز العرب بالسرعة . وتستنبط من هذه السرعة ظلما كثيرا للعرب . وليس من شك فى أن العرب يشاركون اليونان فى الحركة ، ولكن ليس من شك أيضا فى أنك تغلو غلوا شديدا فى وصفهم بالسرعة » .

****

وكما ظهرت فى مصر الدعوة إلى القومية الفرعونية ، ظهرت فى سوريا الدعوة إلى القومية الفينيقية . وكانت هذه الدعوات القومية فى

---

(١) الرسالة (١٥ - ٦ - ١٩٣٣)

مصر أو سوريا صدى للحركة الطورانية التى حمل لواءها مصطفى كمال فى تركيا .

وفيما عدا مقال طه حسين « دائرة » ومقاله فى الرد على المازنى وعزام « بغى » « ولا هذا أيضا » فإن بقية مقالات هذه المجموعة تصور الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الفترة التى كتبت فيها . وتصور نضال الشعب طلبا للحرية والاستقلال ، وما تحمله فى سبيل ذلك من تضحيات . ولم يكن يعلم ما يخبئه له المستقبل بعد عشرين سنة من قيام نفر من أبنائه ينكرون عليه حقه فى الحرية ويفرضون عليه القهر والإرهاب والطغيان ، ويرتكبون فى حقه ما يتعفف عنه الإنجليز

وقد شجعنى على إصدار هذا الكتاب ما لقيه كتاب « حديث المساء » و « غرابيل » و « شارع قوله » من إقبال فعسى أن ينتفع به القراء ، والله الموفق والمعين .

محمد سيد كيلانى

القاهرة فى مايو سنة ١٩٨٤

تجديد

لاأريد تجديد الأدب ، فليس هذا موضع الحديث عن الأدب القديم والجديد ، وإنما أريد تجديد الأزهر ، فقد كثر الحديث فيه منذ أعوام ، لا فى مصر وحدها ، ولا فى الشرق الإسلامى وحده ، بل فى بلاد الغرب أيضا . وأكثر القراء يعرفون ما يتحدث الناس به فى مصر وفى البلاد الشرقية عن إصلاح الأزهر ، ولكن كثيرا منهم ولعل بينهم عددا غير قليل من العلماء الأزهريين يجهلون أن بعض البيئات الأوربية تعنى بما ينال الأزهر من إصلاح عناية خاصة . ويكفى أن نشير إلى فصول طوال كتبت عن مصر باللغة الفرنسية لمجلة فرنسية من مجلات المستشرقين الكبرى ، هى مجلة الدراسات الإسلامية التى يصدرها صديقنا الأستاذ لويس ماسينيون . ولا يكاد يصدر كتاب فى أوربا وأمريكا عن حياتنا الأدبية والدينية إلا وفيه إلمام طويل أو قصير بموقف الأزهر من هذه الحياة ، مشاركا فيها تارة ومقاوما لها تارة أخرى ، وبما ينتظر أن يسلك الأزهر من طريق فى المستقبل القريب ليصل بين حياته القديمة وبين الحياة الجديدة فى مصر خاصة وفى الشرق الإسلامى بوجه عام .

---

(١) كوكب الشرق فى ٦ - ٨ - ١٩٣٣ .

وكان مكاتب التيمس فى القاهرة آخر من تحدث عن الأزهر وما يراد به ، وما يريد هو لنفسه من تجديد فى الفصل الذى نشرته له صحيفته أول أمس ، ولخصته الرسائل البرقية فى الصحف المصرية . وليس الأوربيون مسرفين ولا غالين حين يقدرون أن للأزهر خطراً عظيماً وأثراً بعيدا فى حياتنا الجديدة . ولعل المصريين هم الذين يسرفون فى التقصير حين ينظرون إلى الأزهر ومايناله من الإصلاح نظر المعرض عنه الذى لا يكاد يحفل به ولا يلتفت إليه .

فالأزهر مصدر من مصادر الحياة العقلية فى الشرق الإسلامى ، وهو أقدم هذه المصادر ، وكان أقواها وأجلها خطرا إلى عهد بعيد وسيظل مصدرا قويا جدا من مصادر الثقافة فى هذا الشرق . ويكفى أن تلاحظ أمرين : أحدهما أنه أكبر معهد يدرس فيه الإسلام .

والثانى أن الطلاب الذين يقصدون إليه ويدرسون فيه لا يحصون بالمئات وإنما يحصون بالألوف . فهو من الناحية الأولى قوى أشد القوى لاتصاله بحياة المسلمين الدينية وتأثيره فى هذه الحياة واضطرار المسلمين إلى أن يحوطوه ويرعوه ويحرصوا على أن يظل كما يحبون له قويا عزيزا ماداموا حريصين على أن يظل كما يحبون له قويا عزيزا . وهو من الناحية الثانية بعيد الأثر فى حياة الأفراد والجماعات ، لأن الطلاب الذين يقصدون إليه ويطيلون الاتصال به يخرجون من طبقات الأمم الإسلامية كلها مهما تختلف وتتباين ثم يعودون إلى بيئاتهم وقد أتموا الدرس أو كادوا يتمونه فيؤثرون فى هذه البيئات . تأثيرا يلائم مادرسوا وماتعلموا ، ومأأثر فى

مزاجهم وطبائعهم من هذه المؤثرات التى تتصل بالتعليم وبالتعليم الدينى بنوع خاص .

فالذين يهملون الأزهر حين يدرسون الحياة المصرية ، والذين لا يحسبون للأزهر حسابا حين يحللون هذه الحياة ، وحين يقدرون مستقبلها من أى نحو من أنحائها يسيئون إلى أنفسهم لأنهم يأخذونها بنوع من الدرس منقوص لاخير فيه ولا غناء ، ويسيئون إلى أمتهم لأنهم يهملون مصدرا من أقوى المصادر التى تؤثر فى حياتها العقلية والدينية والشعورية . ثم تؤثر لهذا كله فى حياتها السياسية والاجتماعية على اختلاف فروعها وأشكالها .

وما ينبغى بحال من الأحوال أن تكون عناية الأجانب بحاضر الأزهر ومستقبله أشد من عنايتنا نحن . فالأزهر لنا قبل أن يكون للأجانب . والأزهر مؤثر فى حياتنا نحن قبل أن يؤثر فى الصلة بيننا وبين الأجانب . ولعل مكاتب التيمس قد وفق توفيقا عظيما حين لاحظ أن تلاميذ التعليم الحديث كانوا ينظرون منذ عشرين سنة إلى الأزهريين كما ينظرون إلى قوم غرباء ، ليس بينهم وبينهم صلة . وأن هذه الحالة قد تغيرت الآن فقربت الآماد بين الأزهريين وبين غيرهم من المثقفين .

ولعل هذه الملاحظة تعيننا على أن نفهم إعراض الناس عن الأزهر وتقصيرهم فى العناية به . فأكثرهم مايزالون ينظرون إلى الأزهريين على أنهم غرباء أو كالغرباء . وأكثرهم ما يزالون يعتقدون أن الحياة الحديثة ستمضى فى طريقها إلى الأمام ، وأن الأزهر سيظل مثقلا بالقديم فيضطره ثقل التراث الذى يحمله إلى التخلف أو إلى التقدم البطىء .

وهذا النحو من التفكير ظاهر الصواب ولكنه مغرق فى الخطأ .

فالأزهر كغيره من المرافق المصرية مضطر إلى أن يخضع لضرورات الحياة الحديثة . والأزهريون كغيرهم من المصريين مضطرون إلى أن يخضعوا لضرورات هذه الحياة . وقد حاول المصلحون فى مصر أن يدعوا الأزهر متخلفا وينهضوا بإنشاء المعاهد التى تلائم حاجات الناس ومصالحهم وتخضع فى سهولة ويسر للتطور الذى يخضعون له فأنشئت دار العلوم فى القرن الماضى ، وأنشئت مدرسة القضاء الشرعى فى أول هذا القرن ، ولكن ظروف الحياة المصرية واضطراب السياسة المصرية أبت إلا أن ترد إلى الأزهر شيئا من القوى والنشاط وتمكنه من أن يدافع عن نفسه ، ومن أن يحاول النهوض بما يجب أن ينهض به من أعباء الحياة فى هذا العصر الحديث ، فألغيت مدرسة القضاء ، ثم أعيدت ثم ألغيت . وهذه دار العلوم تريد أن تلغى أو تريد أن تعود إلى أصلها وتفنى فى الأزهر الذى أنشئت لتقاوم به أو لتأخذ عليه الطريق .

وهنا يخطىء مكاتب التيمس خطأ عظيما مصدره أنه لا يحسن العلم بتاريخ الأزهر منذ أول هذا القرن . فليس من الحق فى شىء أن نهضة الأزهر حديثة يرجع تاريخها إلى هذه الأعوام الأخيرة ، وإنما الحق الذى لا يشك فيه أن نهضة الأزهر بعيدة العهد ، عرفتها مصر قبل الحرب الكبرى بأعوام . وكان للأستاذ الإمام محمد عبده الفضل الأكبر فى تأسيسها وفى بعث الحياة القوية فى نفوس نفر من الأزهريين ، إلى بعضهم فى هذه الأيام مقاليد الأمر فى الأزهر ، فليست نهضة الأزهر بنت الحرب الكبرى أو بنت الحركة الوطنية الأخيرة ، وإنما هى بنت

الحياة المصرية فى أيام الأستاذ الإمام . وليس من أبناء هذا الجيل من ينسى جهود الأستاذ فى إحياء الأزهر نفسه وبعد وفاة الأستاذ الإمام فى الجهاد والكفاح للوصول إلى أعظم حظ ممكن فيه .

وقد استفادت نهضة الأزهر من الحركة الوطنية الأخيرة ، ومن إعلان الاستقلال والدستور ، كما استفادت المرافق المصرية كلها من هذه الحركة . فخيل إلى كثير من الأجانب الذين لا يدرسون حياتنا درسا عميقا أن النهضة الأزهرية قد ابتكرت ابتكارا فى هذه الايام .

وليس من شك فى أن الفضل الأكبر لحضرة صاحب الجلالة الملك فى توجيه هذه النهضة القوية وتنظيمها ورعايتها بعطفه السامى وعنايته الكريمة حتى أخذت هذه الطريق التى تسير فيها الآن .

ومن الغريب أن مظاهر النهضة الأزهرية فى هذه الأيام تشبه مظاهرها قبل الحرب من وجوه كثيرة نذكر منها وجهين اثنين .

أحدهما أن الأزهريين قد أحسوا أنفسهم وطمعوا فى أن يكون لهم ما لغيرهم من المصريين المثقفين من الحق والكرامة والاحترام . وفى الثقافة والعلم . ثم نظروا فرأوا أن غيرهم من المثقفين إنما يمتاز بالعلم الحديث واللغات الأجنبية ، فأبوا إلا أن يكون لهم حظ من هذا العلم الحديث وهذه اللغات الأجنبية ليكونوا كغيرهم من الناس فى المنزلة وفى المكانة وفى الكرامة والحرمة ، وفى التفكير والتقدير .

الثانى أن الأزهريين حين أحسوا أنفسهم طمعوا فى أن ينهضوا بالواجبات المدنية كما ينهض بها غيرهم من الناس . ونظروا فإذا

مناصب الدولة قد قصرت على غيرهم وصرفت عنهم ، ولم يحفظ لهم منها إلا اليسير . ثم نظروا فإذا مصدر هذا أن تعليمهم القديم لا يعدهم للنهوض بالأعباء التى تفرضها هذه المناصب فطالبوا بأن يغير التعليم فى الأزهر ، وبأن تمحى الفروق بين الأزهريين وبين الطلاب فى المدارس المدنية

كان الأزهريون يشعرون بهذا أول القرن شعورا قويا ، وهم يشعرون بهذا الآن شعورا قويا ، ولن تجد تعليلا آخر لإقبال الأزهريين على هذه النهضة يؤيدونها ويستبقون إلى أن يأخذوا منها بأعظم نصيب . ولو أن الدولة نظرت إلى الأزهر والأزهريين منذ أول هذه النهضة كما نظرت إلى غير الأزهر من المرافق وإلى غير الأزهريين من أبناء مصر لأخذ الإصلاح الأزهرى طريقه مستقيمة منتجة لا عوج فيها ولا التواء ، ولكن الدولة كانت تخاف من المحافظين فى الأزهر فلم تكن تمس الأزهر بالإصلاح إلا على إسراف فى الرفق والاحتياط . وكان للأزهر من الدولة وضع خاص قبل الحياة الدستورية يجعل سلطان الدولة عليه يسيرا ضئيلا ، فلم تستطع الحكومة أن تواجه إصلاح الأزهر بما كان ينبغى من الحزم والنشاط .

والمسألة التى يجب أن يفكر فيها المصلحون الآن حين ينظرون إلى الأزهر ويقدرون مستقبله ، ذات وجهين فيما نعتقد . أحدهما أن الأزهر معهد من معاهد التعليم ، لا أكثر ولا أقل . والثانى أن الأزهر معهد من معاهد التعليم الدينى الإسلامى . فالوجه الأول يقضى بأن يحال بين الأزهريين وبين كل ما من شأنه أن يفسد التعليم أو يضعف

أثره فى النفوس أو يشوه تكوينه للعقل . والوجه الثانى يقضى بأن يحال بين الأزهر وبين كل ما من شأنه أن يضعف سلطان الدين أو يشكك الناس فى القائمين على خدمته أو يسيء ظنهم بالذائدين عنه .

ومعنى هذا أن أوجب ما يجب على الدولة أن تعصم الأزهر من السياسة ، وتبذل كل ماتملك من قوة لتجعله بمعزل عنها ومأمن منها . فلم تدخل السياسة فى شيء من أمور الدين إلا أثارت حوله الريب والشكوك وألقت بينه وبين الناس حجابا كثيفا . وكم نحب أن يحال بين الأزهر خاصة ومعاهد التعليم عامة ، وبين السياسة وآثارها المفسدة لكل نظام من نظم التعليم حين تندس إليه .

عوجاء

نعم[1] عوجاء ، شديدة العوج ، ملتوية شديدة الالتواء هذه الطريق التى تعلن إلى الناس أنك ستسلكها إلى الخير والإحسان ، وإلى البر والمعروف حتى إذا مضيت فيها تقطع الآماد والأشواط ، وتنهب الأرض نهبا ، تبين للناس أنك لا تسلكها إلى الخير والإحسان ، ولا إلى البر والمعروف ، وإنما تسلكها إلى الإذاعة عن نفسك ونشر الدعوة لما تحب أن يظن الناس بك ويرون فيك ، والتخييل إلى الناس أنك رفيق بهم على حين أنك رفيق بنفسك ، حريص على منفعتهم على حين أنك حريص على منفعة نفسك ، جاد فى خدمتهم على حين أنك جاد فى أن تخدعهم عن نفسك وتلهيهم عما كان يجب أن ينهضوا به من السعى إلى الخير والاجتهاد فى الإصلاح ، تخيل إليهم أنك ستقوم بذلك عنهم وستكفيهم مؤنته ومشقة الجد فيه والسعى إليه فإذا صدقوك واطمأنوا إليك وأولوك ما تطلب من ثقة ومنحوك ما تريد من تأييد ، أعرضت عنهم وعن آمالهم ، ولم تصنع لهم شيئا كأنك لم تعدهم بشىء وكأنك لم تعاهدهم على شىء .

---

(١) ٨ - ٨ - ١٩٣٣

نعم عوجاء شديدة الاعوجاج ، ملتوية شديدة الالتواء هذه الطريقه التى يسلكها بعض الناس ، يعلنون أنهم يبتغون بسلوكها وجه الله فإذا هم يمضون إلى مالا يلائم رضا الله ولا رضا الناس ، وإنما يلائم أغراضا غير واضحة وأعراضا غير بينة ، وأهواء أقل ما توصف به أنها لا تليق بكرام الناس

وما أكثر ما يسلك الناس هذه الطرق المعوجة ، وما أكثر ما يمضى الناس فى هذه السبل الملتوية إذا فسدت أمور الحياة العامة واضطرب رأى الناس فيها وتقديرهم لها وحكمهم عليها . هنالك يظهر المنتفعون والمنتهزون للفرص ، وهنالك يظهر العابثون واللاعبون بالعقول . وهنالك تصبح المنافع العامة خدعة من الخدع ، وتعلة من التعلات ووسيلة إلى تحقيق المآرب الخاصة وسببا إلى قضاء الحاجات . وهنالك يكثر الفساد ، ويزداد انتشارا ، وتعظم الأثرة وتشتد سيطرتها على القلوب والنفوس . وهنالك يضعف تقدير الناس للمنفعة العامة وتفكيرهم فيها ورعايتهم لحرمتها . وهنالك يصبح الناس فرديين ، لا يعنى كل واحد منهم إلا بنفسه ، يدفع عنها ما يستطيع دفعه من الشر ، ويجر إليها ما يستطيع جره من الخير . وهنالك يضعف الروح الوطنى وتنحل قوة التضامن ويصبح الناس وقد لهوا عن قوميتهم ، وشغلوا عن وحدتهم ، وأصبح كل طامع قادرا على أن يذلهم فيمعن فى إذلالهم ، ويستغلهم فيغرق فى استغلالهم ، ويسخرهم لما يريد دون أن يخشى رقيبا ولا حسيبا

هذه ظاهرة من ظواهر الحياة العامة فى كل بلد من البلاد يصاب بمثل هذه الأزمات السياسية والخلقية والاقتصادية التى تشقى مصر بها فى هذه الأيام .

وإنك لقادر على أن تشهد هذه الظاهرة وتحققها وتأسف أو لا تأسف حين تشهدها وتحققها فى كثير من أنحاء الحياة المصرية . فما أعظم الفرق بين ما يقول كثير من الناس وما يعملون . وما أبعد الأمد بين ما يظهر كثير من الناس وما يضمرون . كل الناس إذا تحدثت إليهم محب لمصر ، عطوف عليها ، رءوف بها ، مؤثر لها على نفسه . فإذا بلوت أعمال الناس فكثير منهم من يحب نفسه ويعطف عليها ، ويرأف بها ويؤثرها على كل شيء ، ويؤثرها على مصر قبل أن يؤثرها على أى شيء . ولولا انتشار هذا النوع من النفاق فى حياتنا الاجتماعية ، ولولا انتشار هذا النوع من الفرق بين ما يقول كثير من الناس وما يعملون لما شقيت مصر بهذه الحال السيئة التى تشقى بها منذ أعوام .

وكم نحب أن يبرأ فريق من المصريين ، فريق بعينه من حب هذه الطرق الملتوية العوجاء ، لأنها لا تلائم طبيعة مركزه ، ولا تلائم ما يريد الناس أن يروا فيه وان ينتظروا منه . كم نحب أن تكون طريق علماء الدين أبرأ الطرق من الاعوجاج ، وأبعد الطرق عن الالتواء ، وأقرب الطرق إلى الصدق والإخلاص والنصح لله وللمسلمين والملاءمة بين ما يسرون وما يعلنون ، وبين ما يعملون وما يقولون . هؤلاء علماء الدين قد سكتوا وسكنوا ، وأطالوا السكوت والسكون . فأنكر الناس عليهم ذلك . ثم قالوا ونشطوا وأكثروا القول وأمعنوا فى النشاط فحمد الناس لهم ذلك ولكن سكوتهم وسكونهم كانا يضران ويجلبان على الناس شرا كثيرا . فكان من حق الناس أن ينكروا ويلوموا ، وكان من حق الناس أن ينتظروا من قول

الشيوخ ونشاطهم خيرا كثيرا . فماذا أفاد الناس من قول الشيوخ حين قالوا ، ومن نشاط الشيوخ حين نشطوا ؟ لقد مضى شهر ونصف شهر منذ نهضت هيئة كبار العلماء تدعو إلى سبيل الله ، وتذود عن دين الله ، وفى هذا الشهر الذى مضى وفى نصف الشهر الذى تبعه اجتمع الشيوح واجتمعوا . وقال الشيوخ وقالوا ، وعمل الشيوخ وعملوا . ثم يتساءل المسلمون اليوم عن نتيجة هذا كله فيذكرون قول أبى العلاء حين أنشد لبعض شعراء الغرب الإسلامى ، وسئل عن رأيه فيما سمع فقال : كأنى أسمع رحى تطحن قرونا ، أى أنه كان يسمع جعجعة ولا يرى طحنا .

وكذلك يسمع المسلمون كلاما كثيرا من شيوح الأزهر ، ويرى المسلمون نشاطا عظيما من شيوخ الأزهر ، ولكنهم لا يظفرون من هذا الكلام الكثير ، ومن هذا النشاط العظيم بشىء يسير .

لقد علمت هيئة كبار العلماء أن المسلمين يفزعون إليها ويلحون فى الفزع لتجدّ فى إنقاذ هذه المرأة المسلمة التى تسمى نظلة غنيم والتى ما تزال لغير المسلمين عليها سبيل ، والتى لا تستطيع أحكام الله أن تنفذ فيها ، ولا أن تردها إلى أهلها ، ولا أن تصرف عنها المكروه ، لأن حكما من أحكام المجلس الملى الانجيلى يقوم دون أحكام القضاء الإسلامى فيعترض سبيلها ويحول بينها وبين النفاذ . تعلم هيئة كبار العلماء هذا كله وتسمعه فى كل يوم وتقرؤه فى كل يوم ، وهى تجتمع وتجتمع . فنحب أن نعلم ماذا فعلت لتنفذ أحكام الإسلام فى بلد من بلاد الإسلام مع أن هذه الأحكام لا تناقض الدستور ، ولا تخالف القانون ، ولا تعرض مصر لخطر من الأخطار .

نحب أن نعلم أى سعى سعت هيئة كبار العلماء عند الوزارة لتنفذ هذه الأحكام ، ولترعى هذه الحرمات وماذا أنتج هذا السعى عند الوزارة ، وبماذا لقيته ؟ أبالقبول أم بالاعتراض ؟ فإن تكن الأولى فما بال هذه الفتاة المسلمة لم ترد إلى أهلها المسلمين ؟ وإن تكن الثانية فما بال هيئة كبار العلماء لم تنكر ولم تحتج ولم تعلن إلى المسلمين عجزها عن حماية الإسلام ، وبراءة ذمتها من هذا العبء الذى نهضت به وهى لا تقدر عليه . والأمر أشد خطرا من أن يكتفى فيه بكلام يقال وصمت يطول . فلابد من أن يعلم المسلمون إلى أى حد كانت الوزارة جادة فيما وعدت به من حماية الإسلام ، وإلى أى حد كانت هيئة كبار العلماء جادة فيما أخذت نفسها به من الذود عن الإسلام .

زعموا أن مفاوضات تجرى بين الوزارة ودار المندوب السامى فى إصدار قانون ينظم مراقبة التبشير والمبشرين . وقد طلبنا إلى الوزارة ان تقول فى ذلك فلم تسمع لنا ولم تحفل بما طلبنا . فنحب أن نعلم : أيراد أن يظل أمر هذه الفتاة المسلمة الأسيرة معلقا موقوفا حتى يصدر هذا القانون ؟ ولعل بين مواده ونصوصه ما يجعلها خالصة للمبشرين . أم يراد أن يفصل فى أمر هذه الفتاة بما يرضى الله والقانون والدستور قبل أن يصدر هذا التشريع الجديد ؟ سؤال ينتظر جوابا وينتظر جوابا صريحا سريعا من هيئة كبار العلماء ومن لجنتها التنفيذية بوجه خاص ، ومن صاحبى الفضيلة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية بوجه أخص . فقد كثر الكلام فى هذا الموضوع وطال

الصمت . وقد اشتد الإلحاح فى هذا الموضوع وطال الإعراض وآن للناس أن يعرفوا أهم من أمر التبشير والمبشرين فى جد أم فى هزل ؟

هناك طريقان إحداهما واضحة مستقيمة وهى السعى الصريح فى إنفاذ أحكام الإسلام ، أو الإعلان الصريح للعجز عن ذلك .

والأخرى عوجاء ملتوية وهى المماطلة والمراوغة والإعراض والإغضاء ، وإكثار القول وإقلال العمل . وواضح أنا نحرص أشد الحرص ونتمنى ماوسعنا التمنى أن تسلك وزارتنا وشيوخنا تلك الطريق المستقيمة لأنا نكبر وزارتنا وشيوخنا عن التورط فى كل طريق ملتوية عوجاء .

عتاب

نسوقه إلى زميلتنا السياسة الغراء ، فقد بغت وطغت ، وأسرفت فى البغى والطغيان حتى تجاوزت كل حد ، وخرجت عن كل طور . وما رأيك فى صحيفة سيارة تتتبع ما يقال عن علماء الإسلام ومصابيح الظلام وأعلام الهدى ونجوم الدجى ، وورثة الأنبياء فتذيعه ، لا تتحرى فيه حقا ، ولا تتثبت فيه من صواب ، فتسيء بذلك إلى ورثة الأنبياء ، وأى إساءة أشد من إشاعة الشر عنهم وإذاعة الفاحشة فيهم ؟ وتسيء إلى المسلمين ، وأى إساءة أشد من أن تصور هداتهم وحماتهم فى هذه الصورة المنكرة التى تذيعها فى هذه الأيام ؟

أذاعت منذ شهور أن شيخا من شيوخ الأزهر الشريف سافر فى الدرجة الثانية واقتضى أجر الدرجة الأولى فاحتاز مالا ليس له ، وإنما هو لله والمسلمين . وظلت تذيع وتشيع ، وظلت تصول وتجول وتكتب وتقول حتى ضقنا بذلك أشد الضيق وكرهنا ذلك أشد الكره ، وفزعنا إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر فى أن يكذب هذا الحديث ويرفع هذا العار ، ويضطر السياسة

---

(١) ٨ - ٨ - ١٩٣٣

إلى السكوت ، ولكن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر كان حليما مغرقا فى الحلم ، فأعرض عن السياسة رحمة لها وعطفا عليها ، وثقة أن أحدا من الناس لن يصدقها ، ومن الذى يصدق أن علما من أعلام الهدى ، ونجما من نجوم الدجى ، ومصباحا من مصابيح الظلام وإماما من أئمة الإسلام يحتجز من مال الدولة قرشين أو ما ينقص عنهما قليلا أو ما يزيد عليهما قليلا ؟ ولكن فى الحلم إغراء ، وفى العفو أطماعا ، فظنت السياسة أن حلم الشيخ الأكبر عجز ، وظنت السياسة أن عفو الشيخ الأكبر ضعف ، وظنت السياسة أن صمت الشيخ الأكبر تسليم . وقد ساء ظن السياسة فالشيخ أكبر من العجز ، والشيخ أقوى من الضعف ، والشيخ أقدر من التسليم ، ولكن الناس فطروا على الطمع فيمن يعفو عنهم ، والاعتداء على من يعطف عليهم .

وهذه السياسة تنشر اليوم من غير أن تتحرى ومن غير أن تتثبت قصة شرا من تلك القصة ، وحديثا شرا من ذلك الحديث . كوكب من كواكب الدجى ، وشمس من شموس الهدى ، وطود من أطواد الإسلام وركن من أركان الدين ، وإمام من أئمة اليقين ، وعضو من هيئة كبار العلماء التى نهضت لتدعو إلى سبيل الله ، وتذود عن دين الله تتهمه السياسة – والعياذ بالله – بأنه كان يرأس جماعة من جماعات العلماء ، جمعت المال ثم أصابها الانحلال ، فظل مالها أمانة عند الشيخ عاما وعاما ، ثم عاما وعاما ، ثم أعواما بعد أعوام . والشيوخ يطلبون إلى الأستاذ أن ينفق هذا المال فى وجه من وجوه

الخير أو فى سبيل من سبل البر ، والشيخ عن ذلك معرض حتى كانت هذه الأيام ونهضت الهيئة الموقرة لتحمى الإسلام ، وحماية الإسلام فى حاجة إلى المال . فالناس يطالبون الأستاذ بأن يؤدى الأمانة التى أؤتمن عليها وأن يدفع المال إلى خزان الهيئة لينفقوه فى سبيل الله ، والشيخ معرض كأن أحدا لا يتحدث إليه ، ولا يسأله عن شىء .

كذلك قالت « السياسة » صباح اليوم . وأنا برىء إلى الله وإلى العلماء وإلى الناس جميعا مما قالت « السياسة » ولست أكتب مسجلا له ولا مؤمنا به ، وإنما أكتبه منكرا له أشد الإنكار ، لائما السياسة فيه أشد اللوم ، طالبا إلى الشيخ الأكبر أن يخرج عن حلمه الحليم ، وعن رحمته الرحيمة وأن ينفى هذا الذى تذيعه السياسة ، فإن من الدعوة إلى سبيل الله ، والذياد عن دين الله أن يكون ورثة الأنبياء أصفى من الصفاء ، وأنقى من النقاء . وطالبا للسياسة نفسها أن تمحو ما سطرت ، وتنكر ما نشرت وتعتذر إلى الإسلام ومصابيحه ، وإلى الدجى وكواكبه وإلى الهدى وأعلامه ، وإلى الأنبياء وورثتهم من هذا الكلام الذى لا ينفع ولكنه يضر ، ولا يحسن ولكنه يسىء . ولعل السياسة لا تغضب إن اشتددنا عليها فى العتب ، وشططنا عليها فى اللوم ، فما وفيناها إلا بعض حقها ، وما جزيناها إلا بأيسر الجزاء .

أحجار

هم المصريون جميعا على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وعلى تباين آرائهم وأهوائهم ، وعلى افتراق شيعهم وأحزابهم ، كلهم أحجار فى رأى صحيفة الوزارة التى صدرت صباح اليوم ، ومن بينهم الوزراء وأشباه الوزارء ، والقادة وأشباه القادة ، وزعماء النظام الحاضر وأصحاب النظام القديم .

هؤلاء أحجار ، ولكن هذه الأحجار تختلف فمنها الأحجار الصلدة العوجاء ، ومنها الأحجار الكريمة النفيسة . وواضح كل الوضوح ، وجلى كل الجلاء ، وبينّ كل البيان أن الوزراء وأشباه الوزراء وأن أنصار الوزراء وزعماء هؤلاء الأنصار ليسوا من تلك الأحجار الصلدة العوجاء وإنما هم جواهر ممتازة ، لا يعرض لها النقص ولا يطرأ عليها الفساد ، ولا يصيبها ما يصيب الأحجار الخسيسة من التغير والتبدل ولا تتعرض لما تتعرض له هذه الأحجار الخسيسة من الامتهان والازدراء ، إنما الوزراء وأشباه الوزراء وأنصار

(١) ١١ - ٨ - ١٩٣٣

الوزارة وزعماء هؤلاء الأنصار أحجار كريمة نفيسة غالية عزيزة ، فمنهم من صيغ من زمرد ، ومنهم من خلق من ماس ، ومنهم من صور من مرجان كما تقول صحيفة الوزارة .

وتستطيع أن تحصى الجواهر الغالية كلها سواء منها ما يخرج من البحر وما يقطع من الجبل ، وما يلتمس فى أى مكان شئت . تستطيع أنت أن تحصى هذه الجواهر الغالية فتلائم بينها وبين سادة اليوم فتوزعها عليهم أو توزعهم عليها ، فستجد منهم اللؤلؤ والدر ، وستجد منهم الزبرجد والعقيق ، كما وجدت صحيفة الوزارة منهم الزمرد والماس والمرجان .

وأنا مؤمن بأن سادة اليوم من الوزراء وأشباه الوزراء وأنصار الوزراء أحجار كريمة نفيسة ولكن المسألة التى تحتاج إلى التفكير والتقدير هى حاجة مصر الماسة وضرورتها الملحة فى هذه الأيام . فهل مصر فى حاجة إلى الأحجار الكريمة التى تتخذ للزينة والتجمل ؟ أم هل مصر فى حاجة إلى الأحجار الصلبة القوية التى تتخذ للبناء والإنشاء والتى لا تعمل فيها المعاول ولا الفئوس ، ولا تفنيها الأحداث ولا الخطوب ، والتى تبقى على الدهر بقاء الأهرام وما يشبه الأهرام من الآثار الخالدة ؟

أنا أرضى لخصوم الوزارة أن يكونوا هذه الأحجار ، وأكره لخصوم الوزارة أن يكونوا من أحجار الزينة والبهرج والتجمل . فمصر فى حاجة إلى أن يقام لها بناء منيع عزيز من المجد والعزة حتى إذا فرغت من إقامة هذا البناء واستوثقت من عزته ومناعته ، ومن

قوته ومتانته ، ومن أنه كما تقول صحيفة الوزارة ، أوكما تستشهد بقول القدماء : أبقى على الزمن الباقى من الزمن ، جاز لها أن تفكر فى تزيين هذا البناء وتحسينه وفى ترصيعه وتجميله ، وفى تحليته بالأحجار الكريمة والجواهر النفيسة .

ومن غريب الأمر أن صحيفة الوزارة قليلة التوفيق فيما تقصد إليه من تفكير ، وفيما تتورط فيه من تشبيه ، ولكنها فى هذه المرة أو قل فى هذه الجملة فكرت وأجادت التفكير ، وشبهت فأحسنت التشبيه ، وما أظن أن الناس قد نسوا تشبيهها وزراء الدولة أول هذا العام بالخمر المعتقة والنبيذ القديم . أما فى هذه المرة فلم يخطئها التوفيق وكأنها دفعت إليه دفعا ، فوزارتنا القائمة زينة لمصر من غير شك لا تمثل حاجة من حاجاتها ، ولا تصور ضرورة من ضروراتها . ولولا أنها زينة عارضة يمكن الاستغناء عنها ، والتخفف من ثقلها لما جرت أمور مصر كما تجرى الآن . ورئيس وزرائها مريض منذ أشهر طوال ، مريض لا يستطيع العمل ، ولا يقدر على التفكير فيه ، يقيم فى مصر فيستريح ، ويرحل إلى أوربا فيستريح ، وتجرى أمور مصر كما تستطيع . فرئيس وزرائنا حلية من الماس أو من أى جوهر أكرم من الماس ، ولكنه حلية على كل حال ، يمكن أن نتخدها حين نريد أن نباهى الدول ، ونعلن إليها أن لنا رئيس وزارة كما لها رؤساء وزاراتها ، وأن رئيس وزارتنا نفيس كريم ، أنفس وأكرم من رؤساء وزاراتها ، فهو من الماس الذى نتزين به ونتحلى . وليس من الأحجار الصلدة العوجاء التى يختل بافتقادها البناء ، وليس مما يقبل الشك أن مكدونالد وموسولينى وهتلر ودلاديبه وأشباههم من رؤساء الوزارات

الأجنبية لا تنظر إليهم بلادهم كما تنظر إلى الأحجار الكريمة التى نتخذها للحلية والزينة ، وإنما تنظر إليهم كما تنظر إلى الأحجار الصلبة المتينة التي تتخذ للبناء وإقامة المجد حتى إذا فرغنا من المفاخرة والمكاثرة ، ومن التنافس والمسابقة استطعنا أن نريح رئيس الوزراء وندعه فى داره أو فى مصطافه يستشفى ويتزيد من صحته الغالية ، ووزراؤنا كذلك زينة من غير شك نستطيع أن نباهى بهم الأمم . فلنا وزير تقاليد كما لهم وزراء تقاليد ، ولكن وزراء التقاليد عندهم أحجار صلبة متينة ، لا يسافرون ولا يستريحون إلا أن تضطرهم إلى ذلك الضرورات القاسية ، وهم حينئذ يدعون إلى العمل ليقوم مقامهم من يستطيعون العمل فى غير حاجة إلى السفر ، ولا إلى التنزه فى العواصم ومدن الاستجمام .

وأوضح من هذا كله فى الدلالة على أن وزراءنا زينة وحلية ومظهر الجمال أكثر من أى شيء آخر ، أن مصر لم تشغف بالإعلان عن نفسها ولم تتهالك على المفاخرة والمكاثرة ، ولا على إظهار العظمة التى لا تلائم حاجتها وطاقتها ، ولم تكلف بدعوة الأجانب إليها وإرسال أبنائها إلى الأجانب بمقدار ما يظهر من أمرها فى هذه الأيام . فهذه المؤتمرات التى تدعى بحساب وبغير حساب إنما تدعى فى أكبر الظن لترى وزراءنا وتستمتع بالنظر إليهم والحديث معهم والتنعم بما يقيمون لها من حفل وما يغدقون عليها من معروف . وهؤلاء الحاضرون وهؤلاء الخبراء الذين يدعون حين نحتاج إليهم وحين لا نحتاج إليهم ، إنما يدعون ليشهدوا ما عندنا من زينة وما نغيظ به

الأمم الأخرى من هذا الحلى البديع ، حتى إذا انقلبوا إلى بلادهم ورجعوا إلى أوطانهم تحدثوا بما يملأ أيدينا من الغنى والثروة وما يزين رءوسنا وصدورنا من هذه الأحجار الكريمة والجواهر الغالية العزيزة فخلبوا أمم الغرب بهذا الحديث حتى أصبحت مصر فى هذه الأيام مضرب المثل فى الغنى والثراء ، وفى اليسر والنعيم .

ولكن بين وزرائنا وبين هذه الأحجار الكريمة النفيسة التى يشبهون بها فى صحيفة الوزارة فرقا يضعف التشبيه ويفسده ويجعله على أقل تقدير ناقصا غير مستقيم . فليست الأحجار الكريمة زينة فحسب ولكنها ذخر فى الوقت نفسه ومادة من مواد الثروة الباقية تنفع حين تشتد الأزمة ، ويتحرج الأمر ، ويعظم الضيق . وظاهر أن النقد يتغير ويتبدل فيصعد حينا حتى يضطرهم إلى الفقر والإعدام . فأصحاب الأحجار الكريمة فى هذه الحال سعداء آمنون من الجوع والمتربة ، لأنهم يستطيعون أن يبيعوا بعض هذه الأحجار فيفيدوا من بيعها مالا كثيرا . ووزراؤنا – والحمد لله – لا يمكن أن يقوموا مقام هذه الأحجار إذا اشتدت الأزمة وضاق الأمر ، وأوشك الجوع أن يهلك الناس ، ويفسد عليهم كل شىء . فهم زينة ليس غير ، بينما الأحجار الكريمة زينة وذخر معا . وما رأى صحيفة الوزارة فى أن مصر قد أخذت فى هذه الأيام تحتاج إلى الطعام أكثر مما تحتاج إلى الزينة ؟! وماذا يغنى عن مصر الآن أن لها وزارة من الزمرد والماس والمرجان ما دام كثير من أهلها لا يجدون الخبز والملح أو ما يشترون به الخبز والملح ؟! على أن توفيق هذه الصحيفة فى هذا التشبيه ليس مقصورا على هذه الناحية التى تمس سادتها وأولياءها ، وإنما هو كامل شامل بالقياس إلى خصومها من المعارضين . فهم من هذه الأحجار

الصلبة ، وأى دليل على صلابتها أوضح من أن وزارة الزينة قد قامت منذ أكثر من ثلاثة أعوام ، وجدَّت ما استطاعت فى أن تحطم من هذه الأحجار حجرا فلم تظفر بشيء ، ولم تقدر على شيء . ومازالت هذه الأحجار كما كانت يوم قامت وزارة الزمرد والماس والمرجان لم تعمل وحدها فى تحطيم هذه الأحجار الصلبة وتقويم هذه الأحجار العوجاء ، وإنما عمل معها قوم آخرون ليسوا من الزمرد والماس والمرجان ولكنهم من الحديد والنحاس وما شئت من المعادن ومن غير المعادن . هم من هذه الجواهر العنيفة الخطرة التى تقدر على تحطيم كل شيء وتقويم كل عوج إلا تحطيم الأحجار الصلبة ، لأن صلابتها صورة من حب الوطن والإيمان بقوته وبقائه وحقه الخالد فى القوة والبقاء ، وإلا تقويم هذه الأحجار المعوجة لأن اعوجاجها صورة من مضاء العزم وشدة البأس وإباء الضيم والإلحاح فى المطالبة بالحق حتى ولو تألبت عليها كل الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة .

لست أدرى أتحمد الوزارة لصحيفتها هذا التشبيه الذى جعلها من الزمرد والماس والمرجان ؟ أم تنقمه منها وتنكره عليها ؟ أما نحن فنقبل هذا التشبيه الذى يجعلنا حجارة صلبة لا سبيل إلى تحطيمها ، عوجاء لا سبيل إلى تقويمها . ونؤكد أن هذه الصلابة التى أعيت كل من حاول أن ينال منها إلى آخر الدهر ، وقد تحطمت عليها قرون وستتحطم عليها قرون أخرى ، ولكننا نعود فنقترح على الوزارة كما اقترحنا غير مرة أن تكلف وزارة المعارف تعليم كتابها وأنصارها فن البيان وحسن الكتابة وإجادة التشبيه فهم فى حاجة شديدة إلى هذا التعليم .

نـزاع

موضوعه[1] هذا الميراث الثقيل الذى سيتركه صاحب الدولة رئيس الوزراء حين يستقيل فى وقت قريب جدا فيما يقول المكاتب السياسى لصحيفة الديلى تلغراف . ومع أن هذا الميراث ليس غنيا ولا مثريا وليس يسيرا ولا سهلا ولا خفيف الاحتمال ، فإن الازدحام عليه شديد ، والتنازع فيه أشد ، والخصومة فيه عنيفة لا تكاد تهدأ إلا لتثور ، ولا تكاد تستقر إلا لتضطرم من جديد . وهذا النزاع يظهر واضحا جليا فى لندرة حيث تفيد الخصومات فيما يظهر ، وحيث ينفع النضال كلما ضعف الايمان بقوة الشعب ، واشتد الاستهزاء بحق الشعب ، واستيقنت الأحزاب التى تطمع فى الحكم أو تحرص على استبقائه فى أيديها أن الاعتماد على الشعب لا ينفع ولا يفيد ، لأن الشعب لا يملك أو لا ينبغى أن يملك من أمر نفسه شيئا . ومهما تعلن حكومة الانجليز حيادها ، ومهما تلح فى إعلان الحياد ، فإن الذين يكلفون بالحكم أو يحرصون على استبقائه فى أيديهم يعلمون حق العلم أن الحكومة الإنجليزية لا تستطيع أن ترضى أن يقضى فى مصير

---

(١) ١٣ - ٨ - ١٩٣٣

الوزارات المصرية وهى غائبة أو دون أن تستشار ، ودون أن يكون لمشورتها الخطر العظيم والأثر البعيد ، فهم لذلك يهدءون ، وهم لذلك يسكتون فى مصر ويتكلمون فى بلاد الانجليز . وما الذى يدعوهم إلى أن يضطربوا فى القاهرة أو يتعلموا فى مصر ، وقد رأوا أن أهل القاهرة وأهل مصر يحتملون الوزارة القائمة على ضيق شديد بها ، وكره شديد لا حتمالها دون أن يملكوا أن يتخففوا من هذا الحمل الذى لا يطمئنون إليه . أما أهل لندرة وأهل انجلترا فيظهر أن كلمتهم مسموعة وأن لرأيهم فى الشئون المصرية خطرا أشد ، وأثرا أبعد مما لرأى الناس فى هذه البلاد .

والذين يختصمون ويختلفون فيما يظهر فريقان : فريق مؤتلف بالفعل ، وفريق يريد أن يأتلف . فأما الفريق المؤتلف بالفعل فهو هذه الأحزاب أو أشباه الأحزاب التى تتولى الحكم أو تظن أنها تتولاه والتى تعيش فى ظلها وتدور من حولها . وأما الذين يريدون أن يأتلفوا فقوم آخرون ليس من اليسير أن تحددهم تحديدا دقيقا أو تعينهم تعيينا واضحا لا يقبل شكا ولا جدالا ، ولكنهم يريدون ثم يتمنون ما يريدون ثم يحلمون بما أرادوا وتمنوا ، ثم يخيل إليهم أن قد صحت الأحلام وتحققت الآمال فيتهيئون للسعى إلى الدواوين والجلوس على كراسى الوزراء واستقبال المهنئين ثم البدء فى تصريف الأمور والاستمتاع بلذة هذا التصريف

أولئك وهؤلاء يذيعون الأخبار فى لندرة ، ثم ينقلونها إلى القاهرة لتذاع فى مصر ، ثم ينتظرون أثرها فى الناس ، وهم يعيشون على ذلك

منذ ظهرت أعراض الضعف على الوزارة القائمة . ومنذ ألم المرض برئيس الوزراء . وأسهم أولئك وهؤلاء ترتفع حينا ، وتنخفض حينا فى لندرة . فإذا التيمس والديلى تلغرف وغير التيمس والديلى تلغراف ترفع هذه الأسهم مرة حتى تخيل إلى أصحابها أنها رابحة كل الربح ، ثم تخفضها مرة أخرى حتى تروع أصحابها وتكاد تقنعهم بأنها خاسرة كل الخسران . والظريف الطريف أن أسهم أولئك وهؤلاء على ما يختلف عليها من أعراض الربح والخسران ، ومن مظاهر الارتفاع والانخفاض ، خاسرة فى القاهرة وفى مصر ، لا يكاد يهتم بارتفاعها وانخفاضها إلا هذا الفريق الضئيل الذى وقف حياته على أن يدور حول الوزراء والمستوزرين .

أما الشعب فثابت فى موقفه ، مصرّ على حقه ، مطمئن إليه ، ساع إلى آماله ، ملح فى السعى إليها ، صابر على محنته ، ملح فى الصبر عليها ، ساخر من أولئك وهؤلاء الذين يختصمون ويسرفون فى الخصومة عند الانجليز ، والذين يُضحكون من أنفسهم هؤلاء الانجليز

كانت الصحف الانجليزية ترى أن العدول عن الأحزاب المؤتلفة الحاكمة إلى لون آخر من الائتلاف أمر هو الخير ، كل الخير ، وهو النفع ، كل النفع ، وهو الضرورة التى لا منصرف عنها ولا مفر منها . وكانت تلمح لصدقى باشا حينا وتصرح له حينا آخر ، وتلين مرة وتشتد مرة أخرى ، وتدعوه على كل حال إلى أن يستقيل ثم تعدل عن هذا الموقف إلى موقف آخر فتؤيد رئيس الوزراء تصريحا أو تلميحا وتهاجم خصومه تصريحا أو تلميحا ، وتنهاه مرة فى قوة ،

ومرة فى ضعف عن أن يستقيل . وكلما اتخذت هذه الصحف الانجليزية كلها أو بعضها ، كبارها أو صغارها موقفا من هذه المواقف ارتفعت أسهم أولئك وانخفضت أسهم هؤلاء وابتسمت ثغور أولئك وعبست وجوه هؤلاء . وليس من شك فى أن الفصل الذى نشرته الديلى تلغراف ونقل إلى مصر أمس واليوم قد رفع أسهما وخفض أسهما . وقد رسم الابتسام على وجوه قوم ، وغشى بالعبوس وجوه آخرين . فقد يظهر أن الديلى تلغراف أو أن مكاتبها السياسى يرى منذ أمس أن هذه الأحزاب المؤتلفة الحاكمة أو التى يخيل إليها أنها حاكمة يجب أن تظل محتفظة بالحكم أو بما يخيل إليها أنه الحكم . وأن الذين يفكرون فى أن يخلفوها على الحكم أو على خيال الحكم ينبغى لهم أن يعرضوا عن ذلك ويريحوا أنفسهم من التفكير فيه . وكانت الديلى تلغراف ترى غير هذا الرأى حتى اضطر رئيس الوزراء إلى أن يخرج عن راحته وصمته ويبرق إليها عاتبا مستعطفا ، مطالبا بالإنصاف .

وليس لهذا الموقف الجديد بعد ذلك الموقف القديم معنى إلا أن الذين يختصمون حول رضا الديلى تلغراف وأشباهها من الصحف الانجليزية قد ألحوا فى الخصومة ، وغالوا فى التنافس أيهم يظفر بهذا الرضا فنجح المنتظرون منذ أسبوعين ، ثم نجح الحاكمون منذ أمس . ولابد أن كانت عند المنتظرين بقية من قوة وفضل من قدرة على الإلحاح فى الخصومة والمضى فى الجهاد من أن تقرأ غدا أو بعد غد ، أو فى الأسبوع المقبل أو الذى يليه فى الديلى تلغراف أو فى غير الديلى

تلغراف تأييدا للمنتظرين وهجوما على القائمين بالحكم . وسيظل هذا النزاع قائما شديدا عنيفا حتى يقضى الله قضاءه بين هؤلاء المختلفين . ولكن أمرين اثنين خليقان بالتفكير والاعتبار ، أحدهما يثير الحزن ويبعث الأسى ، والآخر يحيى الأمل ويقوى الرجاء .

فأما الأول فهو موقف رئيس الوزارة بعد أن طال عليه المرض واستيقن أصدقاؤه وخصومه أن العناية بصحته أنفع وأجدى عليه من الاحتفاظ بمنصبه . فقد أصبح بقاؤه فى الحكم أمرا مفروغا منه فيما يظهر ، يؤكد أصدقاؤه فى مصر أنه مستقيل . ويؤكد أصدقاؤه فى انجلترا أنه مستقيل ، ويتعزى أولئك وهؤلاء فى سهولة مؤلمة ويسر محزن عن اضطرار صديقهم إلى الاستقالة حتى صحيفة رئيس الوزراء فى مصر تردد صباح اليوم إمكان هذه الاستقالة وسرورها بما تقوله الديلى تلغراف من أن الحكم أو خيال الحكم سيبقى فى أصدقاء الرئيس أشد وأظهر ، لا نقول من حزنها ، بل نقول من أسفها لأن الرئيس سيستقيل . وأكبر الظن أن سرورها ــ إن تحققت نبوءة الديلى تلغراف ، وبقى الحكم فى أصحابها ــ سيكون أظهر وأنصع من حزنها لا ضطرار رئيس الوزراء إلى أن يستقيل . ومعنى ذلك أن إخلاص الناس للناس محدود ، وأن وفاء الناس للناس قصير المدى ، وأن إيثار الناس لأنفسهم حتى على الذين يخلفونهم ويحسنون إليهم أمر شائع مألوف إذا قامت صلات الناس على المنافع العاجلة ، لا على المبادىء الخالدة . وكذلك جدّ رئيس الوزراء وأجهد نفسه ولقى من الجد والجهد ما دفعه إلى المرض وما سيضطره إلى الاستقاله ، ثم يتخلى

أصدقاؤه عنه هادئين ما دام الحكم يمكن أن يبقى فيهم . وأما الثانى فهو أن الذين يدورون حول الحكم فى مصر وفى انجلترا يبذلون ما يستطيعون ومالا يستطيعون من القوة والجهد دون أن يجدوا مخرجا من هذا المأزق الذى تورطوا فيه حين خيلوا إلى أنفسهم أنهم يستطيعون أن يقضوا فى أمر مصر على غير رضى من مصر ، فقد ظهر الف دليل ودليل على أن رئيس الوزراء لابد له من أن يستقيل ولكن ظهرت ألف صعوبة وصعوبة فى سبيل من يخلف رئيس الوزراء ، لأن الذين يدورون حول الحكم الآن لا يريدون أن يرجعوا فيه إلى مصر . وما دام الأمر كذلك فهم مضطربون وسيظلون مضطربين بين المؤتلفين الآن على الحكم أو خياله ، والذين يريدون أن يأتلفوا على الحكم أو خياله .

وقد يبقى هؤلاء المؤتلفون حيث هم ، وقد يقوم مقامهم قوم آخرون لكن أمور مصر ستظل مضطربة مختلطة ، وستمعن فى الاضطراب والاختلاط حتى يضطر الذين يصبون إلى الحكم إلى أن يلائموا بين مواقفهم وبين طبيعة الأشياء ، وإلى أن يعترفوا بأن قد مضى الزمن الذى تحكم فيه الشعوب على غير ما تريد .

مفاجأة

لم تقع[1] اليوم ، ولم تقع أمس ، وإنما وقعت مساء السبت فيما يقول الناس ، فقد زعموا أن بعض البيئات المصرية قرأت فى وقت واحد خلاصة الفصل الذى نشرته الديلى تلغراف ، ونفت فيه نفيا قاطعا نقل المندوب السامى وأنباء خاصة وصلت إليها وأثبتت لها إثباتا قاطعا أن المندوب السامى قد نقل بالفعل إلى أنقرة . وكذلك لم يرد الله لهذه البيئات أن تجنى ثمار هذا الجهد العنيف الذى بذل فى لندرة لكسب رضا الديلى تلغراف بعد جورها القديم ، فقد ثابت الديلى تلغراف إلى الرضا بعد الغضب ، وعادت الديلى تلغراف إلى الإنصاف بعد الجور ، وعطفت الديلى تلغراف على الوزراء وأنصار الوزراء وعلى الحزبين المؤتلفين ومن يدور حول الحزبين المؤتلفين . وأكدت الديلى تلغراف أن المندوب السامى عائد إلى مصر ومستأنف عمله فيها . وأن الوزارة قد تحرم رئيسها المريض ولكنها ستبقى كما هى إجمالا ، وسيضاف إليها رجلان أو ثلاثة لتمضى فى تصريف الأمور على هذا المنهاج البديع الخصب المنتج الذى ثبت الأمن وأقر النظام ،

---

(١) ١٤ - ٨ - ١٩٣٣

والذى استنقذ مصر من الفقر والبؤس ، ووفر عليها أعظم حظ ممكن من العزة والمجد ، ومن الثراء والسعادة والنعيم . وكان رأى الديلى تلغراف مخالفا لهذا كله منذ أسبوعين وكان رئيس الوزراء وزملاؤه يرونها جائرة ظالمة فيطلب بعضهم إليها النصفة والعطف ، ويعلن بعضهم عنها أنها لا تستحق عناية ولا التفاتا .

فلما أجابت الديلى تلغراف إلى ما طلب إليها من عطف وإنصاف فرحت صحف الوزارة ، وظهرت إحداها فى صباح الأحد سعيدة مبتهجة ، قد زينت صدرها بحليتين كريمتين هما صورة المندوب السامى المقيم فى منصبه ، لأن الله قد قدر له الشفاء التام ، وصورة رئيس الوزراء الذى سيعتزل منصبه لأن صحته تحتاج إلى الراحة وفراغ البال .

وبينما كانت الصحف الوزارية سعيدة بعودة الديلى تلغراف إلى الوصل بعد الصد ، وإلى القرب بعد الهجر ، وإلى الصفو بعد الجفاء كان الراسخون فى العلم من الوزاريين يذوقون حلاوة هذا الخيال مشوبة بمرارة اليأس الذى لا حظ له من عذوبة . وكانوا يقرءون مع هذا الفصل الحلو أنباء بأن المندوب السامى سيسافر ولكن لا إلى مصر ، وسيعبر البحر ولكن لا إلى وادى النيل ، وسيستقر فى الشرق ولكن لا فى القاهرة ، بل فى أنقرة ، لأن جو مصر قد يكون جميلا معتدلا ، وقد يكون صفوا سمحا ، وقد يكون ملائما للنقاهة فى الخريف والشتاء بعد المرض الطويل فى الربيع والصيف لولا أن فى جو مصر سحابة عظيمة مقيمة ، تزول السحب كلها ولا تزول ، وتحول

الأشياء كلها ولا تحول . وهذه السحابة العظيمة المقيمة يسميها الناس الوفد ، ويحاول الانجليز وغير الإنجليز أن يردوها عن هذا الجو الصفو ، ويصدوها عن هذا الإقليم المعتدل ليخلص لهم صفو ذلك واعتدال هذا ، ولكنهم لا يجدون إلى ردها ولا إلى صدها سبيلا ، فهى عظيمة دائما ، مقيمة دائما ، تظل المصريين بالصبر والثبات ، وتحمى المصريين من اليأس والقنوط . وهذه السحابة يستطيع المندوب السامى أن يحتمل ظلها المحرق عاما وأعواما ، ولكنه لا يستطيع أن يحتمله إلا بمقدار ، ولا أن يثبت له إلا بمقدار . وقد رأى الانجليز أن مندوبهم السامى قد احتمل ظل هذه السحابة العظيمة القيمة حتى احترق به أو كاد فأنقذوه ونقلوه إلى أنقرة حيث لا وفد ولا شي يشبه الوفد ، وحيث لا يحتاج إلا إلى أن يسير سيرة غيره من الوزراء والسفراء فى هدوء شامل ، واستقرار كامل ، وتصريف للعلاقات السياسية المألوفة بين الدول التى تستمتع بالاستقلال الصحيح .

والإنجليز يحبون العدل للإنجليز ، ويكرهون الجور عليهم والإلحاح عليهم بالظلم ، فهم قد أشفقوا على السير برسى لورين فنقلوه ، كما أشفقوا على اللورد لويد فعزلوه . وهم يريدون أن يرسلوا إلى مصر مندوبا ساميا جديدا يستقبل من أمر العلاقات الانجليزية المصرية ما استقبل أسلافه ، ويجرب فيها ما منحه الله من الذكاء والفطنة ، ومن الدهاء والحذق ، ومن المرونة واللباقة لعله أن يبلى فيحسن البلاء مع هذه السحابة العظيمة المقيمة التى تظل المصريين بالصبر وتحمى

المصريين من اليأس وتأبى أن تدع مكانها من جو مصر إلا أن تتم لها الحرية الصادقة والاستقلال الصحيح والسيادة التى لا تقبل شكا ولا جدالا ، ولا تتعرض لعبث ولا لعب . وقد يكون المندوب السامى الجديد موفقا كما وفق جورج لويد فيعزل وقد يكون موفقا كما وفق برسى لورين فينقل . وقد يكون الله قدر له توفيقا من طراز جديد ، لأنه قدر له خطة جديدة غير خطة صاحبيه . فقد أراد أحدهما أن يأخذ مصر بالبطش فانتهى إلى العزل وأراد الآخر أن يأخذ مصر بالدهاء فأنتهى إلى النقل . فلعل المندوب الجديد أن يلهمه الله أخذ مصر بالصراحة والصدق ومواجهة الحقائق الواقعة مخلصا لها ولأمته ، ناصحا لها ولأمته ، لا متجبرا فقد مضى زمن التجبر ، ولا ملتويا فقد مضى زمن الالتواء ، وأصبحت الأمم لا تساس كما يساس الأطفال ، ولا تؤخذ كما يؤخذ الأغرار والضعفاء . والأيام وحدها هى التى ستكشف عما قدر الله للمندوب الجديد من توفيق أو إخفاق .

مصر تعلم حق العلم أن الله قد كتب لها الفوز ، لأن الله قد كتب الفوز للحق دائما ، وقدر الانتصار للعدل دائما . وأى حق يشبه حق مصر فى أن تعيش حرة آمنة لا تعتدى على أحد ، ولا يعتدى عليها أحد ؟ ! وأى عدل يشبه حرص مصر على أن تكون أمورها إليها هى ، لا إلى غيرها من الأفراد ، ولا من الشعوب ؟ فسينظر المصريون إذن إلى انتقال المندوب السامى القديم باسمين وسينظرون إلى مقدم خلفه باسمين كما تعودوا أن ينظروا إلى الأحداث كلها باسمين ، لا يعرفون هذا الفرح الذى ينسى الناس أحلامهم ، ولا يعرفون هذا

الحزن الذى يصرف الناس عن الجهاد ، وإنما يعرفون الثقة بالحق والثبات على المطالبة به والسعى إليه فى حزم وعزم وفى عزة وإباء

ولكن أمر هذا الحادث الفجائى لا يخلو من شيء طريف . فلم نكن نقدر ونحن نكتب ما كتبناه أمس أن نبوءتنا ستتحقق بهذه السرعة ، وأن الذين ساءتهم أنباء الديلى تلغراف سيسرون عن قريب بما يسوء الذين استكتبوا الديلى تلغراف ، وكنا نظن أن خطط الصراع والنزاع وأساليب النضال والنزال تقضى شيئا من التمهل وأن الثأر لن يظفر به طلابه إلا بعد أسبوع أو ما يزيد على الأسبوع ، ولكن القوم كانوا فيما يظهر قد تأهبوا فأحسنوا التأهب والاستعداد ، فلم يكد ينتصر الموحون إلى الديلى تلغراف ويظفرون برضاها حتى انتصر خصومهم وحققت لهم الظروف ما يريدون .

وفى هذا الأمر عبرة خليقة بالتفكير وهى أن كل شيء ممكن حتى أن تقول الديلى تلغراف وتؤكد وتصطنع الحزم والجزم فيما تقول وتؤكد ، ويشيع الناس أنها لم تقل ولم تؤكد إلا عن وحى من المصادر العليمة . ثم يظهر فى اليوم نفسه أنها قد قالت وأكدت وحزمت وجزمت ولكن الظروف والحقائق الواقعة قالت شيئا آخر .

فما أجدر المصريين أن يعتبروا وما أجدر المصريين ألا يغلو فى تصديق الصحف والإيمان لها حتى ولو كانت الديلى تلغراف وأشباه الديلى تلغراف .

عودة

كان الناس[1] ينتظرونها فى أواخر الشهر المقبل فأعلن أمس أنها ستكون فى أوائله . وكان حزب الشعب يهيىء لها الوسائل والأسباب ويجمع لها الأصدقاء والأحباب ، ويفكر لها فى الجمع والاكتتاب . وكان يقدر فيما يظهر أن شهرا وبعض شهر وقت لا يكاد يكفى لتهيئة هذا كله بحيث يكون الاستقبال رهيبا مهيبا كما ينبغى له أن يكون ، لأنه سيجمع فيما يظهر بين التهنئة بالعودة السالمة الموفورة ، والتعزية عن الاستقالة التى لم يبق منها بد ، ولكن رئيس الوزراء قد تعجل العودة فجأة كما تعجلت وزارة الخارجية البريطانية نقل المندوب السامى فجأة ، ولم يبق بد لحزب الشعب من أن يتعجل الاجتماع يكثر منه ليرتب فى أقل من شهر ما كان يريد أن يرتبه فى أكثر من شهر . وسيكون العمل شاقا عسيرا ، وسيكون الجهد مضنيا ثقيلا . فليس من شك سواء أردنا أو لم نرد فى أن كل شىء فى مصر الآن من شأنه أن يثبط الهمم ، ويضعف العزائم ويغل النشاط ويبعث فى النفوس والأجسام فتورا وخمولا ، ويصرف الناس عن أن يخفّوا من بلادهم النائية للاحتفال والاستقبال ، والتسليم والوداع .

---

(١٥) ١٥ – ٨ – ١٩٣٣

فالأزمة الاقتصادية شديدة مرهقة ، والمال نادر عزيز ، والأسباب التى كانت تدعو إلى التضحية وتحث على تكلفها واحتمال المشقة فيها قد أخذت تضعف ويصيبها الوهن . وقد ضاقت فسحة الأمل والتوت سبيل المنفعة واضطربت على أصحاب الآمال والمنافع أمورهم والتوت عليهم طرق التفكير . فهم يشكُّون شكا عظيما فى استقرار الوزارة وكثير منهم يعتقد أن هذا الاستقرار قد أصبح حلما من الأحلام وأمنية من الأمانى وحديثا من بعض الحديث . وهم الآن يستنشقون النسيم السياسى ملء الأنوف والأفواه والرئات ، يريدون أن يتبينوا طبيعته وريحه ومهبه ليولوا وجوههم شطره وليتأهبوا لاستقبال رجل آخر غير رئيس الوزراء ، لا يدرون من أين يأتى ، فليس غريبا أن يكسلوا عن هذه الرحلة المرجوة إلى الاسكندرية فى الشهر المقبل . وليس غريبا أن يخفّ إليها من يخفّ منهم كارها لها ، ضيِّقا بها ، متمنيا لو أراحه الله من أثقالها وحط عنه أعباءها . ولست أدرى لم يحفل المصريون بهذه الأنباء التى يجرى بها الهواء بين الأرض والسماء فيقدروا لها ويفرضوا لها غير ما ينبغى من الصواب ، ويظنوا أن الأيام المقبلة ستتكشف عن تغيير فى السياسة المصرية ، وأن قوما سيذهبون وقوما سيجيئون . وكل شىء فى حياة الناس خليق أن يرد عنهم الوهم ، ويعصمهم من سوء الظن ، ويحبب إليهم ما هم فيه ، ويصل بينهم وبين الوزارة القائمة بأوثق الصلات وأمتن الأسباب . فأمنهم مستقر ونظامهم ثابت وحياتهم مطمئنة ، وقلوبهم ونفوسهم راضية . وهم يعيشون فى عهد سعيد لم يعيشوا فى مثله من قبل فهم خليقون أن يتمنوا بقاءه ويحرصوا على اتصاله ، وهم يتمنون لهذا

العهد السعيد طول البقاء ، وهم يحرصون على أن يظلهم هذا العهد السعيد أعواما وأعواما ، ولكن حبهم لهذا العهد وحرصهم عليه وإشفاقهم من أن يزول ، كل هذا هو الذى يثير فى نفوسهم الأوهام ويسلط عليهم الظنون ويخيل إليهم أنهم فى مفترق الطرق ، وأن ما ينعمون به من سعادة ورضا ، ومن نعيم وترف يوشك أن يصرف عنهم ، وأن هذه الوزارة القائمة التى يفدونها بالنفوس ويضحون فى سبيلها بكل عزيز ، توشك أن تفارقهم وأن تصرف عن تدبير أمورهم . وأى شىء يثير الخوف مثل الحب وأى شىء يملأ النفوس فزعا وهلعا مثل الإشفاق من أن يفارقك الحبيب ؟ فالناس معذورون إذا ساءت ظنونهم لأنهم عشاق ، وسوء الظن سريع إلى العاشقين . والناس معذورون إذا شكّوا فى بقاء الوزارة لأنهم حراص عليها ، وهل الحرص إلا شدة الإشفاق من وشك الفراق ؟

فإذا أضفت إلى هذا أن الله قد سلط على مصر هؤلاء الإنجليز المقيمين فى لندرة والقابعين فى وزارة الخارجية لينغصوا عليها عيشها وليرسلوا عليها الخوف والفزع من حين إلى حين ، أضفت عذرا إلى عذر ، وفهمت اضطراب الناس وترددهم ، فقد كان كل شىء هادئا فى هذا الميدان حتى لعبت وزارة الخارجية البريطانية هذه اللعبة الغريبة التى يسمونها نقل المندوب السامى . ومهما تبحث ، ومهما تفكر فلن تستطيع أن تفهم الصلة بين نقل المندوب السامى من مصر ، وبين خوف الناس على الوزارة المصرية ، وإشفاقهم من أن تستقيل فالإنجليز أحرار يفعلون ما يشاءون بممثلهم فى القاهرة وفى غير القاهرة

يسيرونهم فى الآفاق ويوجهونهم إلى حيث يريدون طبقا لمصالحهم ومنافعهم كما نفعل نحن بوزرائنا المفوضين . وليس بين ذلك وبين حياتنا الخاصة سبب ما .

أتظن أن الوزارة الإنجليزية تستقيل لو خطر لوزارتنا القائمة أو المقبلة أن تنقل وزيرنا المفوض من لندرة إلى عاصمة من عواصم الأرض أو أن تستدعيه إلى القاهرة لتحيله إلى الاستيداع أو إلى المعاش ؟ كلا ، ومع ذلك فليس بين وزيرنا المفوض فى لندرة وبين ممثل إنجلترا فى القاهرة إلا فرق واحد وهو أن ممثلنا يسمى وزيرا مفوضا وممثل الإنجليز يسمى مندوبا ساميا . ومع هذا ينقل وزيرنا فلا يتأثر الإنجليز ، وينقل المندوب السامى فيظن المصريون ويسرفون فى الظن .

وقد تعب الكتاب واحتملوا ألوان المشقة ليثبِّتوا قلوب المصريين ويبيّنوا لهم أن نقل المندوب السامى عمل إنجليزى خالص لا يمكن ولا ينبغى أن يكون له أثر فى الحياة المصرية ولكن الناس يأبون إلا أن يظنوا ويتوهموا ويتنبأوا ويسرفوا فى إذاعة الأنباء والإشاعات

وتستطيع أن تقيم للناس الأدلة التاريخية على أنك مصيب وأنهم مخطئون ، تستطيع أن تثبت لهم أن المارشال اللنبى قد استقال أو استدعى فلم تتغير الوزارة ، ولم يقم الائتلاف ، وتستطيع أن تثبت لهم أن اللورد لويد قد استقال أو أقيل فلم تتغير الوزارة ولم تعد الحياة النيابية ولم ينهض الوفد بأعباء الحكم ، تستطيع أن تثبت لهم هذا كله ولكنه جهد ضائع فسينكرون عليك ما تقول وسيزعمون أن تغيير

المندوب السامى الإنجليزى كان مؤذنا بتغيير فى السياسة المصرية منذ استقال المارشال اللبنى إلى الآن . وهم لذلك كله يأبون إلا أن يستنتجوا من نقل السير برسى لورين مالا يستنتجه الإنجليز ، ولا الكتاب المصريون ، وأن ينتظروا استقالة الوزارة .

ماذا أقول ؟ بل هم ينتظرون قبول هذه الاستقالة لأن الوهم قد صور لهم أن رئيس الوزراء أرسل استقالته بالفعل ، ولعله لم يكن يريد أن يتعجل العودة ، ولعله كان يحب أن يمضى فى العناية بصحته لولا أن التقاليد لا تحب أن تسقط الوزارات ورؤساؤها غائبون . أرأيت إلى أى حد يذهب الوهم بالناس ؟ أرأيت كيف يدفعهم إلى تصور الشيء الذى يكرهونه كأنه قد وقع بالفعل فهم يحتملون أثقاله ويصطلون ناره ؟ .

إن الوزارة القائمة وزارة الحب للشعب والرفق به والعطف عليه وحمايته من الشر الواقع ومن الشر الممكن ومن الشر الموهوم . فما أجدرها أن تذيع على الشعب الذى تحبه ويحبها كلمة مطمئنة تؤكد تأكيدا قاطعا يطرد الوهم ويزيل اللبس أن الوزارة لم تكن فى يوم من الأيام أقوى ولا أثبت منها فى هذه الأيام . وأن نقل المندوب السامى أمر خارجى لا علاقة له بشئون مصر الحرة المستقلة ، وأن تعجل رئيس الوزراء عودته إلى وطنه المحبوب لا مصدر له إلا أنه قد سئم الراحة ونشط للعمل من جهة ، وأن شوقه إلى الشعب قد اشتد من جهة أخرى بعد طول الفراق .

الوزراة فيما نعتقد خليقة أن تؤكد هذا للناس ليطمئنوا على حاضرهم ومستقبلهم من جهة ، ولينفروا من جهة أخرى خفافا لاستقبال رئيس الوزراء ، فما نظن أن حرص الوزارة على أن يكون الاستقبال فخما ضخما بأقل من حرصها على أن يخف الناس إليه ، وهم آمنون واثقون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

حلم

زعموا[1] أن من أراد تعريف الحكم لم يوفق إلى خير من هذا التعريف الذى اهتدى إليه بعض الفلاسفة الفرنسيين وهو أن الحكم تقدير العواقب والاستعداد للغد ، والتنبؤ بما سيكون . وزعموا أن وزارة من وزارات الأرض لم توفق إلى أن تفهم هذا التعريف على وجهه وتقدره حق قدره وتجعله حقيقة واقعة كالوزارة المصرية القائمة . وزعموا أن أوضح دليل على ذلك كله قد أقامته مشتركة فى إقامته مع وزارة المعارف ووزارة الأشغال . فقد أنبأتنا الصحف بأن الوزارة كانت قد قررت أن تشيد قاعة للمحاضرات فى الجامعة المصرية ، وأن تنفق فى تشييدها خمسة وسبعين ألفا من الجنيهات . وكان هذا القرار فيما تقول الصحف قد صدر قبل أن توضع الرسوم وتأخذ القاعة شكلها المنتظر . فلما وضع الرسم وتم وجود القاعة على الورق ظهر أن وجودها على الأرض يحتاج إلى خمسة وثمانين ألفا لا إلى خمسة وسبعين ألفا . وعرض الأمر على مجلس الوزراء فلم يتردد لحظة فى الموافقة على الرسم وما يحتاج إليه من النفقات .

---

(١) ١٥ - ٨ - ١٩٣٣

وليس من شك فى أن أوربا على ما فيها من جامعات وعلى مالها من بعد العهد بالجامعات ، وعلى مالها من أمل فى مستقبل الجامعات ، وعلى ثروتها الضخمة ويسارها الذى تضرب به الأمثال سينفطر قلبها غيظا وحنقا وستحسدنا حسدا يحرق الأفئدة وينضج الأكباد حين تعلم أننا سننفق هذا المقدار لإقامة هذه القاعة . فإذا أنفقنا هذا المقدار بالفعل ، وأقمنا هذه القاعة بالفعل فستذعن أوربا لنا ، وستؤمن لمصر الحديثة بعظمة لا تشبهها إلا عظمة مصر القديمة .

وكيف لا وستكون لنا قاعة تلقى فيها المحاضرات ، وتعقد فيها المؤتمرات تقام على ثلاثة آلاف متر ، وتحتوى على أربعة آلاف من الناس ، وينفق عليها نحو ثمانية ملايين من الفرنكات فيما يقول الفرنسيون ، وثمانية وثمانين ألفا من الجنيهات فيما يقول الإنجليز . ولست أدرى كيف يعبر عن هذا المقدار بحساب المارك عند الألمان وبحساب الليرة عند الإيطاليين ، وبحساب الدولار عند الرئيس روزفلت وأصحابه الأمريكيين . وسيكون فى هذه القاعة كراس لعامة الناس ، وأخرى لأوساطهم وأخرى لذوى المكانة فيهم . وستزدان بمقصورة لحضرة صاحب الجلالة الملك وبشرفات لأصحاب السمو الأمراء وغرفات لأصحاب المعالى الوزراء ، وسيكون لها من السعة والارتفاع وسيكون لها من الزخرف والإبداع ما يجعلها من أفخم إن لم تكن أفخم قاعات المحاضرات فى العالم كله .

فإذا سألت بعد ذلك عما سيلقى فيها من المحاضرات فالجواب أن هؤلاء المحاضرين الأجانب الذين ندعوهم من أوربا ، والذين يلقون

محاضراتهم فى الجمعية الجغرافية هم الذين سيلقون المحاضرات فى القاعة الجديدة وقد يشاركهم فى ذلك نفر من المصريين . فإذا سألت بعد ذلك : هل فى السوربون واكسفورد وكمبردج قاعات تشبه هذه القاعة كان الجواب : وأين تكون السوربون وأكسفورد وكمبردج من الجامعة المصرية ؟ بل أين تكون فرنسا وانجلترا من مصر ؟ فإذا سألت بعد ذلك أيهما خير : تشييد المبانى الفخمة الضخمة لإلقاء المحاضرات أم تكوين العلماء والأدباء الذين يلقون هذه المحاضرات ؟ كان الجواب إن تشييد هذه القاعة سيكون خليقا بتكوين المحاضرين ، لأن مما لا شك فيه أن هواءها سيكون مملوءا بالسحر ، لا يكاد يتنفسه البكىء حتى يصبح فصيحا ، ولا يكاد يستنشقه الجاهل حتى يستحيل عالما . وأكبر الظن أن المصريين جميعا سيدعون إلى زيارة هذه القاعة واستنشاق هوائها ، وسيصبحون علماء ، وسيصبحون جميعا محاضرين ، وستضيق هذه القاعة بعلمائنا وستضطر الجامعة المصرية إلى أن تضع سياسة لإنشاء قاعات للمحاضرات تنتشر فى مصر انتشار المصاطب والأهرام ، ويتم تنفيذها فى ثلاثين عاما كهذه السياسة المائية التى وضعت أو ستوضع فى وزارة الأشغال ، وستصبح مصر كلها جامعة ، وسيصبح العالم كله طلابا فى هذه الجامعة . فإذا علمت أن الجامعة الأزهرية تسلك مسلك الجامعة المصرية فى التشييد والبناء على الشاطىء الآخر للنيل استيقنت بأن العالم يتهيأ الآن لأزمة مصدرها التخمة العلمية ، كما يخضع الآن لأزمة مصدرها الإسراف فى الإنتاج المادى .

وستدعو مصر دول الأرض إلى مؤتمر علمى اقتصادى يحل تلك

الأزمة كما دعت انجلترا إلى مؤتمرها الاقتصادى المالى ، وسيعقد ذلك المؤتمر فى هذه القاعة التى ستشاد ، وقد توفق مصر إلى خير مما وفقت إليه إنجلترا فيحل مؤتمرها أزمة العلم ؟

ثم أشرق الصباح وأضاء بنوره ولاح ، وأفاق الذين يدبرون أمر الجامعة ، وأفاق الذين يدبرون أمر الخزانة وسألوا أنفسهم ماذا رأوا ؟ وماذا عملوا ؟ فأجابتهم الحقائق الواقعة أنهم حلموا فحاولوا تحقيق أحلامهم ثم استيقظوا فإذا هم لم يزيدوا على العبث والإسراف .

عزيز علينا أن يكون الخيال أوسع سلطانا على الجامعة والذين يتولون أمرها من العقل الذى يدعو إلى الأناة والحكمة والاعتدال والاقتصاد .

آمال

بدا لرئيس الوزارء فاستبدل سفينة بسفينة ، وقدم عودته يومين بعد أن قدمها نصف شهر . ولعل رئيس الوزارء أن يبدو له مرة أخرى فيستبدل سفينة بسفينة ، ويقدم عودته ساعات أو يقدمها يوما أو يقدمها يومين أو أياما . فقد يظهر أن الحاجة إلى الإسراع ملحة وقد يظهر أن الضرورة إليه ماسة ، وقد يظهر أن صحة الرئيس لو سمحت له أن يطير بجناح أو جناحين أو أجنحة لما تردد فى العودة على متن الهواء مكان العودة على متن الماء .

والناس لا ينتظرون من هذا الإسراع والرغبة فيه والإلحاح فى هذه الرغبة خيرا ، ولا يلقون هذا النحو من التعجل بما ينبغى من التفاؤل والاستبشار . فهم كانوا يعلمون أن وزيرهم الأكبر مستريح إلى الجو الأوربى ، محب للاستمتاع بما فيه من هواء وماء ، ومن اعتدال يبعث النشاط ويدعو الشفاء . فلما علموا أنه قد كره هذا الجو فجأة وزهد فيه على غير انتظار التمسوا لذلك العلل ، وبحثوا عن الأسباب فلم يجدوا شيئا فى حياة مصر ، ولا فى حياة الوزارة يدعو إليه أو يبعث عليه .

---

(١) ١٦ - ٨ - ١٩٣٣

وقد قال قائلهم إن الرئيس كان شديد الرغبة فى العودة إلى مصر منذ وقت طويل لأسباب منها ما يمس الحياة المصرية ، ومنها ما يمس الحياة الدولية ، فقد راعته قصص التبشير والمبشرين ، وكأن سياسة الوزارة فى هذه القصة لم تبلغ من نفسه كل الرضا ، فهو حريص على أن يشرف عليها بنفسه من كثب لتنبت الملاجىء فى الأرض كما ينبت الزرع ، ولكن فى غير ريث ولا إبطاء ، ولتغلق بعض المعاهد التى لم تستطع الوزارة إغلاقها إلى الآن . وقد عرف رئيس الوزراء أن اضطراب الأمن قد ازداد حتى أصبح مقلقا مزعجا ، وأن سياسة الوزارة فى إقراره وتهدئة نفوس الناس لم تبلغ من نفسه كل الرضا فأراد أن يشرف على هذه السياسة بنفسه من كثب لتستقر قلوب الناس فى صدورهم وعقول الناس فى رءوسهم ، ولتجرى دماء الناس فى عروقهم دون أن تخاف أن تنشق عنها هذه العروق . وعرف رئيس الوزراء فيما يظهر قصة هذه السحابة التى خرجت من بلاد اليمن فأظلت بلاد العرب كلها وأخذت بروقها ورعودها تنذر بالويل فى النهار والليل ، وتنبىء الناس بأن حربا ضروسا قد تشب بين الملكين العربيين فتذيق المسلمين من آثارها شرا عظيما ، ونكرا شديدا ، فآثر رئيس الوزراء أن يسرع فى العودة إلى مصر لتسعى الوزارة المصرية بين الملكين بالصلح كما سعى هرِم بن سنان بين عبس وذبيان . أو لتدبر الوزارة المصرية لمصر حيدة حازمة صارمة شريفة بين الملكين المختصين إن لم توفق إلى فرض التحكيم والسلام .

ورأى رئيس الوزراء فتنة الأشوريين فى العراق وما نجم عنها من الخلاف بين العراق وفرنسا فأزمع العودة السريعة إلى مصر ليدخل

بين الخصمين مدخلا حسنا ينتهى بهما إلى الوفاق ، ويريحهما من مشقة الاحتكام إلى عصبه الأمم فى جنيف .

قال قائل من الناس هذا الكلام وأشباها لهذا الكلام ليرد عن الناس هذا الخوف الذى غشيهم من تعجل الرئيس فى الرجوع إلى مصر وليلقى فى روع الناس أن الرئيس مقبل عليهم بالخير كل الخير ، والأمن كل الأمن والبقاء فى منصب الحكم إلى أن تمحى المعارضة محوا ، ويصبح الوفد حديثا من حديث التاريخ ، ولكن الناس كانوا يسمعون هذا الكلام بأذن ويخرجونه من أذن أخرى ، ويقولون إن قصة التبشير قد طال عليها العهد ، وبعد بها الأمد . وإن فساد الأمن قد طال عليه العهد وبعد عليه الأمد ، فلو قد شاء الرئيس أن يعود لهذين الأمرين أحدهما أو كليهما لعاد منذ أمد بعيد . وما علمنا أن لمصر فى جزيرة العرب ناقة ولا جملا . وما علمنا أن الوزارة المصرية تدخل بين المختصمين وغير المختصمين من المسلمين أو غير المسلمين . إنما مصر مقصورة على نفسها ، مشغولة بهمومها الطارئة والمقيمة . فلن يعود رئيس الوزراء ليسعى بالصلح بين نجد واليمن ، أو ليحمل الوفاق بين فرنسا والعراق . إنما يعود رئيس الوزراء ويسرع فى العودة لأن حادثا حدث لا ينبىء بخير .

وهذا الحادث لم يأت من قبل الشرق ولا من قبل الجنوب وإنما جاء من بلاد الانجليز . وأى حادث جاء من بلاد الانجليز إلا نقل المندوب السامى من القاهرة إلى أنقرة ؟ فالناس إذن ملحون فى أن عودة رئيس الوزراء موصولة بنقل المندوب السامى ، لا يريدون أن

يغيروا رأيهم فى ذلك ، ولا أن يقبلوا فيه نصحا ولا مشورة . ويظهر أن الوزارة أو البيئات الوزارية على أقل تقدير قد أحست خوف الناس هذا وأشفقت منه عليهم وعليها ، فهى آمنة مطمئنة ، لا تتعرض لخوف ولا تستهدف لمكروه .

أحست خوف الناس وأشفقت عليهم منه ، فأرسلت طيرا تحمل إليهم الهدوء وتظلهم بأجنحة فيها الأمن والدعة وفيها الطمأنينة والرضا وقد أخذت هذه الطير تظهر فى جو مصر منذ أمس ، فتحدثت صحيفة من صحف المساء بأن المندوب السامى قد نقل ولكن نقله ليس تاما ، ولا كاملا ، وأنه سيذهب إلى أنقرة ولكن بعد أن يمر بمصر ويقيم فيها شهورا ينهض فى أثنائها بأعماله كلها كأن لم يكن نقل ولا ما يشبه النقل . فالمندوب السامى منقول ولكنه ثابت . مرتحل ولكنه مقيم ، مفوض عند الترك ، ولكنه مسلط على مصر . ومعنى هذا أن أمام الوزارة التى يحبها الناس ويفتدونها بالأنفس والأموال فسحة من الوقت وسعة من الحياة فهى لن تدَع الناس فجأة ، ولن تخطف من بينهم كما خطف رئيس الوفد من بين أهل الصعيد فى قطار سريع ، ولكنها ستودعهم فتطيل الوداع وستقدم إليهم وتقبل منهم من الهدايا ما تدوم به الذكرى ويتصل به الود . ومن يدرى ؟ لعل هذه الأشهر التى سيقيمها المندوب الثابت المنقول بيننا أن تكون فيها المفاوضة التى لا ريب فيها ، وتمضى فيها المعاهدة التى لابد منها . ثم يفترق الصديقان رئيس الوزراء ، ومندوب الإنجليز وقد أتما فى آخر عهدهما بحياة أخرى مالم يستطيعا أن يتماه حين كان السعد مقبلا ،

والنشاط موفورا ، وأسباب القوة والبأس والسلطان ممدودة إلى أقصى غاية وأبعد مدى .

وتحدثت صحيفة أخرى من صحف الصباح اليوم نظنها الأهرام ، وهل يصدر مثل هذا الحديث إلا عن الأهرام ؟ تحدثت بأن رئيس الوزراء لا بأس عليه من مرض ، ولا بأس عليه من استقالة ، وبأنه قد اتصل دائما بالوزارة فى مصر ، وصرَّف دائما أمورها من بعيد ، وأنه قد اشتاق إلى أن يدنو منها حتى يصبح قاب قوسين أو قاب أصبعين ، ولهذا تعجل العودة وهو مصمم على أن يمضى فى طريقه بعد عودته ، لا ينحرف عنها إلى اليمين ليستريح ، ولا ينحرف عنها إلى الشمال ليستقيل ، ولا يعنيه أن يذهب مندوب ، ويجىء مندوب ، فالمندوبون كلهم عنده سواء .

ونشرت صحيفة أخرى من صحف الصباح نظنها صحيفة الشعب شيئا آخر أجل خطرا ، وأبعد أثرا ، وأدل على ثبات القلوب واستقرار النفوس من هذا الذى أشرنا إليه ونشرته المقطم أمس والأهرام اليوم . فقد زعمت الشعب أنها تحدثت إلى وزير ، نعم إلى وزير ، وإلى وزير مختص لا ينبغى التحدث إلى غيره فى مثل هذا الموضوع وهو وزير الخارجية الجديد . تحدثت إليه الشعب وتحدثت إليه الاتحاد . فرأت الشعب ورأت الاتحاد أن وزير الخارجية لا يعلم من أمر المندوب السامى ونقله شيئا أكثر مما تعلم الشعب وتعلم الاتحاد ويعلم مثلك ومثلى من قراء الصحف . وكان هذا الحديث من أشد الأحاديث نشرا للاطمئنان السياسى فى الجو المصرى . وكيف لا

نطمئن على بقاء الوزارة وثباتها وعلى أن نقل المندوب السامى أمر عادى هينّ يسير ضئيل لا خطر له . وقد ظهر أن علم الوزراء به كعلم قراء الصحف ، لا ينقص ولا يزيد . ولو قد كان له خطر ولو يسير لا ستشيرت فيه الوزارة قبل أن يحدث ، وهل رأيت دولة تغير ممثلها فى بلد من البلاد دون أن تتفق مع الوزارة القائمة فى هذا البلد ، ولو قد كان له خطر ولو ضئيل لأنبئت به الوزارة بعد حدوثه . وما دامت الوزارة لم تسأل فيه ولم تنبأ به فهو أمر لا خطر له ، ولا شأن . وأبلغ من هذا فى نشر الاطمئنان وتأمين الناس على بقاء الوزارة المحبوبة أن « الشعب » سألت وزير الخارجية وسألته معها « الاتحاد » هل صحيح ما تقوله بعض الصحف الإنجليزية من أن نقل المندوب السامى لا يدل على تغيير السياسة الإنجليزية فى مصر ؟ فأجاب الوزير بهذا الجواب الطريف الذى لا يصدر إلا عن وزراء الخارجية والذى يصور الثقة كل الثقة ، والأمن كل الأمن ، والاطمئنان كل الاطمئنان ، أجاب : ولم لا يكون صحيحا ؟ وكان جواب الوزير سؤالا وكان من الحق أن تجيب عليه « الشعب » وأن تجيب عليه « الاتحاد » ولكنهما لم تفعلا ، لأن علم هذا السؤال وجوابه ليس عندهما ولا عند وزير الخارجية ، ولا عند الصحف الإنجليزية ، وإنما هو عند قوم آخرين ، لم يفصحوا عنه بعد ، ولعلهم يفصحون عنه بعد أن يعود رئيس الوزراء .

ومهما يكن من شىء فقد مضت هذه الطير التى أخذت ترسل فى الجو منذ أمس لتطمئن الناس على بقاء الوزارة وتملأ قلوبهم هدوأ واستقرارا . وأكبر الظن أن طيرا أخرى سترسل فى أثر هذه الطير

وأنك لن تسمع بعد أيام إلا صيحة تملأ الجو المصرى وتصم الآذان المصرية ، وهى أن الوزارة لم تكن فى يوم من الأيام أقوى منها فى هذه الأيام . وكذلك يصدق الشاعر القديم حين يقول :

* ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل *

وتصدق الشاعرة القديمة حين تقول :

ولولا كثرة[1] الباكين حولى   على إخوانهم لقتلت نفسى

وكل ما نرجو هو أن يخلص الجو المصرى ولو أياما لطير الأمل هذه ، وألا تظهر فيه طير أخرى ترسلها صحف الإنجليز أو وزارة الخارجية الانجليزية منذرة باليأس وداعية إلى القنوط ، ومهيبة ببعض الأنصار والأولياء لينج من استطاع النجاة .

---

(١) البيت للخنساء وبعده :

وما يبكون مثل أخى ولكن   أعزى النفس عنه بالتأسى
يذكرنى طلوع الشمس صخرا   وأذكره لكل غروب شمس

قال المبرد : تقول أذكره فى أول النهار للغارة ، وفى آخره للضيفان

انظر الكامل للمبرد ١ / ١٥ طبع مصطفى الحلبى

بدعة

أرأيت[1] إلى هذه البدعة المنكرة التى أخذ يدعو إليها المجددون منذ أمس فى طائفة من صحف المساء والصباح ؟ ألم تضق بها ؟ ألم تتنكر لها ؟ ألم تستعد السلطان على الذين يبدعونها ويسرفون فى الدعوة إليها ؟ إنهم يريدون مصر على أن تعدل عن سنتها وتخرج عن طبيعتها وتقلد بلاد الغرب وتسير هذه السيرة الحقيرة التى تضطر أصحابها إلى التواضع والاقتصاد ، وإلى أن يقيسوا آمالهم وأعمالهم بحاجاتهم وطاقاتهم ، لا بما يصور الخيال ولا بما تمليه الأحلام . هؤلاء المبتدعون خليقون أن يحاسبوا حسابا عسيرا وأن يعاقبوا عقابا ثقيلا ، لأنهم يأبون على مصر الحديثة أن تسير سيرة مصر القديمة ، ويريدون لمصر الشرقية أن تسير سيرة الأمم الغربية . وحسبك بهذا إثما وبغيا . ينكرون على مصر الحديثة أن تشيد قاعة للمحاضرات فى الجامعة تمتاز بها من بلاد الأرض طولا وعرضا وارتفاعا فى السماء ، وزينة وزخرفا وافتتانا فى البهاء ويزعمون أن هذا إسراف فى أموال الدولة ، وأن هذا ظلم لأبناء الشعب ، وأن هذا تجاوز للطاقة وتكلف لها لا نقدر عليه .

---

(١) ١٦ - ٨ - ١٩٣٣

ويقولون إن مصر لم تبلغ من الرقى العلمى حظا يلائم هذا الغلو فى الترف ، وهذا التهالك على الزينة والمفاخرة بها . وهم يعلمون حق العلم أن آباءنا الأقدمين الذين أقاموا الأهرام وما يشبه الأهرام من هذه العمارات الشاهقة والأبنية الشامخة لم يسألوا أنفسهم عما تتكلفه هذه الآثار الخالدة من النفقات ، أقليل هو أم كثير ؟ أثقيل هو أم خفيف ؟ ولم يسألوا أنفسهم عن رأى الفلاحين فيما تحتاج إليه هذه الآثار من مال وجهد ، أكانوا راضين به أم ساخطين عليه ، ولم يسألوا أنفسهم عن ملاءمة هذه الآثار الخالدة لطاقة مصر وحاجتها وإنما فكروا فى شيء واحد ، وعملوا لشيء واحد ، وهو مجد مصر وعظمتها وتفوقها على سائر بلاد الأرض .

وقد وفقوا كل التوفيق . فحدثنى عن بلد من بلاد الأرض يستطيع أن يفاخر مصر أو يثبت لها بما فيه من الأهرام والمعابد والآثار . وحدثنى أليس من الحق أن المعاصرين لبناء الأهرام والمعابد قد شقوا ببنائها ، واحتملوا فى سبيله البؤس والجهد والضيق ؟ ولكنا نحن نفاخر بها ونكاثر ونعجب بها ونتيه . فهم قد شقوا لنسعد ، وهم قد ذلوا لنعز ، فلم لا يكون حبنا لأبنائنا كحب آبائنا لنا ؟ ولم لا نشقى نحن الآن ليسعد أبناؤنا بعد حين ؟ ولم لا نبتئس نحن الآن ليتيه أبناؤنا بعد حين ؟

لن نستفيد نحن من قاعة المحاضرات هذه إلا قليلا ولكن أبناءنا سيفاخرون بها ويكاثرون وسيقولون عنا بألسنة ينطقها الحب

والإعجاب والفخر : رحم الله هذا الجيل الذى أقام لنا هذا الأثر الخالد ، فقد كان يتمثل دائما قول الشاعر القديم :

نبنى كما كانت أوائلنا   تبنى ونفعل مثل مافعلوا

أولئك بنو الأهرام ، وهؤلاء بنو قاعة المحاضرات ، وسيقول أبناؤنا عنا بألسنة ينطقها الحب والإشفاق والرحمة والرثاء : رحم الله هذا الجيل ، لقد ذاق أبناؤه ألوان البؤس واحتملوا ضروب المشقة واصطلوا نار الجوى ليبنوا لنا قاعة المحاضرات كما ذاق المصريون القدماء ألوان البؤس واحتملوا ضروب المشقة واصطلوا نار الجوع وعاشوا على الخبز والبصل ليبنوا لنا الأهرام .

كذلك أراد الله لمصر أن تشقى أجيالها الحاضرة لتسعد أجيالها المقبلة . وليس من شك فى أن أجيالنا المقبلة التى ستسعد بقاعة المحاضرات سيتيح لها الله – وزارة كوزارتنا القائمة ، تدعوها إلى التضحية وتأخذها بإقامة بناء أو أبنية لا تقل عظمة عن قاعة المحاضرات وعن الأهرام . فمصر مريضة بفن البناء ، لأن مصر مريضة بمقاومة الزمان وما يحمل من أعراض الفناء كما يقول صاحب أهل الكهف .

وإذن فلتبن[1] مصر ولتبن ولتَشْق مصر ولتشقَ ، فإن الله قد خلقها للشقاء والبناء معا . ولتبسط الوزارة يدها على هؤلاء المبتدعين

(١) كتب طه حسين منتقدا الحكومة لأنها اعتمدت أكثر من ثمانين ألف جنيه لبناء قاعة المحاضرات التى نراها الآن فى جامعة القاهرة ، لأن الحالة الاقتصادية كانت تستوجب توجيه هذا المبلغ إلى بناء عدة مدارس فى ذلك الوقت .

الذين يريدون أن يصرفوا مصر عما كتب الله لها من الشقاء والبناء ، فكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

إنذار

كانوا[1] يخوضون فى ألوان مختلفة من الحديث فقال قائل منهم : زعموا أن من أكل السمك وشرب اللبن ثم دخل الحمام لم يخرج منه إلا مجنونا ولم ينكر على هذا القائل قوله من أصحابه – وكانوا كثيرين – إلا رجل واحد ألح فى الإنكار والمماراة حتى ضاق به أصحابه وحتى أقسم هو ليأكلن السمك وليشربن عليه اللبن وليدخلن بعد ذلك الحمام ، وليخرجن منه موفور العقل ، متزن الطبع ، معتدل المزاج .

ورآه الناس بعد ظهر ذلك اليوم يطوف فى شوارع القرية ويقف بأنديتها ومجالس أهلها عاريا ، قد جمع ثيابه كلها على رأسه ، واندفع فى ضحك مخيف وهو يقول : زعموا أن من أكل السمك وشرب اللبن ودخل الحمام لم يخرج منه إلا مجنونا . وقد فعلت ذلك كله ، أفترون علىّ أثرا من آثار الجنون أو مظهرا من مظاهر الاضطراب ؟

والذين يعرفون هذه القصة التى يتندر بها الناس إذا ذكروا أكل السمك وشرب اللبن ودخول الحمام ، لا يملكون أنفسهم أن

---

(١) ١٧ – ٨ – ١٩٣٣

يذكروها ويضحكوا منها ويغرقوا فى الضحك إذا رأوا صحف الوزارة فى هذه الأيام ، ولا سيما إذا رأوا « الاتحاد » التى ظهرت أمس و « الشعب » التى ظهرت اليوم . فالاتحاد والشعب آمنتان كل الأمن ، مطمئنتان كل الاطمئنان ، واثقتان كل الثقة تقضيان النهار فى راحة المطئن الآمن ، وتقضيان الليل فى نوم المستريح الهادىء ، لأن الوزارة القائمة لا تتعرض لبأس ولا تستهدف لمكروه ولا تأتيها الاستقالة من بين يديها ولا من خلفها ، ولا من يمين ولا من شمال ، ولا تهبط من السماء ، ولا تنجم لها من الأرض . هى مستقرة كاستقرار المقطم ، ثابتة كثبات الأهرام . ولهذا لا تحفل الاتحاد ولا تحفل الشعب بهذيان المعارضين الذين يحلمون باستقالة الوزارة . ثم يخيل إليهم أن أحلامهم قد أصبحت حقا لا شك فيه .

لا تحفل « الاتحاد » بهذا الهذيان ولكنها تكتب فيه أربعة فصول . ولا تحفل الشعب بهذا الهذيان ولكنها تكتب فيه ثلاثة فصول . لا تحفلان جميعا بهذا الهذيان ولكنهما لا تشغلان إلا به ، فإن زعمت بعد ذلك أن قصتهما لا تذكر بقصة هذا الذى أكل السمك وشرب اللبن ودخل الحمام ، ثم خرج كامل العقل ، موفور الذكاء ، مستقيم الطبع ، معتدل المزاج ، يثبت ذلك للناس بهذا البرهان الذى لا يقبل شكا ولا جدالا فيجرد جسمه — ويستر رأسه ، إن زعمت أن ليس بين القضيتين شبه فأنت فى حاجة إلى أن تستأنف النظر فى أصول علم البيان وما أحصى من شروط التشبيه الصحيح .

وهذه الفصول السبعة التى كتبت فى هذين اللسانين من ألسنة الوزارة ، فيها الطويل والقصير ، وفيها الضيق والعريض ، ولكنك على

كل حال لن تجد فيها ما يغنى وما يفيد ، وما يقنع بأن الوزارة ثابتة مستقرة آمنة مطمئنة إلا إذا كان ذلك الذى أكل السمك وشرب اللبن ودخل الحمام قد اقنع الناس بأنه عاقل موفور العقل ، ذكى موفور الذكاء . فلك أن تقرأ هذه الفصول إن أردت أن تلهو ولك أن تهمل هذه الفصول إن كان وقتك أعز عليك من أن تنفقه فى لهو الحديث ، ولكن فى جريدة الشعب فصلا لم يكتب لك ولم يكتب لى ، ولذلك ينبغى أن تقرأه كما قرأته أنا ، أو ينبغى على كل حال أن تعرف خلاصة هذا الفصل فهو خليق أن يدرس وأن يفكَّر فيه . لم يكتب هذا الفصل لك ولا لى وإنما كتب للإنجليز .

فإذا وجب عليك أن تقرأه متطفلا كما وجب على أن أقرأه متطفلا فقد يجب على الإنجليز أن يقرءوه مرة ومرة ، وأن ينظروا فيه فيطيلوا النظر ، وأن يمعنوا فيه فيطيلوا الإمعان ، فقد فتح الإنجليز على أنفسهم بابا لست أدرى أيستطيعون إغلاقه ؟

وبدأ الانجليز يسلكون طريقا لست أدرى أيستطيعون المضى فيها ؟ نقلوا مندوبهم السامى لأنهم راضون عنه ، فهم يريدون ترقيته أو ساخطون عليه فهم يريدون تنحيته عن العمل فى هذه البلاد . هذا حقهم لا ينازعهم فيه أحد ، ولا يدافعهم عنه إنسان ، ولكن الناس يتحدثون بأن الإنجليز قد تأمرهم نفسهم ، والنفس أمارة بالسوء أن يتخذوا نقل المندوب السامى وسيلة إلى التغيير فى سياستهم المصرية ، وأن يكون هذا التغيير سببا إلى استقالة الوزارة . وهذا هو الباب المنكر الذى فتحه الانجليز على أنفسهم ، ويجب أن يسارعوا إلى إغلاقه .

وهذه هى الطريق المنكرة التى بدأ الإنجليز يسلكونها ويجب أن يتحولوا عنها مسرعين ، فإن الوزارة المصرية ليست من هذه الوزارات الهينة اللينة التى يقول لها الإنجليز قومى فتقوم ، أو اقعدى فتقعد ، أو اصعدى فتصعد أو انزلى فتسرع إلى النزول . إنما هى وزارة حرة مستقلة ، ووزارة قوية عزيزة ، ووزارة أبيّة منيعة ، قد عرف رئيسها كيف يوقف الإنجليز عند حدودهم ، ويضطر مكدونالد[1] إلى السكوت والسكون . ومازال رئيسها هو صدقى

---

(١) قالت صحيفة الأهرام (١٨ - ٨ - ١٩٣٠) مانصه :

جاء فى التصريح الذى فاه به المستر مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية فى لندن أن الحكومة البريطانية أرسلت تعليمات إلى السير برسى لورين المندوب السامى فى مصر يطلب منه فيها أن يبلغ صدقى باشا رئيس الوزراء أنها تعده مسئولا عن حماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم فى مصر . وأن السير برسى كلف أيضا بإبلاغ النحاس باشا أنه يجب حل مشاكل مصر الداخلية بدون أن تتعرض أرواح الأجانب ومصالحهم للخطر ، وأنها تعده مسئولا مع الحكومة إذا تعرضت تلك المصالح والأرواح للخطر ، وقد أبلغ فخامة المندوب السامى هذا التصريح لحضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء وقد دعى دولته وسعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا لتناول الغداء فى دار المندوب السامى . وفى هذا اللقاء تم وضع رد الوزارة على تصريح مستر مكدونالد ، ومما جاء فيه :

ترى الحكومة المصرية ، ولم يكن يسعها إلا أن ترى - فى التبليغ الذى تفضلتم بإرساله إلى أن الموقف الذى اتخذته الحكومة البريطانية أخيرا لا يكاد يتفق مع تصريحاتها المتكررة بأنها « ستراعى بالنسبة لمسائل مصر الداخلية مقتضيات الحياد الدقيق » .

فإذا كانت الحكومة البريطانية تقف على الحياد ، ولا تتدخل فى الشئون الداخلية المصرية ، فكيف نوفق بين هذا الزعم وتصريح إسماعيل صدقى باشا المنشور فى صحيفة البلاغ (٢ - ٩ - ١٩٣٣) وهو : كل ماأرجوه أن يتابع المندوب السامى الجديد سياسة السير برسى لورين ، ألا يحدث أى تبدل فى السياسة الإنجليزية ، لأن السياسة الحاضرة توافق مصر) ؟

باشا لم يتغير ولم يتبدل ، ولم يسع إليه ضعف ولم يأخذه وهن ، ولن يعجزه غدا كما لم يعجزه أمس أن يقول لمكدونالد مكانك لا تخطُ خطوة واحدة إلى أمام فإنى لا أسمح لك بذلك ولا آذن لك فيه .

وإذن فخليق بالإنجليز أن يتدبروا وأن يتفكروا وأن يغيروا مندوبهم السامى ما أحبوا ، وينقلوه إلى حيث أرادوا ، ولكن بشرط ألا يمسوا السياسة المصرية ولو من بعيد ، وألا يعرضوا ببقاء الوزارة المصرية أو ذهابها فذلك ليس من شأنهم وإنما هو من شأننا . وكل أجنبى يعرض لشئوننا فلا يلومن إلا نفسه حين تنزل به النوازل وتطيف به النوائب وتحدق به الأخطار من كل مكان . والانجليز أعقل من أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ، وهم أحرص على كرامتهم أن تهان ، وعلى دمائهم أن تراق ، وعلى قوتهم أن تضعف من أن يعرضوا للوزارة المصرية فيشيروا إليها بالاستقالة من قريب أو من بعيد .

هم أعقل من هذا كله لأنهم يعلمون أنهم إن طلبوا ذلك لم يجابوا إليه وإن ألحوا فى ذلك ففى مصر قوة تثبت لقوتهم ولعلها أن تردهم خائبين .

وليس من شك فى أن هذا المقال فيه شيء من ريح الحرب ، ومن يدرى ؟ لعل الذى كتبه أن يكون مجاورا لوزارة الحربية أو كثير التردد عليها والإلمام بها ، فهو لذلك مستشعر القوة والعزة ، مقدر حظ مصر من البأس والبطش ، ومن الاستعداد للطوارىء والقدرة على رد المغيرين . وليس من شك فى أن هذا المقال خليق لهذا كله أن يقرأه الإنجليز وأن يتدبروه ويتفكروا فيه قبل أن تحدثهم نفسهم

بالتعرض للشئون المصرية والتلميح إلى تغيير السياسة المصرية ، ثم ليس من شك فى أن من الواجب علينا نحن المصريين أن نقرأ هذا الفصل ونتدبره فالإنجليز قوم مغرورون ، أظهر عيوبهم الصلف والكبرياء والاعتداد بالنفس ، ومن يدرى ؟ لعل هذا التحدى الذى تتقدم به إليهم صحيفة من صحف الوزارة بل صحيفة رئيس الوزراء أن يغيظهم ويحفظهم ويدفعهم إلى قبول المعركة التى تعرض عليهم وإلى اقتحام الهول الذى يردون عنه ، ومن يدرى ؟ لعلهم أن يشيروا إلى الوزارة بالاستقالة فتأبى الوزارة فيلح الإنجليز فتغضب الوزارة فتشب الحرب بين البلدين ، وليست حرب الانجليز سهلة ولا هينة . والمصريون قادرون عليها إن دعتهم الوزارة إليها ، ولكن الحرب على كل حال خليقة أن يحتاط لها الناس . وإذن فينبغى أن نحتاط لنضمن الفوز ونأمن الهزيمة .

أما الوزارة فمقال كاتبها يدل دلالة قوية على أنها متأهبة محتاطة لا تخاف أن تؤخذ على غرة ولا أن تزول عن مواقفها ، ولكن الأمة لم تنبأ بهذه الحرب ولم تهيأ لها ، فلا بد من أن تحتاط منذ الآن ، ولا بد من أن تستعد لآلام الحرب وآثامها ، ونحن واثقون بشجاعة الأمة وصبرها على البأساء والضراء واستعدادها لتأييد الوزارة وحمايتها بالأنفس والأموال .

أرأيت أنى لم أخطىء حين لخصت لك هذا الفصل ودعوتك إلى التفكير فيه ، فليس ينبغى أن يقرأه الإنجليز وحدهم فيستعدوا للهجوم وأن يجهله المصريون وحدهم فلا يستعدوا للدفاع .

والآن وقد قرأ الإنجليز هذا الفصل وعرف المصريون خلاصة ما فيه فالعالم بين اثنتين : إما أن يثوب الإنجليز إلى رشدهم فيؤثروا العافية ويجنحوا إلى السلم ، ويدَعوا الوزارة تصرف أمور مصر على أحسن حال فى حرية واستقلال ، وإذن فالعالم مطمئن راض ، وإما أن تأخذهم العزة والكبرياء فيدخلوا فيما لا يعنيهم ، ويعرضوا لما لا ينبغى أن يعرضوا له وإذن فأربعون قرنا أو تزيد تنظر إلى المصريين من أعلى قمم الأهرام ، ولن يكذب المصريون ظن هذه القرون . ولكن ويل للعالم من هذه الحرب المنكرة ، وهل فرغ العالم من تلك الحرب الكبرى وآثارها ليتورط فى حرب أخرى أعظم منها شرا وأقبح آثارا ؟ .

وبعد فحديث مطمئنين هذا الكلام الذى نشرته صحيفة الوزارة أم حديث قوم فقدوا الاطمئنان وفقدوا مع هذا الاطمئنان شيئا آخر ؟ وبعد فحديث صحيفة تعبر عن وزارة قائمة هذا ، أم حديث قوم يهذون ولا يقدرون ما يقولون ؟ وبعد فهل بلغ من ضعف الوزارة واستسلامها وإذعانها للأحداث وتصاريف الخطوب أن تدع كتابها يدافعون عنها بمثل هذا اللغو ، ويذودون عنها بمثل هذا الهذيان ؟ وبعد فقد آثرت الوزارة الصمت وهو خير ما تؤثره فهلا أمرت كتابها أن يؤثروا الصمت عن هذا الموضوع وأن يخوضوا فى غير هذا الحديث . فإذا لم يكن بد من أن يقولوا فيه ، فهلا أمرتهم الوزارة أن يقولوا مالا يضحك ومالا يدعو إلى هز الرءوس ورفع الأكتاف ؟ وبعد فماذا تخاف الوزارة وماذا يخاف أنصارها ؟ وأى بأس عليها وعليهم من أن يصيبها ما يصيب الوزارات كلها ؟ فكل

وزارة ذائقة الاستقالة ، والمناصب – كما تقول المقطم – تقليد ، لا تخليد . وما دام فى الناس رمق من الحياة فلهم حظ من أمل ، فلتصبر الوزارة على ما يمكن أن يلم من خطوب ولتأمل الوزارة فيما يمكن أن يتاح من خير ، فلم يقل أحد من خصومها ولا من أنصارها – بالطبع – إن الانجليز سيأمرونها بأن تستقيل ، ومتى أمر الإنجليز وزارة مصرية بأن تستقيل ؟ لم يفعلوا ذلك قط ، لا فى أيام الاحتلال ، ولا فى أيام الحماية ، فهم أجدر ألا يفعلوه فى أيام الاستقلال . لم يكن إليهم فى يوم من الأيام إقالة الوزارات المصرية أو توليتها فلتطمئن الوزارة وليطمئن أنصارها فلن يكون عليها – إن شاء الله – بأس من الإنجليز ولن يأمرها الإنجليز بأن تستقيل ، ولن تحتاج إلى أن تقاوم الإنجليز ، ولا أن تأبى الإذعان لهم . ولكن من الذى زعم أن الوزارات المصرية لا تستقيل إلا إذا صدر إليها بذلك الأمر من الإنجليز ؟ ما أسخف هذا الإنذار الذى ازدانت به « الشعب » صباح اليوم !

سؤال

لا[١]يكاد يلقيه أحد على أحد لأن جوابه مرسوم فى القلوب ، ماثل أمام العيون ، يحسه الناس جميعا ، لا يختلفون فيه إلا أن يكونوا صحفيين تدفعهم الضرورات الصحفية إلى أن يكتبوا فصلا من الفصول .

وهذا السؤال متصل بالمندوب السامى الذى أقصى عن مصر منذ أيام : أنجح هذا المندوب فى مهمته التى أقام لها فى مصر أعواما ؟ أم قضى الله عليه بالفشل والإخفاق ؟ ألق هذا السؤال على من شئت من المصريين فسيجيبك فى غير تردد ولا اضطراب إلا أن يكون صحفيا تلزمه الضرورات أن يكتب فصلا من الفصول ، أو تضطره ظروفه السياسية الخاصة إلى أن يرى لنفسه رأيا يؤمن به ، وللناس رأيا آخر يعيش منه . سيجيبك هذا المصرى بأن المندوب السامى المنقول لم يظفر بقليل ولا كثير من النجاح .

فنجاح المندوب السامى فى مصر ينظر إليه فيما يظهر من وجهين اثنين لا ثالث لهما : أحدهما مصرى والآخر إنجليزى . فهو ينجح

(١) ١٨ - ٨ - ١٩٣٣

عند المصريين إذا استطاع أن يزيل ما بين مصر وإنجلترا من أسباب الخلاف والخصومة ، أو يقرب ما بينهما من آماد هذا الخلاف وهذه الخصومة فيقضى على ما يثور فى نفوس المصريين من عواطف السخط على الإنجليز والتنكر لهم ، وسوء الظن بهم . أو يخفف من هذه العواطف لما يثير فى النفوس بسيرته من أن الإنجليز ليسوا من الاعتداء والطغيان بحيث كان الناس يظنون ، وإنما هم أنصار العدل ، والداعون إليه ، وحماة الإنصاف والحريصون عليه وأصحاب السلم والصلات التى تقوم على المودة والاحترام ، لا على القوة والبأس ، ولا على البطش والعدوان .

هنالك قد لا يطمئن المصريون كل الاطمئنان إلى هذه الآمال ولا يثقون بها كل الثقة ، ولكنهم لا يجحدونها ولا يلحون فى إنكارها والنفور منها . وهنالك تجرى الأمور بين المصريين والإنجليز فى طريق معتدلة مستقيمة خليقة أن تؤدى إلى الاتفاق الذى يعتمد على المودة والحب وعلى التقدير والاحترام . وهو ينجح عند الإنجليز بنفس هذه السيرة التى ينجح بها عند المصريين لأنه يريحهم من بغض المصريين لهم ، وسوء ظن المصريين بهم ، ويمكنهم من أن يتموا ما أرادوا غير مرة من الانتهاء إلى الاتفاق الشريف بينهم وبين هذه البلاد .

وقد ينجح عند غلاة المستعمرين من الإنجليز إذا استطاع أن يقهر المصريين ويذلهم ويمحو من أنفسهم عاطفة الكرامة والعزة ، وينسيهم الاستقلال والسعى إليه ، ويصرفهم إلى الطاعة المطلقة ، والخضوع فى غير مقاومة ولا محاولة للمقاومة . هنالك يأمن الإنجليز أمر

المصريين بالقهر ، لا بالحب ، ولكنهم يأمنونه على كل حال . وأهم ما يحرص عليه الإنجليز إنما هو أن يأمنوا أمر المصريين ويستريحوا منهم ، ويفرغوا لغيرهم من الشعوب . فسل من شئت من المصريين بعد ذلك أى لون من ألوان النجاح وفق إليه المندوب السامى القديم فى مصر ؟ أتراه قد قرب الأمد بين المصريين والإنجليز أو خفف ما بينهم من خلاف وخصومة أو محا ما فى النفوس من السخط والبغض ، ومن الريبة وسوء الظن ؟ أو جعل الانجليزى إذا اتصل بالمصريين وتحدث إليهم يشعر شعورا واضحا قويا بأنه يتحدث إلى قوم أصدقاء يحبونه ويكلفون به ؟ أو يتصل بقوم لا يحبونه ولكنهم لا يبغضونه ، لا يأمنون إليه ولكنهم لا يخافون منه ، لا يثقون به ولكنهم لا يرتابون فيه .

نظن أن الجواب على مثل هذا السؤال لا يحتاج إلى تفكير ، فلم يبلغ سوء ظن المصريين بالإنجليز فى يوم من الأيام ما بلغه الآن ، لا نستثنى من ذلك إلا أيام الثورة حين كانت الدماء تسفك والنفوس تزهق بأيدى الإنجليز . وإذن فلم يستطع المندوب السامى أن يقرب بين المصريين وبين مواطنيه ، وإنما استطاع أن يباعد بين مصر وإنجلترا فيمعن فى هذه المباعدة وينتهى بها إلى اقصاها ، وهو من هذه الناحية لم ينجح عند المصريين ، وهو من هذه الناحية لا يستطيع أن يقول إنه يشعر بأسف المصريين لفراقه ، أو حزنهم على أن تنقطع بينه وبينهم الأسباب . ولعله على العكس من ذلك يستطيع أن يلاحظ أن المصريين لم يقفوا من نقله موقف المحايد ، وإنما وقفوا منه موقف من

يرضى عن هذا النقل ويبتهج به ، لأنهم يحملونه تبعات ما أصابهم من هذه الآلام الثقال التى ألحت عليهم فى هذه الأعوام الثلاثة .

وإذا كان المندوب السامى لم ينجح عند المصريين من هذه الناحية ، فهو لم ينجح عند الإنجليز من هذه الناحية أيضا ، الإنجليز لا يستطيعون أن يقولوا اليوم إنهم يشعرون بحب المصريين لهم أو ميل المصريين إليهم ، ولعلهم لم يستطيعوا أن يروا نفور المصريين منهم واضحا عنيفا على هدوئه الظاهر كما يرونه الآن ، لا نستثنى من ذلك أيضا إلا أيام الثورة .

أخفق المندوب السامى إذن فى التقريب بين مصر وانجلترا ، فلم يرض أنصار هذا التقريب هنا ، ولم يرضهم هناك . وهو كذلك قد أخفق عند المستعمرين الذين يغلون فى بسط السلطان الإنجليزى فهو لم يصل إلى شىء مما يحرص عليه هؤلاء الغلاة . لم يخف المصريين من الإنجليز ، وآية ذلك أن المصريين ما زالوا اليوم فى موقفهم الذى كانوا فيه منذ أربعة أعوام ، لم يتأخروا عنه قيد شعرة . وأكبر الظن أنهم تقدموا عنه كثيرا . ولم يخضع المصريين لسلطان الإنجليز ، ولم يصرف المصريين عن الاستقلال ، ولا عن السعى إليه ، ولم يقو النفوذ المعنوى للإنجليز ، ولم يقنع أحدا فى الأرض بأن السلطان الإنجليزى قد تغلب على ما كان يعترضه من المصاعب فى وادى النيل حتى أصبح من اليسير بعد زمن طويل أو قصير أن تصبح مصر مستعمرة من مستعمرات التاج .

وإخفاق المندوب السامى عند المصريين ، وإخفاقه عند أنصار الاتفاق وعند غلاة المستعمرين هو الذى جعل نقله من مصر أمرا محتوما ، وهو الذى اضطره إلى هذا الموقف الغريب الشاذ الذى لم يقفه مندوب سام قبله ، فألزمه أن يسافر إلى انجلترا فى مارس ويبقى فيها معلقا ، لا هو بالثابت ولا هو بالمنقول جزءا من الشتاء وفصل الربيع كله وجزءا غير قصير من الصيف ، تختلف عليه عواطف الأمن والخوف ، ويختلف عليه المرض والشفاء ، وتختلف به الظنون وتذاع حوله الأنباء المتناقضة : أيعود أم لا يعود ؟ أينقل أم يعزل ؟ والمصريون يرون هذا كله ، ويردون هذا كله إلى مصدره الصحيح ، وهو أن المندوب السامى قد أخفق وأن مركزه فى مصر قد أصبح مستحيلا ، وأن مركزه فى انجلترا نفسها قد أصبح سخيفا ، وأن الحكومة الإنجليزية لا تبرأ من الحيرة لأنها لا تريد أن تظهر رأيها فى إخفاق مندوبها السامى فيطمع فيها المصريون ، ولا أن ترده إلى عمله فيفسد عليها فى مصر كل شىء .

وأنت تستطيع أن تثق بأن شيئا من الأشياء لم يسىء إلى موقف الإنجليز فى مصر وهيبتهم فى الشرق ، بمقدار ماأساء إليها تعليق المندوب السامى بين الأمل والرجاء من مارس إلى أغسطس . ثم لم يكن بد آخر الأمر من أن تتخذ الحكومة الإنجليزية قرارا حاسما ، فقد أخذ الصيف ينقضى ، وأخذت الأنباء تصل إليها بأن مصر لم تشهد فى يوم من الأيام منذ ألغيت الحماية عصرا ضعفت فيه الوزارة ، وضعفت فيه هيبة السلطان فى نفوس الناس ، وانتشر فيه الفساد فى الحياة المادية والاجتماعية والخلقية والسياسية كهذا العصر

لم يبق بد إذن من أن تعترف الحكومة الإنجليزية أمام الناس بما كانت تعترف به أمام نفسها منذ زمن بعيد بأن مندوبها السامى فى مصر قد أخفق ، وأن عودته إلى مصر ليست شيئا مرغوما فيه . وإلا فقد نحب أن نفهم فيم نقل المندوب السامى إن كان قد نجح أو أصاب شيئا من التوفيق ؟ وما الذى يضطر الحكومة الإنجليزية إلى أن تقطع على مندوبها الموفق سبيل التوفيق إلى إرضاء المصريين إن كان قد وفق إلى إرضائهم ؟ أو قهر المصريين إن كان قد وفق إلى هذا القهر والإذلال ؟

زعموا أن المندوب السامى قد نجح ، وهذا النجاح له صورتان مختلفتان : إحداهما يظهرها بعض الإنجليز ، والأخرى يذيعها بعض المصريين . فأما الصورة الإنجليزية لهذا النجاح فهى هذه التى تراها فى مقال للفننشال تيمس من أنه قد رفع مكانة المندوب السامى ومهابته فى نفس الحكومة المصرية بعد أن كانت هذه المكانة وهذه المهابة قد تعرضت من قبل لخطر شديد . ونحن لا نشك فى أن مكانة المندوب السامى قد ارتفعت وغلت فى الارتفاع ، وامتازت وأسرفت فى الامتياز فى نفس الوزارة المصرية القائمة . وآية ذلك أن الإنجليز لم يريدوا من هذه الوزارة شيئا إلا ظفروا به ، ووفقوا إليه ، ولكن المهم هو مكانة المندوب السامى ، ومكانة الوزارة التى ارتفعت فيها لم ترتفعا فى نفس الشعب المصرى ، وإنما تعرضتا لهذا الخطر الذى اضطر الإنجليز إلى أن ينقلوا مندوبهم ، والذى سيضطر الوزارة المصرية التى كانت ترفعه وتميزه إلى أن تتخلى عن الحكم غدا أو بعد غد ، لأنها لم تبق قادرة عليه . ولعل من أهم الأسباب التى تضطرها

إلى الاستقالة أنها قد أسرفت فى إكبار مكانة المندوب السامى والاستماع له حتى تجاوزت مصالح المصريين وعرضتها للفساد والاضطراب .

أما الصورة الأخرى التى يذيعها بعض المصريين ، فهى أن المندوب السامى قد نجح فى إحداث الفرقة فى الكتلة الوطنية المصرية ، وليست هذه الصورة أقل إثارة للابتسام من تلك . فلو أن المندوب السامى قد فرق المصريين حقا لما نقله الإنجليز ، لأن التفريق الصحيح للمصريين هو الذى يكوّن فى مصر هيئة قوية حقا ، تستطيع أن تقف على قدميها ، وأن تعتمد على نفسها وأن تتقدم إلى الإنجليز لتنفذ لهم ما يريدون ، مطمئنة إلى أن لها أنصارا من المصريين أقويا ، يستطيعون أن يؤيدوها ويمكنوها من البقاء . فنحب أن نعرف أين هذه الهيئة المؤتلفة التى تعتمد عليها الوزارة القائمة ؟ وإذن فلمَ نقل المندوب السامى ؟ ألم ينقل لأن اعتماده على هذه الهيئة لم يغن شيئا ؟ أم هى هيئة أخرى همت أن توجد وأن تأتلف فلم توفق ، لا إلى الوجود ، ولا إلى الائتلاف ، لأن أحدا لم يستجب لها ، ولم يستمع لدعائها . ولو قد وجدت هذه الهيئة حقا ، ولو قد استجاب الناس لهذه الهيئة لبقى المندوب ليستغلها كما استغل الهيئة التى تؤيد الوزارة القائمة

يجب أن ألّا يخدع الناس أنفسهم ، فإن الإخفاق المطلق الذى أصاب المندوب السامى عند المصريين وعند الإنجليز جميعا ، هو الذى قضى بنقله وهو حين قضى بنقله قضى بشىء آخر ستظهر بوادره فى

وقت قريب جدا ، وهو تغيير السياسة الإنجليزية التى أنفقت هذه الأعوام الثلاثة جادة كادّة ، باذلة ما تستطيع من الجهود الظاهرة والخفية ، ثم ظهر فى وضوح وجلاء أنها كانت عبثا من العبث ومحاولة ضائعة لم تنتج شيئا .

صورة

طويل[1] القامة ، يرتفع فى الجو مترين ، ثقيل الحجم ، يزن قنطارين ، صلب العظم ، قوى العضل ، مهيّأ بهذا كله فيما تقول بعض الصحف الإنجليزية للقاء المعضلات ، واجتياز العقبات وتذليل المصاعب والخروج من الخطوب . وهو على هذا كله ولهذا كله رزين ، راجح الحلم ، بعيد النظر ، ثاقب البصيرة . لا يحب الترف ولا يكلف بمظاهره ، ولكنه يحب العمل ، وينفق فيه جهدا عظيما . ويحتاج إلى فرق مختلفة من الأعوان ، يلى بعضها بعضا فى العمل معه فى الليل والنهار ، لأن فرقة واحدة لا تستطيع أن تثبت لنشاطه العظيم وصبره على الجهد الثقيل . وهو إلى ذلك كله فيما تزعم بعض الصحف الإنجليزية أيضا ، مشغوف بصيد السمك ، لا يحب صيد الطير التى تسبح فى الهواء ، ولا الحيوان الذى يجرى على الأرض . فإذا استطعت أن تلائم بين هذا كله ملاءمة حسنة فقد وعيت الصورة التى أذاعتها الصحف الإنجليزية للمندوب السامى الجديد الذى اختارته الحكومة البريطانية لخلافة السير برسى لورين . وأنت تستطيع من غير شك أن تلائم بين هذه الصورة التى لا تخلو من قوة وطرافة ،

---

(١) ٢٠ – ٨ – ١٩٣٣

وبين ما تنتظر أو ما تريد أن يأتيه المندوب السامى الجديد من العمل السياسي فى مصر . والخيال بطبعه حر مطلق يذهب كما يشاء ، ويلائم بين الأشياء كما يحب ويهوى ، وينتظر من الأشياء ما يحب ويهوى ، ولكن حرية الخيال هذه لا تلزم طبيعة الأشياء ولا تغيرها ولا تمس الحقائق الواقعة بتحويل ولا تبديل . فمهما يكن المندوب السامى الجديد طويلا أو قصيرا ، ومهما يكن ثقيل الوزن أو خفيفه ، ومهما يكن صلب العظم أو رخصه ، قوى العضل أو ضعيفه . ومهما يكن مترفا أو مؤثرا للشظف ، فهو لن يستطيع أن يغير الحقائق المصرية الواقعة التى سيلقاها حين يصل إلى هذه البلاد بعد أسبوع أو بعد شهر أو بعد أشهر . والتى لا بد من أن يكون قد علم بكثير منها ، وسيتم العلم بها منذ الآن قبل أن يأخذ طريقه إلى هذه البلاد .

وأظهر هذه الحقائق المصرية الواقعة وأجلاها وأشدها لذلك تعرضا للإنكار والجحود ، هو أن فى مصر شعبا يريد أن يستقل ، ويريد أن يعيش حرا ، وأن هناك قوى تأبى عليه هذا الاستقلال ، وتعترض سبيله إلى هذه الحرية ، وأنه قد ثبت لهذه القوى ثباتا قويا رائعا ، لم يضطرب فيه ولم يتحول عنه ، ولم تستطع المحن على اتصالها وإسرافها فى الشدة أن تنال منه و تصرفه عن إيثاره لهذا الثبات ولعلها كلما اتصلت وقست زادته حبا فى الثبات وإيثارا للصبر ، واستعذابا للألم واستبسالا فى الجهاد .

وقد جرب الإنجليز مندوبين سامين كثيرين ، كلفوهم مقاومة هذا الشعب وأخذه بالشدة العنيفة حينا ، وباللين المغرى حينا آخر ،

وكان بين هؤلاء المندوبين الطويل والقصير ، وكان بينهم الخفيف والثقيل وكان بينهم المترف الرقيق والغليظ الخشن ، وكان بينهم من يؤثر العنف ويغلو فيه ، ومن يؤثر الهدوء ويتكلف التزيد منه . وكلهم رجع إلى الذين أرسلوه بنتيجة واحدة ، لم يغيرها القصر والطول ، ولم يؤثر فيها الثقل والخفة ، ولا الغلظة ولا الرقة . وهى أن هذا الشعب يريد أن يستقل ، وأن يعيش حرا ، وألا تكون الصلة بينه وبين غيره من الشعوب الا صلة الشعب الكريم بالشعب الكريم ،وألّا تكون الصلة بينه وبين الحكومة القائمة فيه إلا صلة الشعب السيد بالحكومة التى تؤجر على أن ترعى مصالحه وتحقق منافعه كما يريد هو ، لا كما تريد هى ، ولا كما يريد الذين يوحون إليها ويحاولون تسييرها ذات اليمين وذات الشمال .

وقد جرب الطوال والقصار ، والخفاف والثقال من المندوبين السامين مع هذا الشعب ، ضروبا من السياسة وفنونا من المكر فمنهم من اشتد وقسا حتى تورط فى الإثم وسفكت فى ظله الدماء ، ومنهم من هان ولان حتى خيل إلى الناس أنه العسل الماذى كما يقول القدماء . ولكن عنف العنيف لم يخف هذا الشعب ، ولم يصرفه عن حقه ، ولِين الليِّن لم يخدع هذا الشعب ولم يلهه عن حقه ، إنما ثبت الشعب للرجلين جميعا أو للرجال جميعا . ومضى الشعب يطالب باستقلاله ، لا يضعف عن المطالبة ، ويلح فى حريته لا يفتر عن الإلحاح ، ويلقى عنف العنيف ولين الليّن بابتسام الثغور ، وهز الرءوس ، ورفع الأكتاف وألوان من المزاح قد لا يفهمها الإنجليز ،

ولا يقدرون لذعها ومرارتها ، ولكنها مظهر صادق لشعب صادق فيما يطلب وما يريد .

فليلق المندوب الجديد بصورته الرائعه هذا الشعب الرائع ، فقد يتفقان والاتفاق يسير ، وقد يختلفان والاختلاف يسير أيضا ، ولكن نتيجة الوفاق سلم وأمن للإنجليز والمصريين والشرقيين جميعا . ونتيجة الخلاف ما نحن فيه الآن مما يتكلف الإنجليز إظهار الاستخفاف به ، والإعراض عنه ، ولكنهم حين يتحدثون إلى أنفسهم ويخلون إلى ضمائرهم ويواجهون مشاكلهم فى هذه الخلوة شجى فى الحلوق ، وأذى فى الصدور ، يودون حريصين لو وجدوا إلى التخلص منها سبيلا .

الاتفاق يسير إذا اعترف المندوب السامى الجديد أمام الناس بما يعترف به أمام نفسه من أن الشعب المصرى لم يبق من هذه الشعوب التى تساس سياسة الأطفال فتخدع بالمنى وتعلل بالآمال ، ثم يضمر لها السوء ويمكر بها من وراء حجاب . وإنما هو شعب لا يريد أن يسوسه أحد إلا نفسه ، ولا يقبل من الذين يتصلون به أن تقوم الصلة بينه وبينهم إلا على الصراحة والجراءة والاعتراف بالحق والاتفاق عليه

والاختلاف يسير إن مضى المندوب السامى الجديد فى طريق المندوبين التى سلكوها من قبله . وآمن فيما بينه وبين نفسه بأن هذا الشعب خليق أن يستقل ويعيش حرا ، ثم أبى أن يعترف بهذه الحقيقة أمام الناس ودار حول هذا الشعب يحاول أن يخيفه مرة ، وأن يلهيه

مرة أخرى ، وخيل إلى نفسه أن سيبلغ بهذا الدوران ما لم يبلغه غيره من الذين سبقوه .

كلا الأمرين يسير ، وكلا الأمرين له نتائجه الظاهرة الواضحة ، وكلا الأمرين لا يغنى فيه القصر والطول ، ولا الخفة والثقل ، ولا إيثار الصيد فى الماء مهما يكن على الصيد فى الأرض والهواء . وإنما يغنى فيه الصدق ويغنى فيه النصح للإنجليز والنصح للمصريين ، والنصح للعالم أيضا . فقد طالما شقى العالم باعتداء الإنجليز على المصريين .

وقد زعموا أن المندوب السامى الجديد وفق إلى الفوز فى كل ما تولى من المناصب ، فليهنه هذا التوفيق ، ولكن التوفيق فى الصين واليابان وسيبريا غير التوفيق فى مصر . فقد وفق المندوبون السامون الذين سبقوه إلى الفوز فى مناصب كثيرة اختلفوا عليها . وفى أعمال كثيرة نهضوا بها ، ولكنهم أخفقوا فى مصر ، لأنهم سلكوا طريق الأثرة وغلوا فى سلوكها ، فلم يظفروا من المصريين بشىء إلا أن أحفظوهم وزادوا ما بين مصر وانجلترا من الخصومة شدة وحدة ، وكادوا يقطعون على حسن الصلة ما بين البلدين كل سبيل

وهنالك حقيقة واقعة أخرى قريبة ملموسة ، لا تحتاج إلى النظر فى الكتب ولا قراءة التاريخ لتظهر واضحة جلية ، وهى أن السير برسى لورين لم ينقل من مصر لأن الحكومة البريطانية قد آثرته بالخير ، وكافأته على ما أدرك من فوز ، وإنما نقل لأن الحكومة البريطانية قد أشفقت من هذا الخذلان الذى قدر لسياسته الغامضة الملتوية ،

واستيأست من أن تؤدى هذه السياسة بغموضها والتوائها ومخالفة سرها لجهرها ، وظاهرها لباطنها إلى خير ما . فلعل المندوب السامى الجديد أن يرى هذه الحقيقة الواقعة وأن يقدرها ، ولعله إن رآها ورأى آثارها البشعة السيئة أن يشفق من التورط فيها . وهو إن لم يفعل فسيصير أمره إلى ما صار إليه أمر صاحبه من قبل ، لا سبيل إلى الشك فى ذلك ، ولا سبيل إلى الجدال .

إن الذين يظنون أن الشعب المصرى يعقد الآمال بهذا المندوب السامى أو ذلك يخطئون كل الخطأ ، فإن الشعب المصرى لا يعقد الأمل إلا بنفسه وحقه وقوته فى المطالبة بهذا الحق والثبات عليه . إنما يعقد الأمل بهذا المندوب أو ذلك من لا يؤمن بنفسه ولا بحقه ولا يجد من أمته سندا يعتمد عليه ، وإنما ينتظر الخير من غير مصدره الصحيح ، ويبتغى الحكم من تأييد الأجنبى . هؤلاء يحيون بذهاب مندوب وإقبال مندوب . أما الشعب فإنما يحيا بنفسه ولنفسه واثقا بأن مصير الأمر إليه على كل حال .

استفهام

يظهر[1] أن شخص المندوب السامى السير برسى لورين قد خاصم الوضوح والجلاء ، وأحكم الصلة بينه وبين الغموض والإبهام . وأبى أو أبت عليه الظروف إلا أن يحاط دائما بطائفة من علامات الاستفهام . أيعود أم لا يعود ؟ أينقل أم يعزل ؟ أيتم نقله أم لا يتم ؟ أيذهب من لندرة إلى أنقرة رأسا أم يعرج فى طريقه على مصر ؟ أيقيم فى مصر فيطيل الإقامة أم يمر بها مرا سريعا ؟ أيعنى بالسياسة المصرية مرة أخرى بعد أن أخفق فى هذه السياسة إخفاقا لم يكتب لأحد من الذين سبقوه أم يصرف عن هذه السياسة صرفا ويكتفى حين يصل إلى مصر بحزم أمتعته وضم جراميزه – كما كان يقول القدماء – ثم الرحيل عن وادى النيل إلى حيث ينهض بأعباء منصبه الجديد ؟

كل هذه أسئلة أحاطت بالسير برسى لورين كما تحيط الهالة بالقمر ، لا نقول منذ أسابيع ، ولا منذ أشهر ، ولا منذ عام ، بل منذ عهد بعيد . ومن قبل ذلك أحاطت بالسير برسى لورين أسئلة أخرى ليست أقل من هذه الأسئلة طرافة وإثارة للعجب والابتسام .

---

(١) ٢١ – ٨ – ١٩٣٣

فلم تكد تقطع المفاوضات بين الوفد المصرى والإنجليز ، ولم يكد يعود السير برسى لورين إلى القاهرة حتى أحاطت به وبسياسته طائفة من الأسئلة لم يستطع هو أن يحلها . وإنما حلها له رئيس الوزراء . أصادق هو فيما كان يظهر من حب للمصريين وعطف على آمالهم وأمانيهم وتأييد للحكم الديمقراطى الصحيح فيهم ؟ أم ماكر هو بالمصريين وأمانيهم وآمالهم ؟ أمخلص هو فيما أعلن بعد ذلك من التزام الحيدة واحترام الاستقلال المصرى ؟ أم لاعب هو بالحيدة والاستقلال ؟ أجاد هو فيما كان يظهر من الحرص على استقرار النظام فى مصر أم هازل هو بمصر وبما كان يريد من استقرار النظام فيها ؟

ومن قبل ذلك أحاطت بالسير برسى لورين أسئلة أخرى حين وصل إلى مصر ليتلقى فيها أزمّة منصبه الجديد ، فقد كان رأى وزارة الخارجية البريطانية معروفا ، أعلنه وكيلها المستر دالتون حين أكد أن الإنجليز لا يمضون المعاهدة إلا مع وزارة تمثل برلمانا ينتخب انتخابا حرا مباشرا ، ولكن السير برسى لورين أثيرت حول شخصه ورأيه طائفة من الإشاعات والأقوال غريبة ظهرت بعد ذلك أنها لم تكن صحيحة ولا ملائمة للحق ولكنها لم تخلق نفسها ولم تثر من غير مثير ، فكان الناس يتحدثون بأنه كان حريصا على الوزارة القائمة حينئذ ، وكان الناس يتحدثون بأنه كان زاهدا فى تلك الوزارة ، وكان الناس يتحدثون بأنه كان يريد أن يخلص منها فى عنف ، وكانوا يتحدثون بأنه كان يريد أن يخلص منها فى لباقة وظرف يلائمان أدب الرجل النبيل الذى اشتهرت عنه صفات الجنتلمان .

فأنت ترى أن شخص المندوب السامى السابق لا يحب الوضوح ولا الجلاء ، ولا الجو المستقر ، وإنما يحب أن يثور حوله دائما غبار مريب فيه ما يرضى وفيه ما يسخط ، وفيه ما يغرى بالاطمئنان وفيه ما يدعو إلى الحذر .

ولسنا ندرى أيشعر المندوب السامى السابق بهذا كله ويحبه ويتعمده أم هو القضاء المحتوم والقدر المكتوب أبى على السير برسى لورين إلا أن يعيش فى هذا الجو الغريب الذى لم يعش فيه مندوب سام قبله فى مصر .

ولسنا ندرى أكان هذا الجو المريب مقدورا عليه أو مسخرا له فى جميع المناصب السياسية التى تولاها ؟ أم كان مستورا له وراء حجب الغيب حتى إذا مست قدمه أرض مصر انشق الحجاب عن هذا السحاب فأحاط به ولم يفارقه إلى الآن ، ولكن الشىء المحقق الذى لا يقبل شكا ولا جدالا هو أن حجاب الريب هذا لم ينفع السير برسى لورين ولم يعصمه من النقل والإخفاق . فقد كان يظن نفسه ماهرا ماكرا ، وكان يخيل إلى نفسه أنه سيعبث بالمصريين حين يظهر لهم ما أظهر من الصداقة ، فلم يعبث إلا بنفسه ، ولم ينل من المصريين شيئا . وكان يظن أنه سيقهر المصريين ويذلهم ويأخذ منهم بالكره مالم يستطع أن يأخذ منهم بالرضى ، وعلى أن يظهر لهم دائما أنه محايد مخلص فى التزام الحياد . فأغرى المحن والفتن ، وسلط الأحداث والخطوب ، وأشرف من قصر الدوبارة ينظر إلى آثار سياسته الماكرة تعبث بمصر والمصريين فتفسد شئونهم ومرافقهم وتحاول أن تفسد

يقينهم وأن تفل من عزائمهم ، وتصدهم عن حقهم . تأخذ بعضهم باللين والإغراء ، وتأخذ بعضهم الآخر بالعنف والشدة حتى اشتريت الضمائر ، وسفكت الدماء فى غير موضع من أرض مصر

والسير برسى لورين مشرف من قصر الدوبارة ، مُحتم بحياده ، يسمع ويرى ، ويرضى ويقر ، ولكنه بعد عام وعام وعام نظر فإذا ما بذل فى عهده من إغراء ، وما سفك فى عهده من دماء ، وما أنفق من جهد ، وما أضيع من وقت ، وما تكلف هو من حياد ، وما تكلف غيره من جهاد ، كل ذلك لم يصنع شيئا ، ولم يغير من موقف مصر قليلا ولا كثيرا . وإذا دهاء برسى لورين كعجرفة جورج لويد لا يغنى عن الحق شيئا ، ولا يبلغ من المصريين بعض ما يريد الإنجليز أن يبلغوه ، وإذا الوزارة الإنجليزية وعلى رأسها مكدونالد تنقل برسى لورين معترفة بالإخفاق ، مشفقة من آثاره المنكرة . ولابد للوزارة الإنجليزية القائمة ، بعد أن أعلنت اعترافها بإخفاق السير برسى لورين ، واختارت من يخلفه ، من أن تغير السياسة التى سار عليها السير برسى لورين كما فعلت الوزارة الإنجليزية التى اعترفت بإخفاق جورج لويد فعزلته ومحت سياسته محوا .

هذا شيء واضح لا يحتمل شكا ولا جدالا ، ولكن قوما يشكون فيه ويجادلون ، لأن الصحف الإنجليزية فيما يقولون – مجمعة على أن تغيير المندوب السامى لا يستلزم تغيير السياسة الانجليزية . وقد قيل لهؤلاء المجادلين غير مرة إن تغيير السياسة البريطانية فى مصر شيء ، وتغيير سياسة المندوب السامى شيء آخر . فمن المحقق أن الإنجليز لن

يلغوا تصريح ٢٨ فبراير ، ولن يعدلوا عن فكرة المفاوضة التى تنتهى إن تمت إلى معاهدة ، ولن يضموا مصر إلى مستعمرات التاج ، ولن يعلنوا انسحابهم من مصر بغير شرط ولا قيد . لن يفعلوا شيئا من هذا ، لأنهم غيروا مندوبهم السامى ، فهذه سياسة مرسومة محتومة ، لا يستطيع الإنجليز أن يخرجوا منها إلا إذا أرادوا أن يحدثوا فى الحياة الدولية حدثا عظيما . وقد غيروا اللنبى الذى أسس هذه السياسة ولكنهم لم يغيروا سياسته ، وغيروا جورج لويد الذى سلك بهذه السياسة مسلك العنف ولكنهم احتفظوا بهذه السياسة ، ثم هم الآن يغيرون السير برسى لورين الذى سلك بهذه السياسة مسلك الدهاء والمكر ، ولكنهم لا يغيرون هذه السياسة . فالموقف الدولى للإنجليز فى مصر ، لن يغيره نقل مندوب وتعيين مندوب ، وإنما يغيره أحد أمرين : ثورة من المصريين أو من الإنجليز تنقض هذا الموقف نقضا ، أو معاهدة بين المصريين والإنجليز تحقق ما يطمح إليه الفريقان من الاتفاق ، ولكن من وراء هذا الموقف الدولى سياسة أخرى هى سيرة المندوب السامى مع الحكومة المصرية ، والشعب المصرى فى تفصيل الحياة اليومية المصرية ، وفى تفصيل الصلات اليومية بين المصريين والإنجليز . هذه السياسة الخاصة ،هذه السياسة المحلية – إن صح هذا التعبير – لابد من أن تتغير إذا تغير المندوب السامى لأنها رهينة بشيئين كلاهما يستلزم هذا التغيير ، أحدهما هذا الإخفاق المنكر الذى دفع إليه السير برسى لورين دفعا ، والذى لابد من إصلاحه وتداوك آثاره . والآخر مزاج المندوب السامى الذى ينهض بأعباء هذا المنصب فى مصر ، فإن هذه السياسة اليومية مهما تكن متأثرة

بالسياسة العامة ، لا تستطيع أن تبرأ من تأثير المزاج الشخصى للذين يديرونها ويسيطرون عليها فى مصر .

فقل ما شئت فى احتفاظ الإنجليز بسياستهم العامة نحو مصر ، وقل ما شئت فى حرص الإنجليز على ما أعلنوا من حياد ، فهذا كله لن يدل على شيء ، فقد احتفظ الإنجليز بسياستهم العامة ، ولكن سيرة مندوبيهم تغيرت وتغيرت منذ أعلن الاستقلال . وقد أظهر الإنجليز دائما منذ أعلن الاستقلال أنهم على الحياد فيما يمس الشئون المصرية الخاصة . وهل كان تصريح ٢٨ فبراير إلا إعلانا للحياد ؟ وما داموا لم يلغوا هذا التصريح ، فهم لم يلغوا هذا الحياد الذى أعلنوه ، ولكنه حياد يعرفه الناس جميعا ، حياد على الورق ، يقال وينادى به ، ثم لا يمنع من تدخل الإنجليز فى الشئون المصرية كلما احتاجوا إلى هذا التدخل وكلما أرادوه .

ستتغير إذن سياسة المندوب السامى فى مصر من غير شك ، ولكن ما هذه الأنباء التى تلح فى أن السير برسى لورين – رغم نقله وتعيين من يخلفه – سيعود إلى مصر ليتم مدته أو ليتم مهمته على اختلاف الصحف فى ذلك ، إنما هى أنباء تصور حياة السير برسى لورين كما أريد أن تكون فى مصر حياة غموض وإبهام وسؤال واستفهام .

وأكبر الظن أن هذا الغموض سيحيط بشخص السير برسى لورين ، وأن هذه الأسئلة ستلازمه حتى يذهب إلى أنقرة ، ويقدم أوراق اعتماده ، وينهض بأعباء منصبه الجديد ، يومئذ تقطع الأسباب ، لا نقول بين شخصه وبين مصر فقد قطعت هذه الأسباب

بالفعل ، بل نقول بين أوهامه وأوهام أنصاره وبين مصر . فقد يظهر أن هذه الأوهام لا تزال متصلة وستظل متصلة حتى يقطعها ذهاب السير برسى لورين إلى أنقرة أو مجيء السير لمبسون إلى القاهرة .

وهب المندوب السامى عاد إلى القاهرة ، فما عسى أن يفعل فيها ؟ وما عسى أن تكون هذه المهمة التى يريد أو يراد له أن يتمها ؟ وما عسى أن تكون هذه المدة التى يريد أو يراد له أن يختمها ؟ أتراه قد يعود ليهيىء لخليفته جوا صالحا فينقض بيده هذا الفساد المطبق الذى عقده بيده فى هذه الأعوام ؟ أم تراه سيعود ــ ليمضى فيما يقول أنصار الوزارة على استحياء ، وفى همس لا يكاد يسمعه أحد ــ هذه المعاهدة التى كان يحلم هو ويحلم رئيس الوزراء بإمضائها ؟ أم تراه قد يعود لأن مصر مقبلة فى هذه الأيام على أحداث جسام ، فلا بد من أن يكون التمثيل الإنجليزى فيها قويا حتى يأتى المندوب السامى الجديد آخر هذا العام ؟

كل ذلك ممكن أن يكون ، وكل ذلك ممكن ألا يكون . وكل ذلك يدل على شيء واحد ، وهو أن شخص السير برسى لورين لا يستطيع أن يعيش فى مصر أو قريبا من مصر دون أن تحيط به الأسئلة ويكثر حوله الاستفهام .

ومهما يكن من شيء فإن المصريين لن يحفلوا بإقامته بينهم أشهرا ، كما لم يحفلوا بإقامته بينهم أعواما .

كما أن المصريين لن يخدعوا بإقامته بينهم أشهرا ، كما أنهم لم يخدعوا بإقامته بينهم أعواما . عرف المصريون كيف يثبتون لمكره ودهائه ،

وكيف يبسـ[illegible] [illegible] سلط عليهم من المحن والخطوب ، وسيعرف المصريون كيف يثبتون له إن عاد إليهم ، وكيف يدفعون عن حقهم ويذودون عن كرامتهم واستقلالهم وثباتهم على مبادئهم .إن كان فى عودته القصيرة شىء قليل أو كثير مما يعرض حقوق المصريين للخطر . فليقم السير برسى لورين فى لندرة ، أو ليذهب إلى أنقرة أو ليأت إلى القاهرة ، فكل ذلك لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئا ، وهى أن سياسته قد أخفقت ولا بد للإنجليز من أن يعدلوا عنها إلى سياسة أخرى .

كلام

لن[1] تتغير السياسة الإنجليزية فى مصر برغم هذا النقل الذى فوجىء به المندوب السامى القديم على غير انتظار أو الذى طبخ له طبخا ، وأنضج له إنضاجا ، لا منذ أسابيع ، بل منذ شهور . لن يكون لهذا النقل أثر فى تغيير السياسة المصرية الإنجليزية . على ذلك أجمعت الصحف الإنجليزية إجماعا مريبا ، إن دل على شىء فإنما يدل على أنه إجماع مقصود ، متكلف قد صدر الوحى به والدعوة إليه .

وسواء أصدق هذا الإجماع أم لم يصدق فإن فى حديث بعض الصحف الانجليزية ما يدل على أنه إجماع مزيف ، ليس أقل تزييفا من الحياد الذى أعلنه الإنجليز ، وكرروا أنهم سيلزمونه ولا يعدونه . فهذه الديلى تلغراف – وما أكثر أعاجيب الديلى تلغراف فى هذه الأيام الأخيرة – تتحدث أمس عن عودة السير برسى لورين ليقيم فى مصر أسابيع قبل أن يذهب إلى أنقرة ، فتزعم أن إقامته القصيرة فى القاهرة ستكون عظيمة النفع إذا غيرت الوزارة المصرية ، لأن تغييرها أمر لا بد منه بسبب هذه العلة المقيمة التى لن تسمح لرئيس الوزراء

---

(1) ٢٢ – ٨ – ١٩٣٣

بأن يمضى فى تصريف الأمور . فقد نحب أن نعلم فيم تدخل المندوب السامى الجديد فى شئون الوزارة المصرية ما دام الإنجليز قد أعلنوا حيادهم ، وما داموا مصممين على لزوم هذا الحياد ، مصرين على ألّا يعنوا من شئون مصر إلا بما يتصل بالتحفظات المعروفة . وحتى كان مرض صدقى باشا واضطراره إلى الاستقالة ، واضطرار مصر إلى أن تختار مكانه رئيسا آخر للوزارة ، متى كان هذا كله أو بعضه من التحفظات التى قصر الانجليز عنايتهم عليها منذ أعلنوا حيادهم البديع ؟

إن الذى يعلمه الناس جميعا ، ويسرف فى تأكيده أنصار الوزارة ونتمنى نحن مخلصين أن يتحقق ، هو أن إقالة الوزراء وتعيينهم وإبقاءهم فى مناصبهم ليس من شأن الإنجليز ، ولا ينبغى أن يكون من شأنهم ، وإنما هو من شأن مصر وحدها . ولكن الصحف الإنجليزية لا ترى هذا الرأى لأن الإنجليز لا يرون هذا الرأى ، أو هم يرونه فى الجهر ويأبونه فى السر ، فيعلنون إلى الناس أنهم على الحياد ، ويأبون فى الوقت نفسه إلا أن يدخلوا ، أو يشرفوا على الأقل من قريب على شئون مصر حين يعتل وزير فيستقيل ، وتختار مصر مكانه وزيرا آخر

اجماع[1] الإنجليز إذن على أن تغيير المندوب السامى لن يستتبع تغييرا فى السياسة الإنجليزية ، كلام لا يدل على شيء كإجماع الإنجليز

(١) ظلت سياسة الإنجليز فى مصر مدة سنة تقريبا لم تتغير ولم يبد أنها ستتغير . فاستقالة إسماعيل صدقى باشا كانت لخلاف بينه وبين الملك فؤاد حول تدخل القصر فى توجيه الوزارة عن طريق ناظر الخاصة الملكية زكى الأبراشى باشا . فوزارة عبد الفتاح يحيى باشا امتداد للنظام الصدقى . فقد ظل مجلسا البرلمان قائمين . وظل دستور سنة ١٩٣٠ معمولا به .

منذ أعوام على أنهم قد نفضوا أيديهم من شئون مصر الداخلية ، ووقفوا منها موقف الحياد . وأظرف من هذا الكلام الذى لا يدل على شيء كلام آخر للديلى تلغراف نفسها فى هذا الفصل نفسه . فقد زعم مكاتب هذه الصحيفة أن اختيار المندوب السامى الجديد بين رجال السلك السياسى ، دليل واضح على أن الحكومة البريطانية لا تريد تغيير سياستها ، وعلى أن المفاوضة ستظل مرجأة مؤجلة ، ولكنه دليل واضح كذلك على أن الحكومة البريطانية ستحتفظ بهذا الموقف الحازم المعتدل المشوب بالعطف الذى لا يسمح للخارجين على النظام بالقيام فى سبيل التقدم المطرد المنظم يعترضون تقدم مصر .

والذين حالت إنجلترا وستحول بينهم وبين إفساد النظام وتأخير الرقى المصرى المطرد . هم الأمة المصرية ، لا أقل ولا أكثر . هم هذه الأمة التى قاومتها إنجلترا ومندوبها السامى مرة ومرة . حتى إذا خيل إلى إنجلترا ومندوبها السامى أن هذه المقاومة قد ألا نت من قناتها ، وفلت من حدها ، تقدمت إليها إنجلترا وتقدم إليها المندوب السامى بغصن الزيتون وراية السلم يبتغيان خداعها عن حقها ، فإذا لم يظفرا عادا إلى المقاومة العنيفة وقتا يقصر أو يطول ، وما يزالان كذلك حتى تقوم أوضح الأدلة — إن لم تكن قد قامت الآن — على أنهما يبغيان أمرا لا سبيل إليه . هؤلاء الخارجون على النظام الذين تقاومهم انجلترا هم الأمة التى قاومتها باللنبى حتى إذا أعيتها المقاومة سالمتها بجورج لويد حتى إذا أيأستها المسالمة ، ولم تحقق لها ما كانت تريد ، قاومتها بجورج لويد نفسه ، حتى إذا لم تظفر من المقاومة

بشيء عزلت جورج لويد وأرسلت برسى لورين يحمل العافية والسلم ، ويتقدم بالصلح والمودة ، وهمت أن تستفيد من هذا كله ، فلما عرفت أن السلم لا يخدع مصر كما أن الحرب لا تخيفها حولت برسى لورين من سلم إلى حرب ، ومن لين إلى عنف ، وأقامته على حرب هذه الأمة ثلاثة أعوام كاملة ، ثم استيأست من الحرب أو ملتها ، وأشفقت من عواقبها ، فهى تريد الآن أن تعود إلى طريق المسالمة لتسلكها من جديد .

هؤلاء الخارجون على النظام الذين تقاومهم الحكومة الإنجليزية ولا تريد أن تشجعهم على إفساد النظام ، وتأخير الرقى هم الذين نهضوا بالحكم مرة ومرة فلم يفسد فى أيامهم نظام ، ولم يتأخر فى أيامهم رقى ، ولم يذق الناس فى أيامهم جوعا ولا حرمانا ، ولم تخضب أرض مصر فى أيامهم بدم المصريين ، ولم يَعْدُ بعض الناس فى أيامهم على بعض كما يعدون الآن ولم يصرع الناس فى أيامهم جهرة على الطريق العام . ولم تفسد أداة الحكم فى أيامهم كما فسدت الآن ، ولم تصبح مرافق البلاد ومصالحها كما هى الآن مظاهر ليس وراءها شيء ، وصورا ليس وراءها حقيقة ، وفنونا للإعلان ونشر الدعوة .

هؤلاء الخارجون على النظام الذين[1] يقاومهم الإنجليز لأنهم يؤخرون الرقى المصرى المطرد لم يفسدوا نظاما ، وإنما أصلحوه ، ولم يؤخروا رقيا وإنما قدموه ، لكنهم على ذلك أو قل لذلك ملومون مبغضون ، لأن إنجلترا - فيما يظهر - لا تريد لمصر نظاما صحيحا ،

(١) المراد حكومة الوفد

ولا رقيا صحيحا . وإنما تريد هذا النظام الذى تحبه هى ونكرهه نحن . والذى يبسط يدها ويد الأجانب على كل شىء فى الجهر حينا ، وفى السر أحيانا . وتريد هذا الرقى الذى تحبه هى ونكرهه نحن ، والذى يجعل مصر ألفاظا لا معانى لها ، ويمسك مصر فى نوع من القصور تشتد معه حاجتها إلى الموظفين من الإنجليز والأجانب ويضطر مصر إلى إحدى اثنتين : فإما أن تريد الإصلاح فتلجأ إليهم وإلى الأجانب . وإما أن تستقل بأمورها فتفسدها وتفتح لهم باب التدخل والاحتجاج . وهؤلاء الخارجون على النظام ملومون مذنبون مسرفون فى الإثم ، لأنهم لم يقروا خزان جبل الأولياء ، ولم يقطعوا على أنفسهم عهدا بتغذية الحكم الإنجليزى فى السودان على حساب مصر . ولم يأخذوا فى التمهيد لخزان تانا ، ولم يصانعوا الشركات الإنجليزية والأجنبية ، ولم ييسروا لها السبل ولم يفتحوا عليها أبواب الأمل ، وهم لهذا كله خارجون على النظام ، وهم لهذا كله مؤخرون للرقى .

على أن الأمر لا يعدو – كما قلنا – أن يكون كلاما لا يدل على شىء فإن اختيار المندوب السامى الجديد بين رجال السلك السياسى ـــ لا يدل بحال من الأحوال على أن الإنجليز يميلون إلى تأجيل المفاوضة أو إرجائها ، فهم قد اختاروا السير برسى لورين من رجال السلك السياسى ، لا ليؤخروا المفاوضة ، بل ليعجلوها ، ولا ليرجئوا المعاهدة ، بل ليسبقوا إليها . فلما أعياهم ذلك وآثروا مقاومة الشعب على إرضائه ، وعلموا أنهم لن يظفروا بمفاوضة منتجة ، ولا

بمعاهدة مستقرة ما داموا يغاضبون الشعب ويؤيدون حكمه على غير ما يهوى ، أجلوا المفاوضة كارهين ، وأرجأوا المعاهدة راغمين . فاختيار المندوب السامى بين رجال السلك السياسى أو بين غيرهم من الناس لا يدل على شيء ، ولا يثبت شيئا . إنما هو كلام يقوله مكاتب الديلى تلغراف السياسى ، لأنه يريد أن يقول شيئا مهما يكن ، لا لأنه يريد أن يصور الحق كما ينبغى أن يكون .

ولم يمض أسبوع واحد على هذا الفصل البديع الذى أكدت فيه هذه الصحيفة نفسها أن السير برسى لورين مقيم فى مصر ، غير مصروف عنها ولا منقول منها ، ولم يكد الناس يبدءون فى قراءة هذا الفصل حتى أذاعت فيهم وزارة الخارجية أن السير برسى لورين قد نقل من مصر .

فخليق بالمصريين ألا يحفلوا بما تكتبه الديلى تلغراف(١) أو غيرها من الصحف الإنجليزية أكثر مما ينبغى ، فقد ظهر أن العبث والاستهانة بالحق ، والميل إلى تلهية القراء قد أصابت كل شيء حتى الصحف الإنجليزية الكبرى التى كانت فيما مضى من الزمان أشدد إيثارا للجد واحتياطا فى القول ووزنا لما تذيع من الأنباء وما تعلق به عليها من التفسير ، فأصبحت الآن كغيرها من الصحف تثبت اليوم وتنفى غدا ، وتؤكد اليوم وتشك غدا . وإذا لم يكن بد من أن يصور المصريون لأنفسهم موقف الإنجليز منهم الآن ، فلعل أصدق تصوير لهذا الموقف أن يقال إن الإنجليز حائرون ، يعلمون حق العلم أنه لا

(١) كانت الديلى تلغراف تعتبر لسان حال حزب المحافظين فى ذلك الوقت

أمل فى توثيق الصلة بينهم وبين مصر إلا إذا لجأوا إلى مصر نفسها .
ويخاف فريق منهم مصر هذه لأنهم يؤثرون المنافع العاجلة على الاتفاق
الشريف . وتضطرب سياسة الإنجليز بين هذا العلم بالحق ، وهذا
الخوف من الحق ، وهذا الإيثار بالمنافع العاجلة الضئيلة . ولولا ذلك
لما علقوا مندوبهم أشهرا ثم نقلوه ، ثم كلفوه العودة إلى مصر ليقيم
فيها أسابيع .

كل هذا دليل على حيرة فى لندرة ، تشبهها حيرة أصدقاء الإنجليز
فى مصر فأما الذين لا يعرفون الحيرة ولا يخافونها ولا يشفقون من
الاضطراب ولا من التخبط ، وإنما يثبتون فى موقفهم أو يمضون
أمامهم فى طريق مستقيمة ، لا عوج فيها ولا التواء ، فهم هؤلاء
الخارجون على النظام ، الذين يقاومهم الإنجليز ، ولا بد من أن
يعودوا إليهم سواء أرضوا ذلك أم كانوا له كارهين .

رجاء[1]

لا أحب التشاؤم ،[2] ولا أحب الاستماع إلى المتشائمين ، بل أنا أكره أشد الكره هذه الأحاديث التى تلقى على الحياة المصرية فى هذه الأيام لونا قاتما حزينا ، أو تريد أن تتنبأ للحياة المصرية فى الأيام المقبلة القريبة أو البعيدة بلون قاتم حزين . وكثيرا ما أغلو فى ذلك حتى أتهم نفسى فى هذا التفاؤل واضطرها إلى موقف وسط بين الرضى والسخط ، وبين حسن الظن وسوء الظن . فلست أشك فى أن حياتنا المصرية لم تصل من السوء إلى مثل ما وصلت إليه فى هذه الأيام . ولست أشك فى أن الحياة السياسية الشاذة التى نحياها هى المؤثر الأول فى هذه الحال السيئة التى نشقى بها ، ولكننى أعتقد أن هذه الحياة السياسية السيئة طارىء مهما يطل ومهما يثقل فلا بد من أن يزول غدا أو بعد غد .

وأعتقد أن فى الأمة المصرية قدرة على المقاومة والصبر ، وعلى الثبات والاحتمال ، ستعصمها من الاندفاع فى هذا الفساد المنكر

---

(١) الأصل « رخاء » ونظن الصواب ما أثبتناه
(٢) ٢٢ - ٨ - ١٩٣٣

الذى لا يرجى له صلاح ، والذى يتحدث به المتشائمون . فأنا إذن أقاوم الغلو فى التفاؤل ، وأقاوم الإغراق فى التشاؤم ، وأرجو أن يكشف عن مصر هذا الضر الذى تلقاه ، وتزال عنها هذه الغمة التى تشقى بها ، ولكن علامات تظهر فى جو مصر الاجتماعى مهما تفعل فلن نستطيع ولا ينبغى لنا أن نهملها أو نقصر فى التفكير فيها والتنبيه إليها ، فقد يظهر أنها نذر تنبىء بشر مستطير .

زعموا أن رجلا أخذته الشرطة عند مسجد من المساجد ، وهو يحاول أن يعرض طفلة للبيع . فلما سئل تبين المحققون أنه إنما كان يعرض هذه الطفلة للبيع متفقا على ذلك مع أمها . فقد رأينا إذن فى القرن العشرين ، وفى مدينة القاهرة ، وعند مسجد من مساجد الله رجلا قد اتفق مع أمّ من الأمهات على أن يبيع ابنتها بثمن بخس دراهم معدودة أو دنانير معدودة . ولكنه بخس على كل حال إذا قدرت قيمة هذا الثمن مهما يكن بالقياس إلى عواطف الأمومة التى لم تمنع امّاً من أن تبيع ابنتها بالمال .

وزعموا أن الأمن قد وصل من الفساد والاضطراب ، وأن السلطان قد وصل من العجز والضعف إلى حيث أصبح الناس يقضون لأنفسهم بأنفسهم ويثأرون لأنفسهم بأيديهم ، ولا يكاد يختصم اثنان فى أمر من الأمور حتى يدخل بينهما المسدس أو البندقية أو السكين ، وبحيث أصبح الناس لا يأمنون أن يجلسوا فى دورهم قد أغلقت عليهم أبوابها فقد يطرق الباب فإذا فتح دخل منه الموت ، أو دخل منه اللص الذى يتخذ الإكراه وسيلة إلى ابتزاز المال ، وبحيث

أصبحت الطريق العامة مخوفة كطرق الصحراء فى أيام البغى والعدوان بين أهل البادية ، يمضى الرجل آمنا مطمئنا ، أو خائفا مروعا ، وإنه لفى طريقه وإذا رصاصة تصيبه من حيث لا يحتسب ، أو هراوة تقع على رأسه من حيث لم يكن قدر ، بل حدثنى بعض الأجانب أمس أنهم خرجوا يتنزهون فى طريق من طرق الضواحى قريب من القاهرة ، فلم يكادوا يخرجون من سياراتهم ويمضون أمامهم قليلا حتى أصابهم وابل من الحصى وصغار الأحجار ، ومن الشتم والسب ، وحتى أشفقوا من شر عظيم إن مضوا فى الطريق ، فعادوا إلى سياراتهم مسرعين ، ورجعوا إلى القاهرة حيث الأمن فيما يظهر أكثر اطمئنانا ، وأشد استقرارا .

وزعموا أن فى مصر مائتى ألف من الناس قد أصابهم السل وعرضهم لنتائجه المهلكة بالطبع ، وان ليس فى مصر إلا مستشفى واحد لعلاج من يلم بهم هذه المرض المهلك . وتحدثوا قبل ذلك وسيتحدثون بعد ذلك عن هذه الأوبئة الفاتكة التى تغشى المدن فتعصف بالفقراء والبائسين . ومهما تبحث عن العلل التى تثير هذا كله فتحمل أمّا على بيع ابنتها ، وتعرض الأمن لهذا الخطر المنكر ، وتدفع السل والأوبئة إلى الفتك بالألوف من المصريين فأنت مضطر إلى أن تجد علة إن لم تكن هى الوحيدة فى هذا كله فهى أعظم هذه العلل آثارا ، وهى الجوع والحرمان .

فأكبر الظن أن هذه الأم لا تبيع ابنتها كرها لها ، وإنما تبيعها لتعيش وأكبر الظن أن الجوع هو الذى يغرى الآثمين من قريب أو بعيد

باقتراف الآثام ، وأكبر الظن أن الحرمان هو الذى يمكن للسل والأوبئة ويسلطها على المصريين .

وقد تكون هناك علل أخرى تظاهر هذه العلة ، ولكن الفقر هو من غير شك أقوى هذه المؤثرات وأشدها نكرا . فإذا أضفت إلى هذا أن إلى جانب هذا البؤس الذى يفسد كل شىء حتى العواطف المقدسة ترفا لا يخلو من الوقاحة والاستهانة بكل حياء ، ولا يتأثر بهذه النار المحرقة التى يصطليها البائسون والمحرومون ، وإذا لاحظت أن هذا الترف لا ينعم به أغنياء الشعب ، فأغنياء الشعب يشقون بالأزمة وتنوء بهم أعباؤها الثقال . وإنما ينعم بهذا الترف فريق من كبار الموظفين الذين أتاحت لهم الظروف السياسية أن يسعدوا برضى الوزراء وعطفهم ونيل المكانة منهم ، وافقتنى على أن من المعقول أن تثور الحفيظة فى نفوس الناس وأن يعرف المصريون شيئا لم يعرفوه من قبل ، وهو سخط البائس على صاحب النعمة ، وبغض المحروم للمترف السعيد

والناس فى مصر يقرءون الصحف ، أو تقرأ لهم الصحف ، وليس يخفى عليهم من أمر الوزراء وكبار الموظفين شىء . فهل يسأل كثير من الناس أنفسهم عن بعض الأنباء التى تنشرها الصحف كيف تقع من نفوس البائسين والمحرومين فى المدن والقرى ، وفى أقصى الريف ، لا تسل عن موقع هذا النبأ الذى أذيع بأن مدير الأمن العام سيمنح علاوة قدرها ثلثمائة جنيه فى العام من نفوس الموظفين كبارا وصغارا ، ومن نفوس الذين يشتغلون بالسياسة اليومية من المعارضين . فهذا

الموقع معروف ، لا غرابة فيه ، ولكن سل عن موقع هذا النبأ من نفوس هؤلاء العمال والفلاحين الذين يلتمسون القوت لأنفسهم وأهلهم فلا يجدونه أو يلتمسون العلاج لأنفسهم وأهلهم من مرض طارىء أو وباء ملم فلا يظفرون به . ولا تسل عن موقع هذا النعيم الذى يستمتع به الوزراء المصطافون فى أوربا ، أو فى الإسكندرية ، وأمثال الوزراء الذين يصطافون هنا وهناك على حساب الدولة أو على حساب أنفسهم ، لا تسل عن موقع هذا من نفس هذه الأم التى أرادت أن تبيع ابنتها ، أو من نفس غيرها من الأمهات اللائى لا يردن بيع أبنائهن ولكنهن يلتمسن لهن أسباب الحياة فلا يظفرن منها بشىء .

ما أجدر المصريين أن يفكروا فى هذه العلاقات التى تظهر فى جو الحياة الاجتماعية المصرية فإنا نخشى فى غير غلو ولا إسراف أن تكون هذه العلاقات مؤذنة بشر عظيم . ولعل من الممكن أن نستدرك هذا الشر بعض الشىء إن فكرنا فيه منذ الآن ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أنه قد يطغى إذا أهملناه ، وقد نجد أنفسنا فى يوم من الأيام أمام داء عضال ليس إلى علاجه من سبيل

عظيم

كان[1] حازما إذا قال أو فعل . كان عازما إذا همّ أو مضى . وكان أبيا إذا سيم الضيم ، عصيا إذا دعي إلى الخسف ، عزيزا إذا أريد على الهوان . جمع الله له قلبا زكيا ، وأنفا حميا ، وضميرا نقيا وخلقا رضيا

ولسانا صيرفيا صارما كحسام السيف ما مسّ قطع

ثم رماه بالأحداث والخطوب فلم تلن قناته ، ولا فلت شباته ، ولا صدعت صَفاته ، ولا صرفته عما رسم لنفسه من طريق . ثم رمى به الأحداث والخطوب فلم تثبت له ، وإنما ولت عنه نافرة ، وانهزمت أمامه ممعنة فى الفرار . وليست الخطوب التى تعترض عظماء الرجال شرا كلها ، وليست الآلاء[2] التى تتاح لعظماء الرجال خيرا كلها . فهذه النعمة السابغة التى يتمها الله على الرجل العظيم نوع من أنواع المحنة ، وضرب من ضروب الفتنة لأنها خليقة أن تغريه بالأشر والبطر ، وتزين له الكسل والفتور . وهذه النقمة

---

(١) ٢٢ - ٨ - ١٩٣٣

(٢) الآلاء : النعم

القائمة التى يمتحن بها الله الرجل العظيم ضرب من ضروب التشجيع ، ولون من ألوان التمحيص ، خليقة أن تعوده احتمال المكروه والصبر للنوائب والتفوق فى مصارعة الأحداث .

وقد ابتلى سعد بالنعم السابغة فلم تفسد عليه من أمره شيئا . وابتلى سعد بالنقم الملحة فلم تفل له حدا ، ولم تضعف له عزما ، ولم تجعل لليأس إلى نفسه العظيمة سبيلا .

أجمع المصريون على حبه وإكباره قبل الثورة لأنه كان زعيم صفوتهم وقائد خلاصتهم إلى مَثَلها الأعلى من الحرية والكرامة ، ومن العزة والاستقلال . إليه أوى قاسم أمين حين كتب « تحرير المرأة » فتنكر له الدهر وأهله ، وبه لاذ محمد عبده وأصدقاؤه القليلون الذين كانوا يمثلون فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن آمال مصر ومُثلها العليا فى الحياة الكريمة الراقية .

وأجمع المصريون على حبه وإكباره إبان الثورة ، لأنه كان يقود الشعب كله إلى هذا الأمل العزيز الذى كان مقصورا قبل الحرب على الخلاصة والصفوة ، ثم شاع بعد الحرب فى الناس جميعا .

ثم اختلف المصريون فيه بعد الثورة فسلمت له كثرتهم الضخمة وعددهم الرائع ، ونهضت له جماعة منهم تقاومه وتخاصمه ، وتحاوره وتساوره ما وسعتها المقاومة والمخاصمة ، وما أطاقت المحاورة والمساوره . وأغريت به أقوى أمم الأرض وأشدها بأسا وبطشا ، وأعظمها حولا وطولا ، وأوسعها سلطانا وملكا . نفته ثم ردته ، ثم

ضاقت به فأبعدته ، ثم عجزت عن أمره فأطلقته . وظل هو طول حياته باسما للنعمة ، باسما للنقمة ، لا تدفعه تلك إلى أشر ولا بطر ، ولا تضطره هذه إلى ضعف ولا وهن . وظل طول جهاده ثابتا لخصومه من مواطنيه ، ساخرا بهذه الكوارث التى كان يسلطها عليه أعداؤه من الأجانب حتى أعيا أولئك وهؤلاء جميعا .

وإذا أولئك يقبلون عليه ، ويضعون أيديهم فى يده ، ويؤمنون له بالزعامة والتقدمة ، ويتعاونون معه على البر والخير والمعروف . وإذا هؤلاء يسعون إليه ويعترفون له بالسلطان على نفس الشعب المصرى وقلبه ، ويسجلون أن ليس لهم إلى إرضاء هذا الشعب سبيل إلا أن يتفقوا مع هذا الرجل . وإذا هو يقضى الشطر الأخير من حياته العظيمة وقد سلم له إجماع الشعب كله على حبه وإكباره . لم يشذ منه أحد ولم يند منه إنسان . وإذا هو قد قهر عدوا عنيفا وخصما عنيدا ، كان لا يزال ثملا بأعظم انتصار عرفه التاريخ فى أعظم حرب عرفها التاريخ .

ثم يقضى هذا الرجل العظيم فتبكيه مصر كلها ، وتجزع لفقده مصر كلها ، لأنها فقدت أعظم أبنائها ، لا فى عصرها الحديث ، ولا فى عصورها الوسطى ، بل منذ فقدت استقلالها فى التاريخ القديم ، ويأسى لفقده الإنجليز الذين خاصموه وقاوموه وضاقوا به وسلطوا عليه ألوان الكيد وفنون العذاب لأنهم فقدوا خصما كريما قد كان يوشك أن يكون لهم صديقا حميما ، وأن يجعل لهم من الشعب المصرى صديقا حميما أيضا .

وكذلك ابتسم الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى ابتسام الدهر عظيما ، وعبس الدهر لهذا الرجل العظيم فلقى عبوس الدهر عظيما . وكذلك عرف هذا الرجل كيف يكون كريما فى المسالمة ، كريما فى المخاصمة ، كريما فى الجهاد ، كريما فى الهدنة . وكيف يذوق البغض كأشد ما يكون فلا يفسده البغض ، وكيف يذوق الحب كأحسن ما يكون فلا يبطره الحب ، وكيف ينصرف عن هذه الحياة وقد ملأ قلوب الأحياء ، وكيف تمضي الأيام والشهور والأعوام على موته فلا تنقص من مكانه فى القلوب ، بل تزيده ولا تضعف من سلطانه على النفوس ، بل تقويه ولا تغرى بذكره النسيان ، بل تذوده عنه وتجعل شخصه ماثلا دائما أمام الشعب المصرى ، وأمام الشعوب الشرقية كلها تلتمس عنده الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، وتتعلم من سيرته الصبر على المحن والفتن ، والجد فى الذود عن الوطن ، والازدراء لكيد الأعداء والثبات لمكر الخصوم .

إنما الرجل العظيم كتاب خالد ، لم يضعه الدهر لجيل بعينه ، ولا لشعب بعينه ، وإنما وضعه للأجيال جميعا ، وللشعوب جميعا . يعرف الناس أوله ولكنهم لا يعرفون له آخرا . لن يعرفوا آخر الكتاب إذا عرفوا موته لأن هذا الموت لا يختم حياة العظماء . ولعله يبدؤها أو يبدأ خير أجزائها وأعظمها غناء ، لأنه يزيل منها العناصر الفانية ويبقى منها العناصر التى لا تقبل الفناء . فإذا عرف الناس أن سعدا قد ولد عام كذا ، ومات عام كذا فإنهم قد بدءا كتاب سعد ولكنهم لن يختموه إلا إذا كان للخلود ختام .

فقد تختلف الخطوب على مصر والشرق ، وقد تلم بهما الأحداث ، وقد يصيبهما الخير والشر ، ويتناوبهما البؤس والنعيم ، ولكنهما سيذكران دائما أن هذا الرجل قد فتح لهما باب الحياة العزيزة الكريمة ، وعلمهما كيف يبتغيان لها الوسائل ويسلكان إليها الطرق ويصبران فى سبيلها لما يفرض عليهما من تضحية وما يلم بهما من آلام .

وستبحث مصر ، وسيبحث الشرق عن عظمة سعد هذه من أين جاءته ، وكيف أتيحت له ، وسيجد أن فى صبره الذى لم يكن يعرف ضيقا بالحوادث ولا إشفاقا منها ، وفى مضائه الذى لم يكن يعرف وقوفا عن السعى ، ولا التواء عن قصد السبيل ، وفى حلمه الذى لم يكن يعرف بطشا بالجاهل حين يقدر على البطش ، وفى غضبه الذى لم يكن يعرف هوادة فى الحق حين يأبى الحق الهوادة على طلابه ، وفى لسانه الذى لم يكن يعرف وقوفا ولا ترددا حين يجب القول ، وفى قلمه الذى لم يكن يعرف اضطرابا حين يجب المضى ، وفى عقله الذى لم يكن يعرف كلالا حين يجب التفكير ، وفى فطنته التى لم تكن تعبأ بمشكلة ولا تفتر عن معضلة ، ولا تعجز عن النفاذ إلى أعماق ما يعترضها من الأمور ، وفى غير ذلك مما يعرفه الناس ومما لا يعرفونه . وأكبر الظن أن الناس لم يعرفوا من أمر هذا الرجل إلا أقله ، لأن حياة العظماء لا يكشف عن أمرها للناس ولا تبدو أسرارها ودخائلها إلا حين يبعد بها العهد ، وحين يتعرض غيرها من حياة الناس لعبث النسيان .

ليذكر المصريون سعدا اليوم ، وليذكروه غدا ، فإنهم لا يحسنون بذلك إلى سعد كما يحسنون بذلك إلى أنفسهم ، فقد انتقل سعد إلى هذه الدار الخالدة التى لا يفيد العظماء فيها من ذكر الناس لهم شيئا ، وإنما يفيد الناس من ذكرهم العظماء ، لأنهم لا يجدون من سيرتهم ما يعلمهم الصبر حين يحتاجون إلى ازدراء الكوارث . وما أشد حاجة المصريين فى كل يوم وفى هذه الأيام خاصة إلى أن يذكروا سعدا ويطيلوا النظر فى سيرته ، ليعرفوا كيف يكون الصبر حين تلم الخطوب ، وكيف يكون الجهاد حين يتألب العدو ، وكيف يكون حسن البلاء حين يطالب الوطن أبناءه بأن يبذلوا ما يملكون من قوة وجهد ، ومن مال وروح ليحفظوا عليه عزته وكرامته وليبلغوا به ما يريد من حرية واستقلال .

لعب

لعب[1] هذا الذى تتورط فيه الوزارة من وقت إلى وقت حين تبرم لتنقض ، وتبنى لتهدم ، وتقدم لتحجم ، وتتخذ القرار اليوم لتلغيه إذا كان من الغد . لعب هذا كله ولكنه لعب خطر على أموال الدولة وهيبة الحكومة وأخلاق الناس . ولو أن الوزارة تورطت فيه عن خطأ أو عن ضرورة ملجئة مرة أو مرتين ، لجاز أن نعتذر لها منه ، وأن نقول كما يقول الفرنسيون : إن مرة واحدة لا تنشىء العادة . ولكن الوزارة لا تقدم على هذا اللعب مخطئة ولا مضطرة ، وإنما تقدم عليه فيما يظهر لأنها تحبه وتهواه ، وتراه أصلا من أصول الحكم ، وفنا من فنون السياسة ، وأسلوبا من أساليب التدبير .

هذا وزير التقاليد[1] يقيم الدنيا ويقعدها ، ويدفع وزارته ويدفع الجامعة معها ، ويدفع معهما البرلمان إلى عمل متصل وجهد عنيف ، ليقلب نظم الجامعة رأسا على عقب ، وليستصدر لها القوانين الجديدة التى تضيق من استقلالها ، وتحد من سلطانها ، وتجعل أهم أمورها

---

(١) ٢٦ - ٨ - ١٩٣٣

(٢) هو محمد حلمى عيسى باشا ، اطلق طه حسين لقب وزير التقاليد

إليه ، لأن الجامعة فيما يقال لم تحسن تدبير استقلالها ، ولا التصريف لأمورها ، فكانت تشط وكانت تجور عن قصد السبيل . فلم يكن بد من أن يقام رئيسها الأعلى وصيا عليها ومسيطرا على شئونها ، يعصمها من الشطط والجور ، حتى إذا صدرت القوانين وأقيم بناء النظام الجديد وتمدح به وزير التقاليد وأصدقاؤه فى حزب الاتحاد ، كان الوزير نفسه أول هادم لهذا البناء ومتجاوز لهذا النظام ، ومحطم لقيود هذه القوانين . والناس لم ينسوا بعد قصة العميد فى كلية العلوم ، تلك الفضيحة التى لا تحتمل إلا فى مصر ، ولا تساغ إلا فى مصر ، فقد اجتمع مجلس الكلية واختار المرشحين لهذا المنصب مصريين جميعا ، وعدل عن العميد الإنجليزى القديم .

وكان حتما على الوزير ، وهو الذى استصدر القانون الجديد ، وضيق سلطان الوزير فى تعيين العميد ، كان حتما على الوزير أن يختار عميد الكلية بين مرشحيها لا يعدوهم ولا يتجاوزهم ، ولا يسعى إليهم بالترغيب والترهيب ليغريهم أو ليخيفهم ، ولكن الوزير لم يفعل شيئا من ذلك وإنما سعى الرسل والسفراء بينه وبين المرشحين ، فلما لم يوفق رسول ولم ينجح سفير دعاهم الوزير إليه فكان حوار بدأ لينا ظريفا ، وانتهى ثقيلا عنيفا . وكانت نتيجته أن نزل المرشحون كلهم أو بعضهم عن حق كان يضمنه لهم القانون ، ودعى مجلس الكلية دعوة سريعة لا يشبهها فى السرعة إلا عودة رئيس الوزراء وصاحبيه بعد نقل المندوب السامى ، واجتمع المجلس فى جو ملكته الكهرباء ، وأدخل المجلس بين المرشحين ذلك العميد الإنجليزى ، وأسرع الوزير

فأهدى إليه هذا المنصب واقتنع المصريون بمنصب الوكيل[1] .

وكان مجلس الوزراء قد اتخذ ألف قرار وقرار يوقف بها الترقيات والعلاوات ، وكان مجلس الوزراء يتجاوز هذه القرارات من حين إلى حين فى شيء من التحفظ والاستحياء ، وكان الناس ينكرون عليه ذلك ويلومونه فيه ، ولكن رئيس الوزراء همّ بالسفر وكان مريضا ، فرق قلبه لكبار الموظفين فاستثنى منهم مجلس الوزراء طائفة صالحة منحها ما شاء الله أن يمنحها من ترقية أو علاوة . وكأن مجلس الوزراء أشفق من فضيحة هذا الاستثناء وكره موقعه من نفوس الموظفين الذين لم تسمح لهم الأيام بهذه المزايا العالية المؤهلة للعلاوة والترقية ، فأظهر فتح الباب على مصراعيه وجعل الاستثناء قاعدة ، وأطمع عددا ضخما من الموظفين فى علاوات ستوزع عليهم فى وقت قريب . وسافر رئيس الوزراء والموظفون بين راض قد ظفر بما يريد ، وطامع ينتظر ما يتكشف عنه الغيب . ومضى الأسبوع والأسبوع ، ثم مضى الشهر والشهر وصغار الموظفين ينتظرون ويطمعون ، والوزارة تمنحهم من حين إلى حين وعدا ، وتظهر لهم من حين إلى حين ميلا إلى البر والوفاء . ومازال الموظفون ينتظرون إلى الآن ، ولكن مدير الأمن العام لم ينتظر أو لم يطل انتظاره ، فقد طلبت له العلاوة ، فما أسرع ما قبلتها المالية ، وما أسرع ما وثب مدير الأمن العام من مائتين وألف إلى خمسمائة وألف .

---

(١) طلبت دار المندوب السامى الإبقاء على العميد الإنجليزى

ورق المساعد لمدير السكك الحديدية استثناء ترقية فعلية إلى الدرجة الأولى فى أكتوبر سنة ١٩٣١ ، ثم زيد مرتبه استثناء سنة ١٩٣٢ ، ثم يقال إن مجلس إدارة السكك الحديدية كان ينظر صباح اليوم فى أن يمنحه استثناء علاوتين اثنتين ، ونظن أننا الآن فى سنة ١٩٣٣ ، ومعنى هذا أن هذا الموظف الكبير قد عقد اتفاقا مع الاستثناء على أن يلقاه مرة فى العام ، وأن الوزارة قد شهدت على هذا العقد وأمضته وأعانت وما زالت تعين على أن ينفذ تنفيذا دقيقا . فإذا شئت أن تتلمس اسما لهذا النحو من تدبير الوزارة لأموال الدولة وتوزيع الوزارة للقرارات الحازمة الصارمة ، ونقض الوزارة لهذه القرارات بالقياس إلى فريق دون فريق من الموظفين ، واستصدار الوزارة للقوانين وخروج الوزارة على هذه القوانين ولما يمضى على صدورها أسابيع ، إذا شئت أن تلتمس اسما لهذا النحو من التصرف فإنك واجد أسماء كثيرة ، أخفها وأيسرها اللعب .

ولسنا نكره للوزارة أن تلعب فاللعب حق للناس جميعا ، وإنما نحب أن يكون لعب الوزارة بريئا لا يسىء إلى أموال الدولة ، ولا يسىء إلى هيبة الحكومة ، ولا يسيىء إلى أخلاق الناس . والوزارة توافقنا من غير شك على أن هذه التصرفات التى ضربنا لبعضها الأمثال ، ليس من شأنها أن تعصم أموال الدولة من التبذير . فمهما يكن مدير الأمن العام ومساعد مدير السكك الحديدية ، ومهما يكن حظهما من الكفاية وإحسانهما إلى الدولة ، فإن الوقت الذى نحن فيه لا يسمح بزيادة المرتبات لا سيما إذا كانت هذه الزيادة قائمة على

الاستثناء المتكرر ، وعلى المخالفة الصارخة للقرارات التى اتخذها الوزراء أنفسهم .

والوزارة توافقنا على أن الناس كثيرا ما يتخذون الحكومة قدوة لهم فيما يأتون من الأعمال . فإذا اتخذها الناس قدوة لهم ، فإنهم سيؤثرون التردد على الثبات ، واللعب على الجد ، والإسراف على القصد والعبث بالمال على الاحتياط فى إنفاقه ، والمحاباة على الإنصاف . وكل هذا مفسد لأخلاقهم ، دافع لهم إلى الشر فى حياتهم الخاصة والعامة .

أفلا تفكر الوزارة فى هذا كله فتأخذ نفسها بشىء من الجد ولو قليل فإذا عجزت عن هذا التفكير فهل يعجز البرلمان عن أن ينبهها إليه ويحثها عليه ؟ فإن عجز البرلمان عن ذلك ، فهل يعجز الإنجليز المحايدون عن أن يشيروا من طرف خفى دون خروج على الحياد طبعا ؟

إن هذا العبث ليس من شأنه أن يعين على بقاء الوزارات أكثر من ثلاثة أعوام . ومن يدرى ؟ لعل الإنجليز قد أشاروا إلى ذلك ، ولعل نقل المندوب السامى فن من فنون هذه الإشارة . فان الإنجليز مهرة فى هذه الفنون .

دائـــرة

حُصرت(١) فيها المسألة المصرية منذ عشر سنين ، كما يقول مكاتب الأهرام من لندرة . فنهض الوفد بأعباء الحكم ثم تركها . ونهض بها مناوئوه ثم عادت إليه ، ثم ردت إلى مناوئيه ثم عادت إليه ثم ردت إلى مناوئيه ، وهى الآن ما تزال على أكتافهم الضعيفة التى لا تستطيع لها احتمالا . وأظهر الإنجليز مسالمة الوفد ثم خاصموه ، ثم عادوا إلى المسالمة ، ثم عادوا إلى الخصام ثم عادوا إلى المسالمة مرة أخرى ، ثم عادوا إلى الخصام ، وهم الآن غارقون فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان . وفى أثناء هذا الدوران ذهب مندوب وجاء مندوب ، ثم أصابه العزل وجاء مكانه مندوب آخر ثم دهمه النقل وعين مكانه مندوب جديد ، وهو الآن فى الصين يتهيأ للرحلة إلى وادى النيل .

والخصومة بين مصر وإنجلترا ما زالت قائمة كعهدها يوم شبت الثورة بعد الحرب الكبرى ، يريد المصريون أن يستقلوا استقلالا صحيحا ، ويريد الإنجليز أن يخدعوهم عن هذا الاستقلال ، أبوه عليهم أول الأمر ، ثم ظهر أن الإباء لا يجدى ولا يفيد فاعترفوا به

(١) ٢٨ - ٨ - ١٩٣٣

ونزلوا عن شكله وصورته ، ومازالوا منذ ذلك اليوم يدورون فى الدائرة التى رسمها مكاتب الأهرام فأحسن رسمها ، ولا يجدون إلى تحقيقها سبيلا .

والانجليز قوم يحبون الصبر والمصابرة ، ويتخذونهما أساسا للسياسة فى الشرق ، وفى غير الشرق . واليأس بطىء جدا حين يسعى إليهم ، أو يحاول التأثير فى سياستهم ، ولكنهم لم يعصموا منه ، ولم يأخذوا على الأيام عهدا بأن تقطع بينهم وبينه الأسباب ، فهم قد احتلوا مصر منذ أكثر من نصف قرن ، وحاولوا أن يسلطوا بطشهم على نفوس المصريين ليخافوهم ويؤمنوا لهم فلم يفلحوا ، وخلطوا شدة بلين ، وعبوسا بابتسام فلم يفلحوا وأعلنوا الحماية وأقرتهم عليها الدول ، وأيدوها بالحديد والنار ، وسفكوا فى سبيل تأييدها دماء زكية غزيرة ، وأزهقوا فى سبيل تأييدها نفوسا نقية كثيرة فلم يفلحوا ، ثم جنحوا إلى السلم فاستردوا حمايتهم ، وأعلنوا لمصر استقلالها ، ومازالوا منذ ذلك اليوم يدورون ، يبطشون مرة فلا يفلحون ، ويلينون مرة أخرى فلا يفلحون . والمصريون ينظرون إليهم فى هذا كله مبتسمين ابتسام المؤمن بالحق المطمئن إليه الواثق بالفوز آخر الأمر فوزا ليس إلى الشك فيه من سبيل . ومهما تبحث فى هذه الخصومة الطويلة بيننا وبين الإنجليز فأنت منته دائما إلى نتيجة واحدة ، وهى أن الإنجليز إن كانوا قد ظفروا بكثير من المنافع العاجلة الزائلة فإن موقفهم من مصر اليوم كموقفهم من مصر قبل نصف قرن ، لم يتقدم خطوة واحدة ، بل لعله تأخر خطوات ، فقد احتلوا

مصر وهى خاضعة لسلطان الترك ، ومازالت الحوادث تعمل والمصريون يعينونها على العمل حتى خلصت مصر من السلطان التركى . وقد هَمّ الإنجليز أن يخلفوا الترك ولكنهم لم يفلحوا ، واضطروا إلى أن يعترفوا بأن موقفهم لا يزال كما كان من قبل ، موقف المحتل الغاصب الذى عجز عن أن يجعل غصبه أمرا مشروعا .

فإذا كان أحدَ قد انتفع من هذا الصراع الطويل بين هذا الشعب المصرى الأعزل الضعيف الذى اصطلحت عليه الخطوب وتألبت عليه الدول ، وبين هذا الشعب الإنجليزى العظيم الذى ساد الأرض بقوته ومكره وثروته ، فليس من شك فى أن المصريين إلى الآن هم الفائزون وهم مدينون بفوزهم هذا لأنفسهم ، لا لشىء آخر ، هم مدينون بفوزهم لهذا الحرص الطبيعى على عزتهم وكرامتهم . ولهذا الإلحاح الطبيعى فى حريتهم واستقلالهم . فهم قد عرفوا أنفسهم منذ أقدم عصور التاريخ شعبا كريما ، وعرفهم الناس كذلك شعبا كريما .

وهم قد خضعوا لضروب من البغى وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان والرومان ، وجاءتهم أيضا من العرب والترك والفرنسيين . وجاءتهم الآن من الإنجليز ، وهم قد صبروا لهذا كله وانتصروا على هذا كله ، فردوا من ردوا من المعتدين ، وأفنوا فى أنفسهم من أفنوا من هؤلاءالمعتدين . فليس غريبا أن يثبتوا للإنجليز أكثر من نصف قرن كما ثبتوا لغيرهم . وليس غريبا أن يخلصوا من الإنجليز بعد طول الصراع كما خلصوا من غيرهم . وإنما الغريب ألّا يعتبر الانجليز بالحوادث ، ولا يستفيدوا من العظات ، ولا يقدروا أنهم لن يظفروا الآن بما عجزوا عنه فى القرن الماضى .

فمصر الآن أرق وأقوى وأعرف لحقها ، وأحرص عليه مما كانت فى بدء الاحتلال ، ومما كانت بعد الحرب ، ولا تزيدها الأيام إلا معرفة لهذا الحق ، وحرصا عليه ، وتشددا فيه ، وجدا فى السعى إليه . الغريب أن الإنجليز لا يزالون يخيلون إلى أنفسهم أنهم قادرون على إذلال هذا الشعب ، واصلون إلى خداعه والعبث به بعد أن أقامت لهم الأيام والحوادث أوضح الأدلة على أن هذا شىء لا مطمع فيه . وأغرب من هذا أن هؤلاء الانجليز لا يخدعون أنفسهم ، وإنما يخدعهم فريق من طلاب المنافع وذوى الأغراض والمآرب ، يخيل إليهم أن البضاعة حاضرة وأن تسليمها أمر يسير ، فيسمعون لهم ويمدونهم بالقوة والتأييد ، ويدفعونهم إلى الحكم دفعا ، ويظاهرونهم على ظلم الشعب والبطش به ، وينتظرون منهم تسليم البضاعة ، فلا يسلمون إليهم إلا خيبة وفشلا ، وإلا خذلانا وإخفاقا ، ولولا انخداعهم بهذا الفريق من الضعفاء ، وأصحاب المنافع لما داروا وأطالوا الدوران فى هذه الدائرة التى رسمها مكاتب الأهرام منذ عشر سنين .

والغريب أن قد خيل إلى الإنجليز فى أول هذا العهد السعيد أنهم قد أوشكوا أن يخرجوا من هذه الدائرة بفضل الكفاية النادرة والبراعة الباهرة والمقدرة الساحرة التى امتاز بها رئيس الوزراء ، فانتظروا عاما غير فيه النظام ، وعاما أنفذ فيه النظام الجديد ، وعاما آخر مضى فيه تنفيذ النظام الجديد ، ولكنهم انتظروا ومازالوا ينتظرون ولم يظفروا بشىء .

وواضح جداً من حديث مكاتب الأهرام ــ ومن غير هذا الحديث أن الإنجليز كانوا يقدرون أنهم سيفوزون على مصر هذه المرة

بالصبر والمصابرة ، وبالبطش والإلحاح فيه ، وكانوا يظنون أن اعتزال الشعب المصرى تحت الخيمة كما فعل أخيل ، وامتناع الشعب المصرى عن الأشتراك فى الانتخابات أمرا لن يطول ، ولا بد آخر الأمر من أن يخرج الشعب من خيمته ، ويذعن للسلطان الذى فرض عليه ، ولكن عاما مضى وتبعه عام ، ثم تبعهما عام آخر ، وبدأ العام الرابع دورته والحوادث تختلف والخطوب تلح ، والعسف يعبث بالأخلاق والأجسام ، والفقر يفتك بالموسرين والمعسرين ، والشعب تحت الخيمة مقيم لا يريم ، ولا يفكر فى أن يخرج منها ، ولعله لم يكن فى يوم من الأيام أشد احتفاظا بموقفه واستمساكا بإبائه منه فى هذه الأيام ، ولعله أن يكون غدا أشد منه اليوم احتفاظا بهذا الحق واستمساكا بهذا الإباء .

لذلك يئس الإنجليز من سياسة هذا العهد السعيد ، واضطر الانجليز إلى أن يستأنفوا الدوران الذى كانوا فيه فنقلوا مندوبا ، وعينوا مندوبا ، وبدءوا يدورون . وليس يعنينا بحال من الأحوال ما سيلقونه فى طريقهم من العقبات أو يعترضهم من المصاعب ، فلسنا نحن الذين رسموا لهم هذه الدائرة ، ولم نكرههم نحن على أن يدوروا فيها ، وإنما هم الذين يجدون فى الدوران وتجاربه لذة ، فليدوروا إذن ، وليجربوا وليؤيدوا الوزارة القائمة تأييدا حازما أو رخوا ، وليزهدوا فى هذه الوزارة وليؤيدوا وزارة أخرى تشبهها من قريب أو تشبهها من بعيد ، وليلزموا حيادهم الدقيق كما لزموه إلى الآن ، أو ليلزموه فى شكل جديد يجعل تدخلهم فى شئون مصر أظهر

وأصرح ، فليس يعنينا من هذا كله شيء إلا أن نرى ونبتسم واثقين بأنهم سيدورون ويدورون ، ويجربون ويجربون ، ثم ينتهون دائما إلى حيث بدءوا ، لا يجدون مخرجا من هذه الدائرة إلا أن يعدلوا عن سياسة الدوران إلى سياسة المضى على الصراط المستقيم والاتفاق الشريف النقى البرىء من كل غدر ومكر أو إضمار للغدر والمكر مع المصريين .

ما أكثر الفروض ، وما أحب الإنجليز لها ، وأرغبهم فيها . أيقدر رئيس الوزراء على أن يحتمل أعباء منصبه دهرا طويلا فيبقى ، أم يعجز رئيس الوزراء عن ذلك فيستقيل ؟ وإن استقال فمن أين يختار خلفه ؟ أمن اقصى اليمين أم من أقصى الشمال أم من فريق وسط بين بين ؟ ومتى يكون هذا ؟ اقبل عودة المندوب السامى القديم أم أثناء إقامته القصيرة أم بعد وصول المندوب الجديد ؟

فروض كثيرة ولكنها لا تغنى من الحق الواقع شيئا . والحق الواقع الذى لا يحتمل شكا ولا جدالا هو أن الإنجليز وأصدقاءهم حائرون . وأن لا مخرج لهم من هذه الحيرة إلا بالعدول عن الدوران ، واستقبال هذا الشعب المصرى الثابت الصريح بسياسة ثابتة صريحة . فأما ما دون ذلك فعبث كهذا العبث الذى نحن فيه منذ عشر سنين . ومن المحقق أن هذا العبث يغيظ الإنجليز ويسىء إليهم وإلى سمعتهم فى العالم وهيبتهم فى الشرق بمقدار ما يحسن إلينا فيزيدنا ثقة بالحق ويظهرنا للعالم والشرق مظهر الذين يعرفون كيف يلقون الخطوب وهم باسمون .

نجـدة

إذا[1] قويت الوزارات ، آثرت الصراحة والحزم فى القول والعمل . وإذا ضعفت الوزارات ، لجأت إلى الحيلة والالتواء فيما تعمل أو تقول . ويظهر أن وزارتنا قوية ، أشد القوة ، عزيزة أشد العزة ، ولكن قوتها تسمى ضعفا فى غير مصر ، وصراحتها تسمى التواء ، وحزمها يسمى حيلة ومداورة . وقد قلنا غير مرة إن للأمور العامة وضعين مختلفين ، أحدهما هذا الوضع القديم المألوف الذى تسمى فيه الأشياء بأسمائها ، هو هذا الذى نشهده فى بلاد الأرض كلها ، والآخر هذا الوضع البديع الشاذ الذى تسمى فيه الأشياء بنقائضها ، وهو الذى نشهده فى بلدنا السعيد . فنحن أحرار ولكننا لا نستطيع أن نقول ولا أن ننتقل ولا أن يلقى بعضنا بعضا ، ولا أن يجتمع بعضنا إلى بعض فى حفل عام أو خاص إلا إذا أذنت الوزارة ورضيت .

والوزارة تأذن وترضى ولكن لأصدقائها وأنصارها . فأما خصومها فذلك شىء ليس لهم أن يستمتعوا به أو يفكروا فيه . ونحن

---

(١) ٢٩ - ٨ - ١٩٣٣

آمنون ولكن جرائم القتل والشروع فى القتل يذاع بعضها كل يوم ، فإذا هو مروع مخيف أشبه بما تشتمل عليه بعض البلاغات الرسمية حين تصور خسائر الأعداء من القتلى والجرحى فى بعض المواقع الحربية المنظمة . فقد كانت خسائر مصر يوم كذا خمسة عشر أو ستة عشر أو أربعة عشر ، منهم القتيل ومنهم الجريح المشرف على الموت ، ومنهم الجريح الذى يرجى له الشفاء . ولا تذكر السرقات ، ولا تذكر خطف الأطفال ، ولا تذكر الاعتداء على الزرع .

فكل ذلك شيء لم يبق له خطر . ونحن موسرون ولكن امرأة تكلف من يعرض ابنتها للبيع ، ورجلا يعجز عن أن يعول أهله وفيهم زوجته وأطفاله فيصب عليهم الزيت ويشعل فيهم النار . ونحن مدبرون ولكن الدول الأجنبية تأبى أن تجيبنا إلى فرض الضرائب على رعاياها ، لأنها ترى من إسرافنا وتبذيرنا وإلقائنا للمال باليمين والشمال ما يقنعها بأننا أغنياء ، فلا ينبغى أن نشق على سادتنا الأجانب بفرض الضرائب عليهم والتسوية بينهم وبين عبيدهم المصريين .

ونحن أعزة فى بلادنا ، ولكن طائفة من الأجانب يعتدون على ديننا وأخلاقنا وأعراضنا سرا وجهرا ، فإذا حاولنا أن نردهم عن ذلك أو نحول بينهم وبينه قامت من دونهم قوى خفية أخرى ظاهرة فردتنا نحن وصدتنا ، وقالت إياكم وفرض الرقابة على هؤلاء الناس حتى تنظم لكم هذه الرقابة تنظيما برأى الإنجليز وبعد استئذان المبشرين .

وعلى هذا النحو تجرى أمورنا كلها معكوسة مقلوبة ، والناس عنها راضون ، وإليها مطمئنون . ومنهم من يفاخر بها ويتخذ منها الأدلة

الواضحة على هذا الشأو البعيد الذى قطعناه فى سبيل الحرية والاستقلال ، وعلى هذا المنزل الرفيع الذى نزلناه من التقدم والرقى حتى كدنا نبلغ الكمال . ونحن بالغوه من غير شك فى أمد قريب جدا متى فرغ رئيس الوزراء من الاصطياف والاستشفاء . فليس غريبا إذن أن تكون وزارتنا قوية ، وإن سمى الناس فى غير مصر قوتها ضعفا ، وأن تكون وزارتنا صريحة حازمة وإن سمى الناس فى غير مصر صراحتها التواء ، وحزمها ضعفا واستسلاما .

والغريب أن وزارتنا لم تكتف بأن تكون وحدها قوية صريحة حازمة على هذا النحو المصرى الخاص الذى استحدثته مصر فى ظل رئيس الوزراء ، بل أخذت تكوِّن لنفسها تلاميذ فى هذه القوة البديعة ، وفى هذه الصراحة الطريفة ، وفى هذا الحزم الغريب ، وأى تلاميذ ؟ تلاميذ لم يحلم بتكوينهم موسولينى ، ولم يفكر فى تكوينهم هتلر . وما ينبغى لهما أن يحلما بذلك أو يفكرا فيه ، فإن الله لم يمنحهما القدرة على إحداث المعجزات . هما قادران على أن يعلما الناس . أما وزارتنا فقادرة على أن تعلم الزمان والظروف والأحداث . وإذا أصبح الزمان تلميذا لوزارة من الوزارات ، وإذا حرصت الظروف والأحداث على أن تقلد وزارة من الوزارات وتتلقى عنها الدروس ، فليس من شك فى أن هذه الوزارة هى آية الآيات ، ومعجزة المعجزات ، ومصدر العجب الذى لا ينقضى . ويجب أن نكون منصفين وأن نرد الحق إلى أهله ، فإن هذه البراعة لم تقدر لرئيس الوزراء على كفايته النادرة ونبوغه الرائع ، ولا لوزير

التقاليد على ذكائه الفذ وفطنته التى ليس لها نظير ، ولا لأحد من زملائهما السابقين واللاحقين ، إنما اختص الله بها واحدا منهم ، جعلها وقفا عليه ، لا يشاركه فيها شريك ، وهو وزير داخليتنا العظيم .

لم يكد يرقى إلى منصبه الفخم حتى استحدث فى المحافظة على الأمن والنظام ، وفى مصادرة الحرية أسلوبا لم يعرفه أحد من قبل ، وهو إلغاء المشكلات ومحو المعضلات حتى لا يتكلف التعب والمشقة فى حلها ، وعلى هذا النحو جعل وزير داخليتنا الخطف فنا من فنون الحكم وأسلوبا من أساليب السياسة ، وسبيلا إلى الراحة والاطمئنان .

رأى رئيس الوفد فى قنا وقداحتشد له الناس يحيونه ويكرمونه ويلزمونه ، فهو يكره منهم ذلك ، وهو يأبى أن يتعب نفسه ويتعب الدولة ويتعب الناس بتفريق هذه الجموع كما ألف الوزراء الذين سبقوه أن يفرقوها ، فيعمد إلى الخطف فيلغى الإشكال ويريح الناس جميعا ويختلس رئيس الوفد اختلاسا ، ويرده إلى القاهرة فى أقصر وقت ممكن ، وفى أسرع قطار ممكن . والزمان يرى ويتعلم ، والظروف تنظر وتستفيد ، والحوادث تشهد وتحاول التقليد . وما علمنا على الزمان غباوة ولا لاحظنا على الظروف بلادة ولا أنكرنا على الحوادث تقصيرا ، فمالها كلها لا تنتفع بهذا الأستاذ الفذ ، ولا تستفيد من هذه الدروس البارعة ؟ ومالها لا تتعلم الخطف ولا تتخذه وسيلة لإزالة المشكلات وإلغاء المعضلات فتريح نفسها ،

وتريح أصدقاءها أيضا ، وأصدقاؤها هم الوزراء . ودعائم الحكم فى مصر ، قد تم بينها وبينهم عهد للتعاون والتظاهر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وقد عرضت فى هذه الأيام مشكلة عنيفة ، ومعضلة دقيقة ، اختلط فيها الدين بالسياسة ، واصطدمت فيها المنفعة بالقانون ، وظلت تتعقد حتى لم يبق إلى حلها من سبيل ، وهى مسألة نظلة غنيم . أحكام قضائية شرعية واجبة التنفيذ ، وحكم من المجلس الإنجيلى يراد له التنفيذ ، وتنصر بعد إسلام ، ثم إسلام بعد تنصر ، ثم تنصر بعد إسلام ، واتصال بالمبشرين ، واتصال بالمصريين ، واضطراب من الشمال ، واضطراب من اليمين ، ونوائب تنجم من الأرض ، وأخرى تهبط من السماء . وموقف لا خلاص منه ولا محيد عنه إن رضى القانون غضب الأجانب ، وإن رضى الأجانب غضب القانون . إن رضى القانون رضى المصريون وعبس الإنجليز ، وإن رضى الأجانب غضب القانون وابتسم الإنجليز . فحدثنى أين هى الوزارة التى تستطيع أن تواجه هذا الموقف المعقد بشىء إلا بالإلغاء . ولكن وزارتنا أحرص على القانون والنظام واحترام الأحكام من أن تتردد أو تضعف فهى إذن مذعنة لحكم القضاء ، منفذة لأمر النائب العام إلا أن يتيح الله لها فرجا من حرج ، وسعة من ضيق ، وهنا ينفع الصديق . وأى صديق يشبه الزمان ؟ وأى صديق يشبه الظروف والأحداث ؟ وأى صديق أنفع وأجدى من صديقك الذى تعلم عليك فاستمع إليك وتخرج من مدرستك ؟

هنالك أقبل الزمان يسعى ماكرا ومن حوله الظروف والأحداث قد اتخذت صورا مختلفة ، وأشكالا متباينة ، منها ما يطير فى الهواء ، ومنها ما يمشي على اثنتين ومنها ما يمشي على أربع ، ومنها ما يزحف على الأرض زحفا . فلما وصل هذا الجيش الغريب من الأصدقاء والتلاميذ إلى نظلة غنيم خطفها ، وعصف بها عصفا ، وحذفها من مصر حذفا . وهمّ وزير الداخلية أن ينفذ الأحكام ويرضى النائب العام فنظر ثم نظر فلم يجد لنظلة غنيم فى مصر حقيقة ولا صورة ، ولا عينا ولا أثرا ، ولا طعما ولا ريحا . فأرسل أعوان الأمن وجنود النظام يطوفون فى الأرض ويتحسسون فى الأقاليم ، ينظرون إلى فوق وينظرون إلى تحت ويديرون أبصارهم ورءوسهم فلا يجدون شيئا ، ولا يحسون شيئا . فويل لنظلة غنيم وزوجها يوم تصل إليهما يد الوزارة ، ويظلهما سلطان الوزارة . يومئذ يكون التفريق وأى تفريق . ويومئذ يكون الضم وأى ضم . ولكن لننتظر فإن عفريتا من الجن قد أخفى هذين الشخصين الآن فإذا ظهرا ـــ ولا بد أن يظهرا ـــ فستنفذ الأحكام ويرضى النائب العام ويحترم القانون والنظام ويطمئن حماة الإسلام . وإلى أن يأذن الله بتحقيق هذا كله يحسن الصبر والانتظار ، وقد ضمن الله أجزل الثواب للذين يعرفون كيف يصبرون ويصابرون ، ويتجنبون العجلة التى هى من جند الشيطان .

اطمئنان

[إن مركز الوزارة الصدقية[1] لم يكن فى وقت من الأوقات أقوى وأمتن مما هو الآن ، فهى تتمتع بعطف جلالة الملك ورعايته كما تتمتع فى الوقت نفسه بثقة البرلمان التامة] .

[على أن أحوالا وظروفا خاصة قد تفضى إلى تعديل فى الوزارة ، إذ ليس ثمة وزارة يمكن أن تبقى فى مركزها على الدوام] .

لا بأس على رئيس الوزراء من أن يجمع بين هذين النقيضين فى حديث قصير جدا ، تقرؤه فى دقيقتين اثنتين . فرئيس الوزراء متعب لا جناح عليه إن جمع بين النقائض ، ورئيس الوزراء نابغة لا حرج عليه أن يجمع بين النقائص .

والواقع أن التأليف بين الأضداد ، والجمع بين النقائض شىء لم يبحه الله إلا للمتعبين الذين يعييهم التفكير المستقيم ، أو النابغين الذين يخرجون من أطوار الناس ويتحدثون بما لا يفهم ولا يحتمل التفسير .

---

(١) ٣٠ - ٨ - ١٩٣٣

ورئيس وزرائنا نابغة ما فى ذلك شك ولا ريب . ورئيس الوزراء كان مريضا وقد برئ من هذا المرض والحمد لله ، ولكنه متعب مكدود ما فى ذلك شك . وآية ذلك ـــ إن كنت فى حاجة إلى آية ـــ إن الأخبار قد استفاضت به فلم ينكره أحد ، وأن الإجماع كان قد انعقد على أن رئيس وزرائنا سيتقبل فى حفل عظيم ، وسيلقى خطبة سياسية جامعة حين يعود سالما موفورا إن شاء الله . ثم أصبحت خطبته السياسية شكا من الشك ، ولونا من ألوان الريب . ثم أقبل سكرتيره يتقدمه بأسبوع عجلان مسرعا ، فزار أشخاصا بارزين من أساطين العهد السعيد ، ولم يمض على مقدمه ليل كامل – نستغفر الله – بل ساعات حتى أصبح الحفل العظيم شكا من الشك ، ولونا من ألوان الريب ، وقيل إنه أجِّل ، إلى غير أجل وكانت الوفود قد هيئت وأخذت تحزم أمتعتها فيقال لها : مكانك تحمدى أو تستريحى .

وكانت الخطب قد حبرت أو أخذ فى تحبيرها فسيقال لها : انحلى انحلالا ، وليذهب كل لفظ من ألفاظك إلى حيث كان ، وليذهب كل معنى من معانيك إلى معدنه الكريم الذى خرج منه ، فلا استقبال ولا احتفال ولا استباق فى حلبة الفصاحة والبيان ، لأن رئيس الوزراء متعب يريد أن يستريح فلا ينبغى أن يُشَق عليه ، ولأن رئيس الوزراء قد برئ من مرضه ولكنه حريص ، ومصر حريصة معه على أن يقف ما أنعم الله به عليه من الصحة لتصريف الشئون العامة ، واستنقاذ البلاد من هذه الأخطار المحدقة التى تأخذها من كل مكان .

رئيس وزرائنا نابغة ما فى ذلك شك ، ورئيس وزرائنا متعب ما فى ذلك شك . ولأحد هذين السببين أو لهما جميعا استطاع رئيس وزرائنا أن يلائم بين الأضداد ، ويجمع النقائض ، ويعلن إلى مكاتب الأهرام أمس أن مركز الوزارة الصدقية لم يكن فى وقت من الأوقات أقوى وأمتن مما هو الآن .

ويعلن إلى مكاتب الأهرام فى الوقت نفسه وفى الحديث نفسه أن أحوالا وظروفا خاصة قد تفضى إلى تعديل فى الوزارة ، إذ ليس ثمة وزارة يمكن أن تبقى فى مركزها على الدوام .

فالوزارة إذن قوية إلى غير حد ، ومركزها متين إلى غير حد ، ولكنها مع ذلك قد تعدل لأن بقاء الوزارات على الدوام فى مركزها أمر لا سبيل إليه . كلام يفهمه المتعبون أو يفهمه النابغون . أما أنت فلست متعبا ولا نابغة ولست أنا أشد منك تعبا ولا أدنى منك إلى النبوغ ، فلنا العذر كل العذر إذا لم نفهم هذا الكلام على وجهه ، ولم ننته منه إلى النتيجة التى أرادها صاحبه ، وهل أراد صاحبه شيئا ؟ مثلى ومثلك من الذين أعفاهم الله من المرض والتعب إلى حين ، ولم يتح لهم التفوق والنبوغ ، إذا سمع مثل هذا الكلام هز رأسه ورفع كتفيه ومد شفتيه مغضبا لمخالفة أحكام العقل ، أو قبض شفتيه باسما للخروج عن أصول التفكير المستقيم ، ثم غشيت وجهه سحابة رقيقة فيها ألم للمتعبين وإعجاب بالنابغين ، لأن الوزارة القوية إلى غير حد ، المتينة إلى غير حد ، التى لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى الآن ، لا تحتمل تعديلا ولا تبديلا ، ولا تتعرض لتغيير أو تحوير ، وإنما تفرضها قوتها على الناس والأيام والظروف فرضا حتى يأتيها الضعف من بعض نواحيها . فإذا أتاها هذا الضعف لأن رئيسها مريض قد

طال مرضه ، أو لأن سياستها قد أخفقت إخفاقا معيبا ، أو لأن صديقا من أصدقائها الأعزاء قد اضطر إلى الرحلة منقولا أو معزولا ، فهى حينئذ محتاجة ، لا إلى ما يسميه الناس التعديل ، بل إلى ما يسمونه التغيير ، لا إلى ما يسميه الناس تبديلا فى بعض الأشخاص ، بل إلى ما يسمونه استقالة ، وقيام وزارة أخرى مقامها . وكل شىء يدل عندك وعندى وعند أمثالنا من الذين لا يزال الله يحفظ عليهم شيئا من الصحة ويحرمهم نصيبا من النبوغ ، على أن وزارتنا فى موقف من هذه المواقف الذى يجعل التغيير والاستقالة أمرا لا بد منه ، وحتما لا منصرف عنه . فرئيس وزرائنا قد طال عليه المرض وهو قد برىء منه الآن ولكن ليستريح ، لا ليستأنف النشاط السياسى فورا .

وسياسة وزارتنا قد أخفقت إخفاقا معيبا ، فلا هى كسبت خصومها بحسن السياسة ، أو بالإغراء ، ولا هى قهرت خصومها بسعة الحيلة أو بالإسراف فى البطش وألوان العنف ، وإنما هى اليوم كشأنها يوم قامت منذ أكثر من ثلاثة أعوام أمام شعب قوى حازم ، لا يعبث الآن كما لم يكن يعبث من قبل فى مطالبته بالحق وإلحاحه فيه وحرصه على أن يحكم كما يريد هو ، لا كما يريد غيره مهما يكن من الناس .

نعم ، وأخفقت الوزارة فى غير ذلك مما عرضت له من الشئون ، فالأزمة تشتد وتشتد حتى تكاد تضطر الشعب كله إلى الجوع . والأمن يختل حتى يكاد يضطر الشعب كله إلى الاستخفاء إذا كان الليل . والأجنبى يطغى حتى يعبث فريق من المبشرين فى غير حرج ولا جناح بأبناء الشعب وبناته ، وحتى تتألب أوربا علينا الآن لتكرهنا على أن نؤدى فوائد الدَّين ذهبا ، لاورَقا ، مع أنها تخلصت

هى من عبء الذهب ، ومن دونها من تخلص من عبء الدين كله أو بعضه ، وحتى أصبحنا غرباء فى بلادنا ، تعبث بنا الشركات كما تريد ، وتضطر عمالنا إلى الجوع والسؤال . والوزارة تنظر إلى ذلك باسمة مطمئنة ، والقوانين تشرع ثم لا تحترم ، بل يتجاوز الوزراء أنفسهم حرمات هذه القوانين . والموظفون يشهدون من ألوان المحاباة والإيثار ما يفسد عليهم كل شيء وينزع من قلبهم الثقة والأمل ، ويبث بينهم العداوة والبغضاء . وكل شيء فى مصر قد فسد حتى بلغ من الفساد أقصاه أو كاد يبلغه حتى لو قال قائل إن هذه الوزارة إنما قامت لتحليل الشعب وإظهار ما فيه من مواضع الضعف وتعريضه لكل ألوان الشر لما أخطأ ولا جار عن قصد السبيل . ولم تأخذ مصر لهذا الشر العظيم والخسران المبين ثمنا قليلا أو كثيرا ، فما زال الإنجليز كما كانوا ، لم يفاوضوا ولم يعاهدوا ، ولا أظهروا رغبة فى المفاوضة أو المعاهدة . وإنما غلوا فى التسلط على مصر سرا وجهرا ، فحققوا ما أرادوا من المآرب وردوا مصر إلى مكان البقرة الحلوب من الشره والنهم الذى لا يروى مهما شرب ، ولا يشبع مهما أكل ، ولا بد له من أن يحلب ويحلب ، ومن أن يمرى ويمرى حتى يخرج إليه لبن البقرة مشوبا بالدم .

أفتظن أن هذه الحال هى التى جعلت وزارة صدقى باشا اليوم من القوة والمتانة بحيث لم تكن فى يوم من الأيام ؟ أم تظن أن هذه الحال هى التى جعلت وزارة صدقى باشا معرضة للتغيير ، لأن بقاء الوزارات فى مراكزها على الدوام لا سبيل إليه ؟

كلا الأمرين قاله رئيس الوزراء ، وكلا الأمرين يؤمن به رئيس الوزراء فهو يرى أن وزارته لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى الآن . وهو يرى أن وزارته قد يصيبها التعديل . وأكبر الظن أنه لا

يريد أن يجيب على سؤال لم يكن بد من أن يجيب عليه . ويقول كلاما لم يكن بد من أن يقوله . فأما الحق الذى لا شك فيه فهو أن الأمر قد خرج من يد صدقى باشا ، لأنها لم تبق قادرة على ضبطه وتصريفه .

وأظرف من هذا التناقض ما يقوله رئيس الوزراء من أن وزارته مستمتعة بثقة البرلمان . هى إذن قوية إلى غير حد ، متينة إلى غير حد . فأما ثقة البرلمان فسيستمتع بهاصدقى باشا ما أقام فى الحكم . وأما ثقة جلالة الملك فقد نحب أن نعلم كيف يجمع رئيس الوزراء بين استمتاعه بها وبين إعلانه أن وزارته قد يصيبها التعديل ، لأن بقاء الوزارة فى مراكزها على الدوام شيء لا سبيل إليه .

وكم نحب لصدقى باشا وزملائه وأنصاره أن يقتصدوا فى ذكر جلالة الملك وثقته بهم وعطفه عليهم ، فنحن نعلم حق العلم أن الشعب المصرى نفسه مستمتع بحب جلالة الملك له ، وعطف جلالة الملك عليه ، وإيثار جلالة الملك لمنافعه على الوزراء وبقائهم فى مناصب الحكم . فخير للوزراء أن يرفعوا ثقة جلالة الملك عن هذه الأحاديث السياسية التى هى بطبعها موضوع للمناقشة والجدل .

وظريف من رئيس الوزراء تأكيده أن تغيير المندوب السامى لن يغير السياسة الإنجليزية . هذا ظريف لأن رئيس الوزراء يسلك فى هذا التأكيد مسلك زميله الذى خطب فى حزب الشعب منذ أيام فأعلن أن المندوب السامى لم ينقل لأسباب سياسية ، وإنما نقل لعامل شخصى محض . وهذا رئيس وزرائنا يعلن إلى مكاتب الأهرام أن لديه أوثق تأكيد بأن سياسة وزارة الخارجية البريطانية لم تتغير . فسياسة

وزارة الخارجية البريطانية هى هذه الدائرة التى تدور فيها منذ الثورة . وهذه الدائرة ما زالت قائمة لم تنفرج بعد ، وما تزال وزارة الخارجية البريطانية تدور فيها . فإذا كانت هذه السياسة ثابتة باقية فإن ثباتها لا يستلزم بقاء الوزارة القائمة ، ولعله يستلزم ذهابها كما استلزم ذهاب المندوب السامى ، لأن وزارة الخارجية تدور ، وقد قطعت من دائرتها مكان صدقى باشا والسير برسى لورين . فإذا كان رئيس الوزراء يظن أن ما لديه من التأكيدات يخدع أحدا ، فهو مخطىء ، فإن هذه التأكيدات لا تخدع إلا الذين يتعلقون بأهداب الوهم . ورئيس الوزراء نفسه غير مخدوع بهذه التأكيدات فهو يعلن أن وزارته القوية المتينة قد يصيبها التعديل لأن بقاء الوزارات فى مراكزها على الدوام شىء لا سبيل إليه .

ما أجدر رئيس الوزراء وأصحابه أن يأخذوا بحظهم من الشجاعة وأن يؤمنوا للحق الواقع ويعترفوا به . فقد أخفقت سياستهم وسياسة المندوب ولا بد من تغييرهم كما تغير المندوب . والأيام حازمة صارمة ، لا تعرف ضعفا ولا ترددا ، ولا تعرف رحمة ولا إشفاقا . وهى ممضية حكمها فيهم كما أمضته فى المندوب ، لا يعنيها أن يرضوا بذلك أو يسخطوا عليه . فليطمئن رئيس الوزراء فإن الأيام مطمئنة أيضا .

جــلاء

لم[1] يبق شك ولا ريب فى أن جو السياسة المصرية قد أخذ ينجلى شيئا فشيئا ، ويزول عنه هذا السحاب الكثيف الذى كان يحول بينه وبين الصفو منذ أسابيع . فقد طرد الإنجليز بعض هذا السحاب الكثيف حين نقلوا مندوبهم السامى ، وحاول رئيس الوزراء أن يطرد بعضه الآخر أول أمس ، فأقدم على ذلك فى استحياء قبل الظهر ، ثم فى صراحة مع المساء . تحدث إلى الأهرام فأكد أن وزارته قوية متينة كأقوى ما كانت وكأمتن ما كانت ، بل أقوى وأمتن مما كانت فى يوم من الأيام . ولم يكد يختم حديثه حتى ذكر تعديل الوزارة ، وأشار إلى تغيير الممكن لأن بقاء الوزارات فى مراكزها على الدوام شىء لا سبيل إليه . ولم يكد يتقدم النهار حتى كان رئيس الوزراء قد وجد حظا كافيا من الشجاعة يمكنه من أن يصارح الناس بالحق ، ويظهرهم على جلية الأمر ، وليس فى ذلك شىء من الغرابة . فرئيس الوزراء الآن مقيم فى فرنسا ، وهو يسمع الفرنسيين يرددون ألف مرة ومرة فى اليوم مثلهم السائر الحكيم : إنما المشقة فى الخطوة الأولى . وقد خطا

---

(١) ٣١ - ٨ - ١٩٣٣

رئيس الوزراء هذه الخطوة مع الأهرام فا ستنفد الجهد الجاهد والمشقة العنيفة ، وهانت عليه الخطوة الثانية فخطاها مع مكاتب المقطم فى المساء ، ولمح إلى استقالته تلميحا ، أو صرح باستقالته تصريحا ، فذكر أن شخص الوزير الذى ينهض بأعباء الحكم لا خطر له ، وإنما الخطر كل الخطر لسياسته ونظامه ، لأن الوزير قد تضطره ظروف كالمرض مثلا إلى أن يترك منصب الحكم . فأما السياسة فهى الشىء ذو الخطر . ثم أكد رئيس الوزراء أن سياسته باقية لأنها تعتمد على ثقة البرلمان .. ومعنى ذلك أن شخص رئيس الوزراء كشخص السير برسى لورين ، لم يبق لهما غناء فى السياسة المصرية . وإن سياستهما - فيما يقول رئيس الوزراء ، وفيما يقول بعض الانجليز والمصريين - باقية لم تتغير ولن تتغير . فلنسجل قبل كل شىء أن المندوب السامى قد نقل بالفعل ، وأن رئيس الوزراء نفسه ينبئنا عن نفسه بأنه سيستقيل إن لم يكن قد استقال بالفعل . وإذن فالشخصان اللذان أقاما سياسة هذا العهد السعيد قد أكرهتهما ظروف لا يعنينا الآن أن نحددها - على أن يدعا هذه السياسة للأقدار .

ونظن أن هذه خطوة لها قيمتها فى وضوح الموقف السياسى المصرى ، وفى جلاء هذه الأزمة السياسية التى أظلت مصر منذ أكثر من ثلاث سنين . فمهما يقسم أنصار هذا العهد السعيد من الإنجليز والمصريين على أن هذه السياسة باقية ، لن تتغير ، فهم مضطرون إلى أن يعترفوا بأن هذه السياسة قد فقدت دعامتها القوية وقوامها الصحيح حين فقدت رئيس الوزراء ، وحين فقدت المندوب السامى القديم .

ومهما يقسم أنصار العهد السعيد على أن الإنجليز لن يغيروا سياستهم ، وعلى أن هذه السياسة لن ينالها التعديل من أى ناحية من أنحائها فهم مضطرون إلى أن يعترفوا بأن الأيام نفسها قد عدلت هذه السياسة تعديلا ذا خطر حين أقصت عنها دولة صدقى باشا والسير برسى لورين .

فليست السياسة شيئا مستقلا يستطيع أن ينشىء نفسه ، وإنما هى عمل من أعمال الناس ، ينشئها الناس ويصرفونها ويمدونها بأمزجتهم وبما فى طبائعهم من قوة أو ضعف ، ومن ميل إلى الخير أو الشر ، ومن حب للاستقامة أو الاعوجاج . والله وحده قادر على أن يمنح سياسة هذا العهد السعيد رجلين لهما مزاج رئيس الوزراء والمندوب السامى وطبيعتهما وفطرتهما ، لا يخالفانها فى ذلك قليلا ولا كثيرا . وإذن فمهما يكن خليفة رئيس الوزراء ، ومهما يكن خليفة المندوب السامى ، فسيكون لهما أثر فى السياسة مخالف قليلا أو كثيرا لأثر الرئيس المستقيل والمندوب المنقول . ذلك ونحن واثقون كل الثقة بأن السير برسى لورين لم ينقل لأن وزارة الخارجية البريطانية تحب العبث أو تميل إلى التفكه بتبديل المندوبين الساميين ، وإنما نقل لأن وزارة الخارجية كانت تريده لعمل عجز عن إتمامه أو فشل فيه فلم تره قادرا على النهوض بهذا العمل ؛فأرسلته إلى حيث يستطيع أن يغنى أو يفيد . ونحن واثقون بأن المرض ليس وحده هو الذى يدعو رئيس الوزراء إلى أن يستقيل أو يفكر فى الاستقالة ، فقد مرض رئيس الوزراء منذ أشهر طوال ، واشتد عليه المرض حتى أعجزه عن كل

عمل وعن كل تفكير . وكان الحق عليه لنفسه ولوطنه أن يستقيل منذ أحسّ العجز عن احتمال منصبه ، ولكنه لم يستقل ولم يظهر تفكيرا فى الاستقالة ، وإنما استشفى واستشفى . وأكبر الظن أنه كان يفكر أثناء هذا الاستشفاء فى الاحتفاظ بالصحة . ويقال إن الله قد رد إلى رئيس الوزراء صحته ، ومنّ عليه بحظ من الشفاء لا بأس به فكان المعقول أن يبقى حيث هو ، وأن يشتد حرصه على منصبه ولكنه ينبئنا أول النهار بأن وزارته قد تعدل ، وينبئنا آخر النهار بأن وزارته قد تستقيل . وتستفيض أحاديث الناس بأن وزارته مستقيلة بالفعل

فليكن منطقنا معوجا ، وليكن تفكيرنا ملتويا ، وليقل أنصار الوزارة ما يريدون أن يقولوا فى منطقنا وتفكيرنا ، فإنا لا نستطيع أن نؤمن بأن ليست هناك صلة بين نقل المندوب السامى واستقالة رئيس الوزراء أو تفكيره فى الاستقالة وتهيؤه لها . ثم لا نستطيع أن نؤمن بأن ابتعاد هذين الرجلين معا عن السياسة المصرية دليل قوى أو ضعيف على أن السياسة المصرية ستبقى كما هى بعد ابتعادهما عنها ، لا يصيبها تغيير ولا تبديل .

هذا كلام يقال للأطفال وضعاف الناس . فأما الذين يعقلون فلا يستطيعون أن يصدقوه ، ولا أن يطمئنوا إليه ، وإذن فقد أخذ الجو السياسى فى مصر ينجلى ، وأخذت السياسة المصرية تسلك سبيلها إلى التغيير وبدأت أحاديث الناس تتناول هذا التغيير بالتحليل والتأويل أولئك يشفقون وهؤلاء يطمعون . أولئك تلعب الأمانى بقلوبهم ،

وهؤلاء يفرق اليأس نفوسهم . وأخذت الألسنة تصيب حظوظا من الفصاحة لا تشبهها إلا فصاحة أولئك القواد الذين يدبرون خطط الحرب فى الأندية والقهوات ، وأمام أكواب الشراب وموائد النرد والشطرنج . وأخذت الأهرام تذكر الفروض وأحاديث النفوس الآملة واليائسة ، فقوم يذكرون معاهدة قد تم مشروعها ، ويراد إمضاؤها قبل أن يتفرق الصديقان العزيزان : صدقى باشا والسير برسى لورين ، وقوم يذكرون الوزارة القومية التى تجرى الانتخابات حول المعاهدة بين المصريين والإنجليز . وقوم يذكرون هذا وذاك . وقوم يلمحون بأن الحكم وسيلة لا غاية إلى آخر هذا الكلام الكثير الذى تحدثت به الأهرام إلى الناس صباح اليوم . ولكن الشىء الوحيد الذى لم تتحدث به الأهرام والذى لم تروه لقرائها هو أن كل هذه الفروض ، وكل هذه الأحاديث لا قيمة لها ، لا لأن سر الإنجليز لم يظهر بعد ، ولا لأن سر المشرفين على السياسة فى مصر لم يظهر بعد ، بل لأن رأى الشعب المصرى قد ظهر واضحا جليا ، لا لبس فيه ولا غموض منذ بدأ صدقى باشا والسير برسى لورين هذا العهد السعيد ، بل قبل أن يبدآه بزمن طويل . وكان هذا الرأى الذى أظهره الشعب المصرى دائما هو السبب الأول لإخفاق صدقى باشا والسير برسى لورين ، وسيكون هذا الرأى دائما هو السبب لإخفاق كل وزير يذهب فى السياسة مذهب السير برسى لورين . وهذا الرأى الذى أظهره الشعب المصرى واضحا جليا ، وسيظهر واضحا جليا مهما تكن الظروف ، هو أن مصر لا يمكن أن يقضى فى أمورها أحد غيرها ، ولا بلد غيرها . وإنما ينبغى أن تقضى هى فى أمرها ، وأن تقضى فى

أمرها كما تريد ، لا كما يراد لها ، فقد مضى الزمن الذى كانت تساس فيه الشعوب المتحضرة كما يساس الأطفال ، فتؤخذ مرة باللين وأخرى بالشدة ، وحينا بالمكر وحينا بالصراحة .

مضى هذا الزمن ، ولم يبق أمل فى أن يعود ، فالذين يريدون أن يفاوضوا مصر أو يعاهدوها خليقون أن يردوا قبل كل شىء إلى مصر حريتها الخالصة فى تدبير أمورها لتفاوض مختارة حرة ، وتعاهد مختارة حرة ، محتملة لتبعة المفاوضة والمعاهدة فى صراحة ونصح وإخلاص .

فأما أن تجرى المفاوضات سرا ، ومن وراء حجاب ، ثم تختلس المعاهدة اختلاسا ، فأما أن يجعل قبول المعاهدة شرطا لوصول مصر إلى حريتها واستقلال مصر بأمورها ، فذلك شىء لن تقبله مصر ، ولن ترضاه ولن يظفر الذين يحاولونه من النجاح إلا بمثل ما ظفر به صدقى باشا والسير برسى لورين .

لقد انجلى الموقف السياسى الآن ، وظهر أن سياسة هذا العهد السعيد قد أخفقت إخفاقا شنيعا ، وأن لا بد من العدول عنها . ومصر باسمة لهذا الإخفاق ، منتظرة فى ثقة لما سينكشف عنه الغد ، معلنة دائما فى حزم وقوة ، وفى عزة وإباء ، أن كل سياسة لا تقوم على احترام حريتها ورد حقوقها إليها قبل كل شىء صائرة إلى الفشل ، منتهية إلى الإخفاق .

فليتدبر ذلك الذين تتوق نفوسهم إلى الحكم ويتهيأون للوثوب إلى مناصبه ، كما يتدبره الآن من غير شك هؤلاء الذين تحزن نفوسهم على الحكم ويتهيأون للنزول عن مناصبه .

مفاوضة

ليست[1] بين الإنجليز والمصريين فى المسألة المصرية ، فقد عدلت إنجلترا عن المفاوضة الآن ، ويئس منها أساطين هذا العهد السعيد . وليست بين مصر وفرنسا حول مسألة الدَّين ، فقد أصرت فرنسا على ألّا يؤدى إليها الدين وفوائده إلا ذهبا ، ومضت معها إيطاليا فى ذلك . وسكتت عنهما إنجلترا صديقتنا العزيزة . وخرج الأمر عن أن تجدى فيه المفاوضات ، وليست بين مصر وأى دولة أخرى من دول الشرق والغرب ، فالصلات بيننا وبين هذه الدول مستقرة وثابتة ، لا تحتاج إلى أخذ ورد ، ولا إلى تغيير وتبديل . وإن كان وزير ألمانيا المفوض يتردد من حين إلى حين على وزارة الخارجية محتجا على أعمال الاسرائيليين ، وإنما هى مفاوضة بين مصر الرسمية المقيمة فى الاسكندرية وبين رئيس الوزراء المقيم فى فرسايل .

والناس يجهلون موضوع هذه المفاوضات أو لا يكادون يعرفون منه إلا شيئا قليلا ، لا يمكن القطع به والجزم بحقيقته . فالأهرام[2] تزعم أن لرئيس الوزراء مطالب يريد أن يجاب إليها قبل أن

---

(١) ١ - ٩ - ١٩٣٣

(٢) كان صدقى باشا يشغل منصب وزير المالية ، ونظرا لمرضه أراد أن يسند هذا المنصب إلى حافظ عفيفى باشا فلم يوافق الملك فؤاد على ذلك ، ورشح حسن صبرى باشا .

يصل إلى مصر ، ولكن الأهرام لا تبين هذه المطالب ، ولا تشير إليها ، والمقطم تشير من طرف خفى جدا إلى شيء كهذا حين تذكر أن رئيس الوزراء مسه شيء من الغضب ، قوى أو ضعيف ، حين أراد أن يسافر وكيل المالية إلى الولايات المتحدة ليتبين حقيقة الجهود التى تنفقها حكومة واشنجتون لرفع الأسعار ، ولكن المقطم كالأهرام لا تكاد تبين عن هذا الخلاف القائم الذى يدعو إلى اتصال المفاوضات بين الاسكندرية وفرساي من طريق باريس . نعم من طريق باريس فالاسكندرية لا تفاوض فرساي رأسا ، وقصر بولكلى لا يفاوض فندق تريانون مباشرة ، وإنما تتوسط المفوضية المصرية بين المدينتين . ويسعى وزيرنا المفوض بين القصرين . ولا بد من أن تجرى الأمور على هذا النحو . فإن المفوضيات لم تنشأ ، والوزراء المفوضين لم يعينوا لإقامة الحفلات واستقبال وزير التقاليد على موائد الغداء ليس غير ، وإنما أنشئت المفوضيات وعين الوزراء المفوضون لشيء أدنى من هذا كله إلى الجد .

وإذا لم تكن مسألة الدين خليقة أن يسعى فيها وزيرنا المفوض فى باريس بين بولكلى وقصر كى دورسى ، أو بين صاحب العزة صليب بك سامى ، والمسيو بول بونكور[١] ، فإن فى هذا الخلاف القائم ما يمكن وزيرنا من السعى بين صاحب المعالى شفيق باشا رئيس الوزراء النائب وصاحب الدولة صدقى باشا رئيس الوزراء الأصيل .

---

(١) هو وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت

كذلك يريدون أن تكون شئوننا مثيرة دائما للابتسام حتى حين يجدّ الجد ، وحين يدعو الأمر إلى كل شىء إلا الابتسام . مهما يكن من شىء فإن هناك مفاوضات بين الاسكندرية وفرسايل ، يسعى فيها صاحب المعالى فخرى باشا ، وأكبر الظن أننا نكتب هذا الفصل وقد انتهت هذه المفاوضات وجاء رد فرنسا يحمل إلى الاسكندرية ، نعم أو يحمل النبأ « لا » .

وعلى « نعم » أو « لا » تقف أمور مصر فى الأيام القريبة المقبلة . فمن يدرى ؟ لعل « نعم » أن تمكن رئيس الوزراء من إتمام برنامجه فيأخذ القطار ، ويعبر البحر ، ويرفع استقالته بعد أن يستريح . ولعل « لا » هذه أن تحول دون إتمام هذا البرنامج فيبقى رئيس الوزراء فى فرسايل ويعود إلى مصر متى أراد هؤلاء ، لا متى أرادت الظروف .

وواضح جدا أن المفاوضات الخطيرة التى تضطرب بها أسلاك البرق ، أو يتموج بها هواء الجو ، ليست حول الاحتفال الرائع الذى يريد حزب الشعب أن يقيمه لرئيس الوزراء متى عاد . فأمر حزب الشعب فيما نرجو ، وأمر احتفاله واستقباله أهون على الله والناس والدولة من أن تجرى فيه المفاوضات الرسمية بواسطة المفوضية المصرية فى عاصمة الجمهورية الفرنسية الثالثة ، إلا أن يكون المثل العربى القديم صحيحا ، وأن يكون « معظم النار من مستصغر الشرر » وأن يكون هذا الحفل اليسير قد أثار أزمة كانت تريد منذ عهد بعيد أن تثور . وواضح جدا أن المفاوضات ليست بين الوزراء من حيث هم وزراء ، وبين الرئيس من حيث هو رئيس ، فقد يكون من الغريب

للذين يعرفون الوزارة القائمة ورأيها فى نفسها ورأى الناس فيها ، ورأى الإنجليز فيها بنوع خاص ، أن يثور بينها وبين رئيسها خلاف يبلغ من العنف أن يقدم الرئيس إليها (التمائم) أو البلاغ النهائى وأن تدور بينها وبينه مفاوضات طويلة عريضة تحدث فى مفوضيتنا فى باريس حركة غير عادية ، قد تكون إن طالت بعض الشىء حديث السفراء المقيمين فى مدينة النور ، ولا بد إذن من أن يكون هذا الخلاف الذى تذكره الأهرام ، وتشير إليه المقطم ، قد ثار بين رئيس الوزراء وبين جهة من الجهات العليا التى يمكن أن تخالف رئيس الوزراء فيدعو خلافها إلى إثارة أزمة وزارية حادة : ولسنا نتنبأ بشىء ولا نريد ، ولا نستطيع أن نجزم بشىء ، ولكننا نلاحظ متواضعين ، مستشعرين مع هذا التواضع شيئا من العجب . إن وزير التقاليد يجب أن يكون مغضبا غضبا شديدا نغص عليه حفلة الغداء التى أقيمت له أمس فى المفوضية المصرية ، والتى لم يحضرها رئيس الوزراء لأنه مريض ، متعب ، أو لأنه مغيظ محنق فى وقت واحد .

يجب أن يكون وزير التقاليد مغضبا حقا ، لأن هذه الأزمة الطارئة قد خرجت على التقاليد وانتهكت حرماتها ، وضربت بقواعدها وأصولها عرض الحائط أو عرض الأفق كما يقولون . فمتى رأى الناس أزمة تنشأ ثم تشتد ثم تحتد ورئيس الوزراء غائب عن مستقر الوزارة ؟ ومتى رأى الناس وزيرا مفوضا يكلف السعى بالخصام أو السلام بين رئيس الوزراء وزملائه الأعضاء ؟ ولكن وزير التقاليد جلد صبور ، حازم عازم ، يستطيع أن يصبر على مثل هذه البدعة التى اضطرت إليها ظروف قد لا يكون إلى اتقائها من سبيل .

ألست ترى أن رياسة صدقى باشا للوزارة تكلف مصر ألوانا من الشطط ، منها ما يلهى ومنها ما يحزن ، فلو أن رئيسا من رؤساء الوزارات فى أى بلد من البلاد التى لم يمنحها الله نعمة فراغ البال ، ألمّ به ما ألم بصدقى باشا من المرض الطويل الثقيل لأراح نفسه ، وأراح وزارته وأراح أمته من كل عناء ، ولاستقال مؤثرا لنفسه الصحة ومؤثرا لوطنه المنفعة واستقامة الأمور ، ولكن صدقى باشا مرض فى يناير ، واستشفى فى مصر ثلاثة أشهر وبعض شهر ، ثم سافر إلى أوربا فاستشفى فيها ثلاثة أشهر وبعض شهر ، ظل مريضا سبعة أشهر ، لا يعمل ولا يستقيل ولا يكره أن يكلف الدولة أثقالا أخفها وأهونها أجره على عمل لا يستطيع أداءه ، وما يتصل بهذا العمل المعطل من نفقات يبذل بعضها فى مصر ، ويبذل بعضها فى أوربا فإذا انتهت هذه الأشهر السبعة بدا لرئيس الورزاء فذكر الاستقالة وفكر فيها ، ولكنه لا يذكر الاستقالة كما يذكرها الناس ، ولا يفكر فيها كما يفكر فيها الناس ، وإنما ينفى ، ثم يلمح ثم يصرح ، ثم يكتب إلى مصر ، ثم يثير المفاوضات بينه وبين مصر ، ثم يضطر وزارته إلى أن تقف هذا الموقف المعلق الذى لا تحسد عليه ، وكان أهون من ذلك وأيسر أن يستخير الله ، فإن رأى قدرة على استبقاء المنصب استبقاه ، وإن رأى عجزا عن ذلك استقال من بعيد وأقام حيث يريد ، أو كتم الأمر وعاد إلى مصر ثم استقال كما يستقيل الناس .

فأما كل هذه الحركات والمداورات والإقدام والإحجام ، فلا خير

فيه لأحد ، لا خير فيه لرئيس الوزارة نفسه . وإذا لم يكن بد من أن يصور موقف الوزارة القائمة الآن فهو موقف الذى يريد أن يجود بنفسه ، ولكنه يجد فى ذلك مشقة وعسرا ، فيظل معلقا بين الموت والحياة وقتا طويلا .

وبعد فإن فى مصر من الخطوب ، وأمام مصر من المشاكل ما هو أشد خطرا ، وأبعد أثرا فى حياتها من بقاء الوزارة القائمة أو اعتزالها للحكم فهذه الأزمة تنذر بأعظم الشر ، ولا بد من أعمال سريعة حاسمة لتحول بين مصر وبين الخراب . وهذه مسألة الديون توشك أن تستحيل إلى كارثة لم تشهد مصر مثلها فى العصر الحديث ، ولابد من خطة حازمة ترد عن مصر شرها المستطير . وهذا الأمن يزداد فسادا من يوم إلى يوم ، ويزداد عجز الوزارة عن ضبطه من حين إلى حين ، ولا بد من جهود حازمة حاسمة ليأمن الناس على أنفسهم وعلى ما بقى من أموالهم . فإحدى اثنتين : إما أن تكون الوزارة قادرة على البقاء صالحة له ، وإذن فلتعلن ذلك إلى الناس ، ولتنهض إن استطاعت بما يجب أن تنهض به من الأعمال . وإما أن تكون الوزراة عاجزة عن البقاء ، غير صالحة له . وإذن فلتدع مكانها لوزارة تواجه المشكلات وتحول بين مصر ، وبين التردى فى هذه الهوة التى ليس لها قرار .

لقد علقت حياة مصر بين اليأس والرجاء منذ مرض رئيس الوزراء وقد آن لهذا التعليق أن ينتهى ، وآن لشئون مصر أن تستقر ، وأصبح المضى فى هذا العبث جناية عظيمة فى حق الوطن .

هدنة

يظهر[1] أن المفاوضات الدقيقة الشائكة التى كانت تدور بين الاسكندرية وفرسايل قد خطت خطوة فى سبيل النجاح كما يقولون ، فقبل رئيس الوزراء المستقيل أن يمد فى أسباب الأزمة إلى أن يصل إلى مصر ، وقبل من ناحية أخرى أن تقام له الحفلة ، ولكن بعد وصوله ، لا فى اليوم الذى يصل فيه .

والظاهر أن الموقف السياسى لمصر كان معرضا لأشد الأخطار ، وأن طائفة من الكوارث الهائلة المروعة كانت تتأهب لمهاجمة هذا البلد المسكين لولا أن تداركه الله بلطفه وعطفه فأرسل الرحمة إلى قلب صدقى باشا ، وأجرى لسانه بكلمات لا تحل الأزمة ولا تلغيها ، وإنما تؤجلها أجلا ما . وستستطيع مصر أن تتنفس وأن تملأ رئتيها بالهواء النقى وأن تدخر من القوة والثبات فى هذه الأيام ما يمكنها من احتمال الصدمة العنيفة التى لا بد من وقوعها يوم الثلاثاء أو يوم الأربعاء ، أو بعد ذلك بقليل . ومصر مدينة بهذا الفرج الموقوت ، وبهذه الراحة المحدودة لما أظهرته المفوضية المصرية فى باريس من اللباقة والنشاط ،

(١) ٢ - ٩ - ١٩٣٣

ومن التفوق والمهارة ، فهى إذن حقيقة بالتهنئة ، حَرِيَّة بالثناء . وقد أدى أحد الطرفين المتفاوضين للمفوضية حقها من ذلك ، فأثنى رئيس الوزراء المستقيل ثناء عذبا على مفوضيتنا حين كان يركب القطار أمس ، ولم يبق إلا أن يؤدى الطرف الثانى من الطرفين المتفاوضين إلى المفوضية ما يجب لها عليه من الشكر والثناء . ولعل بلاغا رسميا تصدره الوزارة فتحصى فيه عدد الجهود الموفقة التى بذلها وزيرنا المفوض فى باريس حتى رد رئيس الوزارة عن عناده بعض الشيء فأتاح لمصر أن تبتهج بلقائه ، وقد كان يمكن أن يعود فيؤجل سفره بعد تعجيله . وأتاح للوزراء أن يسعدوا بلقاء رئيسهم وأن يناظروه ويداوروه لعلهم أن يحولوه عن هذه الاستقالة التى وقعت كما يقع الشعر فى الحساء فيما يقول الفرنسيون .

ومهما يكن من شيء ، فنحن فى هدنة قد بدأت منذ ركب رئيس الوزراء قطاره أمس ، وستستمر ثلاثة أيام كاملة ولعلها تزيد قليلا .

ولكن هذه الهدنة لن تريح الخائفين من الخوف ، ولا الطامعين من الطمع ، ولا الساعين بين أولئك وهؤلاء من السعى فستضطرب قلوب الوزاريين ، ويشتد اضطرابها بالخوف والإشفاق وستخفق أفئدة المستوزرين ، ويشتد خفقانها بالأمل والرجاء وسيمضى الساعون فيما يسعون من التأليف والتشكيل ، ومن التوفيق والتقريب ، لعلهم أن يهيئوا للأيام المقبلة وزارة صالحة لخلافة صدقى باشا ، مستكملة على أقل تقدير لبعض هذه الشروط التى تذاع لتخدع الناس ، ولكنها لا تخدع أحدا حتى ولا الذين يذيعونها .

والظاهر أن مكاتب التيمس فى القاهرة يصور أمانى جماعة من الناس حين يتحدث إلى صحيفته بأن الوزارة المقبلة ستتألف من جميع الأحزاب إلا الوفد . وستستطيع بحكم تأليفها وطبيعة الأحزاب التى ستشترك فيها أن تنهض بهذا العبء الثقيل الذى عجز صدقى باشا عن احتماله ، فاضطر إلى أن يلقيه عن كتفيه المتعبتين ، فهى إذن الوزارة القومية التي لا قوم فيها كما قال بعض الوزاريين السابقين ، وهى إذن صورة منقوصة لهذه الأمنية التى كان يتمناها السير برسى لورين فلم يوفق إلى تحقيقها ، وهى على كل حال محاولة من المحاولات لإخفاء هذا الإخفاق الفاضح الشنيع الذى انتهت إليه سياسة هذا العهد السعيد . وهى على كل حال أيضا لا تعدو أن تكون محاولة من المحاولات التى يتكلف أصحابها فى سبيلها الجهد العنيف والمشقة العسيرة ، ثم لا يظفرون منها بشيء ، ولا ينتهون منها إلا إلى سوء الحال ، وخيبة الآمال والندم اللاذع على ما فرطوا فى ذات الوطن وفى ذات أنفسهم .

فكل مصري يحاول أن يطيل سياسة هذا العهد السعيد مفرط فى حق الوطن ؛ لأن الوطن لم يجن من هذا العهد السعيد خيرا ، ولم يلق من سياسته إلا شر ما تلقى الشعوب من سياسة تقوم على القهر والعنف ، وعلى الاستبداد وإيثار المنافع العاجلة على الواجبات الوطنية الخالدة . ولو أن مصر جنت من سياسة هذا العهد خيرا ولو قليلا ؛ لما رضيت الصحف الإنجليزية عنها هذا الرضى ، ولما حرصت عليها هذا الحرص . فإن هذه الصحف لا يمكن أن تكون مصرية أكثر من

المصريين ، إنما هي صحف إنجليزية قبل كل شيء وفوق كل شيء . وهي تؤثر المنفعة الإنجليزية على كل شيء آخر ، فإذا رأيناها تتمدح بالسياسة التي أقام بناءها صدقي باشا والسير برسي لورين ، وتثنى على النتائج التي انتهت إليها ، فنحن واثقون بأنها لا تظهر ما تظهر من الرضى إلا لأن هذه السياسة قد حققت للإنجليز من المآرب والمنافع العاجلة ما كانوا يريدون . والذين يقرءون ما نشرته التيمس لا يشكون في أن هناك محالفة بين طلاب المنافع في مصر وفي إنجلترا على تأييد هذه السياسة التي تحكم بها مصر رغم أنفها ، وعلى غير ما تحب وتهوى .

فأما الحلفاء المصريون فلهم المناصب وما يتصل بها من مظاهر الجاه والسلطان . وأما الإنجليز فلهم تحقيق المآرب وإرضاء المنافع وقضاء الحاجات ، وبسط النفوذ وتوطيد السلطان . وأما مصر فعليها أن تؤدي لأولئك وهؤلاء ما يريد أولئك وهؤلاء مهما يكلفها ذلك من جهد ومهما يحملها ذلك من مشقة ، ومهما يضطرها ذلك إليه من احتمال الذل والضيم ، وصبر على الجوع والحرمان .

كل مصري يعين من قريب أو بعيد على إطالة هذا العهد الذي أقام بناءه صدقي باشا والسير برسي لورين مفرط في حق وطنه ؛ لأنه لا يزيد على أن يحقق ما تعترف به التيمس نفسها من أنه حكم المصريين على غير ما يريد المصريون . وهو كذلك مفرط في حق نفسه لأنه يتعجل المنفعة التي لا خطر لها ، ويضحي في سبيل ذلك بكرامته وراحته وواجبه ورضى ضميره ، ثم لا يجنى من وراء ذلك كله إلا

ما جناه هؤلاء الذين ساسوا مصر هذه السياسة أكثر من ثلاثة أعوام ، ثم انتهوا إلى ما ينتهون إليه اليوم من سوء الحال وسخط المواطنين .

وإنه لحمق أحمق هذا الذى يخيل للطامعين المتعجلين أنهم سيكونون أحسن حظا من الذين سبقوهم إلى الطمع والتعجل ، وأشد توفيقا إلى ما لم يوفق إليه الذين تقدموهم فى سبيلهما . حمق هذا الذى يخيل إلى الطامعين والمتعجلين أنهم قد يكونون أحسن حظا من رئيس الوزراء المستقيل وأعوانه . وقد يوفقون إلى خير مما وفقوا إليه . فإن الشعب المصرى الذى أبلى الوزارات فى إثر الوزارات ، وضيع جهود المعتدين عليه والطامعين فيه مازال كما كان ، لم يضعف ولم يهن ، ولم يصبه التفريط فى حقه ولا التقصير فى ذات نفسه ، بل ليس من شك فى أن انتصاره على وزارات الشدة والعنف التى أرادت إذلاله وأخذه بغير ما يريد ، قد زادته إيمانا بحقه وثقة بنفسه ، واستعدادا للصبر وقدرة على الجهاد والنضال .

فما أجدر الذين يتحلب ريقهم شوقا إلى الحكم وطمعا فيه . وتنزو قلوبهم فى صدورهم أملا فى السلطان وتعجلا له ، ما أجدر هؤلاء أن يفكروا ويطيلوا التفكير ، وأن يعتبروا ويحسنوا الاعتبار ويتعظوا بهذه المثلات التى خلت من قبلهم وأن يعلموا أن الذى يدفع نفسه إلى وزارة تقوم على غير مشيئة الأمة إنما يدفعها إلى طريق منكرة قد سلكها الناس من قبل ، فلم يلقوا فيها إلا شر ما يلقى السائرون .

أما أنت أيها الشعب المصرى فينبغى أن ترى وأن تقرأ وأن تفهم ما ترى وما تقرأ . هؤلاء خصومك من الإنجليز يعلنون رضاهم عن

هذه الأعوام الثلاثة التى ذقت فيها ألوان الذل والضيم واحتملت فيها صنوف التعس والشقاء ، وهم يزعمون أنك لم تكن فى أى عهد من عهودك خيرا مما كنت فى هذا العهد ، وهم يتمنون لهذا العهد طولا وامتدادا وهم يلتمسون الأعوان والأحلاف ليطول هذا العهد ويمتد ، ولتمضى أنت فيما يرون أنك سعيد به من نعمة هذه الحياة الحلوة الراضية التى فتح لك بابها رئيس الوزراء المستقيل . أفترى أن الإنجليز صادقون ؟ أفترى أنك قد سعدت فى ظل رئيس الوزراء المستقيل ؟ أفترى أنك قد شبعت بعد جوع ، وأثريت بعد فقر وكرمت بعد هوان ؟ أفترى أنك حريص حقا على أن تمتد بك أيام هذا العهد السعيد لتزداد سعادة إلى سعادة ، ونعمة إلى نعمة ، ورضى إلى رضى ؟ كلا ، ولو كنت سعيدا حقا ، راضيا حقا ، محبا لسياسة هذا العهد حقا ، لما اضطر الإنجليز أنفسهم إلى أن ينقلوا مندوبهم ، ولما أضطر رئيس الوزراء نفسه أن يستقيل . كلا لست راضيا وما ينبغى لك أن ترضى . ولست خائفا وما ينبغى لك أن تخاف . وإنما أنت شعب صابر مصابر ، تؤثر السلم والعافية ، وتعلم أن فوزك رهين بإيثار السلم والعافية فى غير يأس ولا ضعف ، ولا فرقة ولا استسلام .

فامض على صبرك فلن تغيظ خصومك بخير من الصبر ، وامض على إيمانك بحقك وثقتك بنفسك فلن تهزم خصومك بخير من الثقة والإيمان ، وابتسم فى سخرية للطامعين المتعجلين كما ابتسمت فى سخرية للمخفقين المعتزلين .

أعاجيب

لا [1]يريد هذا العهد السعيد أن ينقضى حتى يستنفد عجب الناس ، كما أنه لم يرد أن يبدأ حتى استنفد عجب الناس ، فقد كان هذا البلد آمنا مطمئنا ، راضيا عن أساليب الحكم فيه ، مستشعرا من العزة والكرامة ما يلائم بلدا ناهضا واسع الآمال ، عظيم الأمانى ، قد أراد الإنجليز أن يخدعوه فلم ينخدع ، وأن يكيدوا له فلم يبلغ منه الكيد . فأقبل رئيس الوزراء فرد هذا البلد الناهض القوى الآمل الآمن السعيد إلى شر ما ترد إليه البلاد من تقهقر وضعف ، ومن حزن وخوف ، وشقاء .

وضع نفسه وجماعة من أصحابه موضع المعصومين الذين يعلمون وحدهم كيف يحكمون فلا يخطئون ، وكيف يسوسون فلا يجورون عن القصد ، والذين يعرفون مصالح مصر أكثر مما تعرفها مصر ، والذين يريدون أن يكرهوا مصر على الخير إكراها ، وأن يدفعوها إلى ما يريدون لها وأنفها راغم . وأخذوا يفرضون أنفسهم وسياستهم على مصر فرضا ، بالقوة العنيفة حينا ، وبالمكر المغرى حينا آخر ، حتى

---

(١) ٣ - ٩ - ١٩٣٣

جرت دماء غزيرة وبيعت ضمائر قليلة ، وأخذت مصر تنظر إلى هذا كله واجمة لا ينقضى عجبها أن يقع هذا كله فى القرن العشرين ، وتحت سمع الحضارة الراقية وبصرها . والضمير الإنسانى نائم أو معرِض ، لا يستيقظ ولا يلتفت ولا يتردد فى الإغضاء عما يشهد النيل من تسلط نفر على شعب كامل . وقد نجح رئيس الوزراء عند نفسه نجاحا باهرا انتهى به إلى المرض الطويل الثقيل ، ثم إلى الاستقالة أو العزم على الاستقالة . ونجح صديقه المندوب السامى نجاحا باهرا عند نفسه أيضا انتهى به إلى أن يترك مصر فى الشتاء ويظل معلقا أشهرا ، ثم ينقل إلى بلاد الترك .

نجح الصديقان عند أنفسهما ولكنهما أخفقا إخفاقا شنيعا عند المصريين الذين احتسبوا عند الله ما فقدوا من أبناء أبرار وما احتملوا من مشقة وجهد ، وما قاسوا من عناء وعنف ، واستقلوا هذا كله فى سبيل الاحتفاظ بالكرامة والعزة ، وفى سبيل الوصول إلى الحرية والاستقلال .

كذلك ابتدأ هذا العهد السعيد عجيبا من جميع نواحيه ، فذًّا فى عهود القرن العشرين ، وهو الآن يريد أن ينتهى عجيبا فى جميع نواحيه ، فذًّا فى عهود القرن العشرين أيضا .

رئيس وزارة كان مريضا ، لا يقدر على العمل ، بعيدا لا يستطيع أن يشرف على الأمور ، ولكنه مع ذلك يمسك أزمة الحكم بيد ضعيفة مضطربة ، لا تقدر على إمساكها ولا على تصريفها . وكان على مرضه وضعفه وعجزه ، يمنى نفسه بأن يتم سياسته بمعاهدة يفرضها

على مصر فرضا ، كما فرض عليها غيرها من الأشياء ، فلما حيل بينه وبين ذلك لأن الإنجليز استيأسوا من قدرته على فرض هذه المعاهدة وأخذ المصريين باحترامها ، ثار وفار ، وأعلن السخط والغضب ولمح بالاستقالة ، ثم استحال التلميح تصريحا ، ثم استحال التصريح إلى نذير أخرج رئيس الوزراء عن طوره ، وجعل حديثه أعجوبة الأعاجيب فى هذه الأيام . رئيس وزارة مقيم فى بلد أجنبى قد أعلن ألف مرة ومرة أنه شديد الغيرة على استقلال مصر وكرامتها ، ثم هو لا يتحرج من أن يعرض أمورها الخاصة فى أسواق باريس وفرسايل ، يتحدث بها إلى الصحافيين فى غير تحرج ولا احتياط ولا احتفاظ بالتقاليد . يعلن لصحفى إنجليزى أنه لم يستقل ولكنه سيقابل جلالة الملك . ثم يعلن ذلك نفسه إلى مكاتب روتر فى محطة من محطات باريس أمام جماعة من المصريين والأجانب ، فيهم ممثل وزير الخارجية الفرنسية كأن بين رئيس الوزراء وبين مصر أزمة حادة من أخطر الأزمات ، وأشدها هولا ، فأمرها لا يعنى مصر وحدها ، بل لا يعنى جلالة الملك ووزارته وحدهما ، وإنما يعنى العالم بأسره ، وهو لذلك أمر يلقى إلى مكاتب روتر ليذاع فى أطراف الأرض أن صدقى باشا لم يستقل ولكنه سيرى جلالة الملك . ومعنى هذا أنه حين يرى جلالة الملك إما أن يجاب إلى ما يريد ، وإما أن يستقيل . العفو ! هذا كلام كان يحسن أن يقال فى الاسكندرية أو فى القاهرة ، لا فى فرسايل ولا فى باريس . هذا كلام كان يحسن أن يقال للصحف المصرية ، لا للصحف الإنجليزية ولا لمكاتب روتر . هذا كلام أقل ما يوصف به أنه مجاوز للياقة ، مخالف للتقاليد ، لا ينبغى أن يصدر

من رئيس الوزراء . وكل ما عمل رئيس الوزراء منذ أيام خارج عن اللياقة ، مخالف للتقاليد ، لا ينبغى أن يصدر من رئيس الوزراء . فما كان ينبغى لرئيس الوزراء أن يعلن افتتاح الأزمة الوزارية فى بلد أجنبى ، وما كان ينبغى لرئيس الوزراء أن يعطى أزمته هذا الشكل الذى يحسبه أصدقاؤه وأنصاره عظيما خطيرا ، وهو فى الحقيقة مضحك يسير .

فإن عند أوربا وغير أوربا من الأزمات والمشكلات ما هو أهم وأخطر من أزمة صدقى باشا ومشكلة صدقى باشا . وليس اعتزال صدقى باشا للحكم ، أو احتفاظ صدقى باشا بالحكم ، من الأمور التى يتوقف عليها مصير السلم فى أطراف الأرض ، وليس مما يحسن برئيس وزارة مهما كان قويا أن يتحدث إلى الأجانب عن أزمته الوزارية بهذه اللهجة التى تؤذن بالقوة والعنف ، والقدرة على التحدى والإحراج ، فكيف به إذا كان ضعيفا قد خذلته الظروف وتخلى عنه الأولياء ؟

قلت لك إن هذا العهد السعيد يريد أن ينتهى عجيبا مخالفا للمألوف كما بدأ عجيبا مخالفا للمألوف ، ولكن الذى دعا إلى أن يبدأ هذا العهد السعيد عجيبا شاذا هو إغراق رئيس الوزراء فى الثقة بنفسه ، والاطمئنان إلى من كان يمده من قوه وتأييد . والذى يدعو إلى أن يكون ختام هذا العهد عجيبا مخالفا للمألوف هو إغراق صدقى باشا فى اليأس وخروجه عن طوره أمام هذا الإخفاق المنكر الذى لم يكن يقدره ولا يحسب له حسابا . ولو لم يكن رئيس الوزراء قد

أخرجه اليأس والإخفاق عن طوره لما تورط فى هذه الألوان من التناقض التى تورط فيها منذ أيام ، فقد كان يوم الثلاثاء يعلن إلى مكاتب الأهرام أن لديه أوثق التأكيدات بأن تغيير المندوب السامى لا يغير السياسة البريطانية فى مصر ، فإذا هو يوم الجمعة يتحدث إلى مكاتب روتر ومكاتب الأهرام فيعلن إليهما أن كل ما يتمناه هو ألا يعدل المندوب السامى الجديد عن سياسة المندوب السامى القديم . تبارك الله . وأوثق التأكيدات ، ماذا صنع الله به ؟ لقد كان مقنعا يوم الثلاثاء ، فذاب يوم الأربعاء والخميس . وأصبح الباشا يوم الجمعة وأمسى وهو يتمنى أن يحتفظ المندوب السامى الجديد بسياسة المندوب السامى القديم . وأكبر الظن أن رئيس الوزراء سيصل إلى الإسكندرية يوم الثلاثاء فيستيقن بأنه لا يستطيع أن يتمنى ولا بد له من أن يطمئن إلى اليأس ، ويظفر بأوثق التأكيدات أن تغيير المندوب السامى سيغير السياسة البريطانية فى مصر ، وسيحور الصلة بين دار المندوب السامى وبين الشئون المصرية تحويرا كبيرا ، لا لأن الإنجليز يريدون ذلك أو يأبونه ، بل لأن السياسة التى أقامها صدقى باشا والسير برسى لورين قد انتهت من الفشل والإخفاق إلى حيث لم يبق بد من العدول عنها ، واستئناف الدوران فى تلك الدائرة التى رسمها الإنجليز لأنفسهم لعلهم أن يجدوا منها مخرجا . والظريف من أمر رئيس الوزراء أنه نسى – ولعل المرض هو الذى أنساه ، أو لعل اليأس هو الذى أنساه – أن استجداء الإنجليز شىء لا يليق بصاحب الرد التاريخى البديع على المستر مكدونالد . فالإنجليز قوم لا يتمنى عليهم صدقى باشا ، إنما يصدر إليهم الأمر ، وما ينبغى لصدقى باشا أن يتمنى

على الإنجليز أن يحفظوا لمندوبهم السامى الجديد سياسة مندوبهم السامى القديم ، وإنما ينبغى له أن يأمرهم بذلك أمرا ، فإما أطاعوا فكان السلم ، وإما عصوا فكان رد تاريخى بديع ، كذلك الرد التاريخى البديع الذى رمى به صدقى باشا منذ ثلاثة أعوام فى وجه الإنجليز فتلقوه خاضعين خاشعين .

كل شيء يحول ، فقد يكون رئيس الوزراء قويا منذ ثلاثة أعوام ، يتحدى الإنجليز ويقفهم عند ما يرسم من الحدود ، ثم يصبح رئيس الوزراء ضعيفا بعد ثلاثة أعوام ، يتمنى على الإنجليز فى محطة من محطات باريس — ويشهد العالم كله على هذا التمنى — ألا يغيروا سياستهم فى مصر بتغيير المندوب ثم صدقنى بعد ذلك وصدق رئيس الوزراء حين يقول لك إن الوزارة القائمة لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى الآن ، وأن عندنا أوثق التأكيدات بأن السياسة البريطانية لن تتغير بتغيير المندوب .

ستعجز من غير شك عن أن تلائم بين هذه المتناقضات ولكن لا تنس أن هذا العهد السعيد يريد أن ينتهى عجيبا غريبا كما ابتدأ عجيبا غريبا

حمى

مصدرها[1] نقل المندوب السامى إلى تركيا ، ولا غرابة فى ذلك فالسياسة كغيرها من الآفات ، تثير الحمى حين تصل إلى بعض أطوارها الحادة التى تقوى اليأس وتضعف الرجاء ، أو تفرض اليأس فرضا وتمحو الرجاء محوا وكما أن من اليسير أن تلاحظ الحمى التى تثيرها الآفات المختلفة فى أجسام المرضى فتسجل ما يختلف عليها من الصعود والهبوط ، فمن اليسير أن تلاحظ أطوار الحمى التى تصيب رجال السياسة وتسجل ما ينالها من الارتفاع والانخفاض . وكما أن لارتفاع الحمى وانخفاضها تأثيرا فيما يصدر عن المرضى من الأقوال وما يأتون من الأعمال ، فللحمى السياسية آثارها فيما يقول رجال السياسة وما يعملون . وكما أن أمزجة المرضى وحظوظهم من القوة والضعف تمكنهم من مقاومة الحمى والامتناع عليها أو تخضعهم لسلطان الحمى وتضطرهم إلى الاستسلام لها . فأمزجة رجال السياسة تمكنهم أحيانا من أن يقاوموا الحمى السياسية فلا يظهر لها فى أقوالهم وأعمالهم أثر ما ، وتسلمهم أحيانا لسلطان هذه الحمى فلا يستطيعون مقاومتها ولا الامتناع عليها .

---

(١) ٤ - ٩ - ١٩٣٣

وقد عرفنا من رجال السياسة المصريين زعماء كثيرين ، اختلفت عليهم الأحداث ، واعترضتهم الخطوب وأطافت بهم الأزمات من كل مكان فثبتوا لها ، وصبروا عليها ، وظلت وجوههم مشرقة وثغورهم باسمة ، وأحاديثهم مستقيمة ، لا عوج فيها ولا التواء ولا خلط فيها ولا اضطراب .

وكان رئيس وزرائنا المستقيل من هؤلاء الناس قبل هذا العام ، ولعله كان من أشدهم إغراقا فى ذلك وتكلفا له وازدهاء به ، وكثيرا ما تحدث الجادون والمازحون عن تلك الابتسامة التى لم تكن تفارق وجهه المشرق مهما تختلف الظروف ، ولكن رئيس الوزراء تغير فى هذا العام . وأكبر الظن أن المرض من جهة واتصال العناء السياسى المرهق من جهة أخرى ، قد أضعفا حظه من المقاومة وجعلاه رجلا كغيره من أوساط الناس تؤثر فيه الحمى السياسية فتخرجه عن طوره وتدفعه إلى أقوال وأعمال لا تصدر عن الساسة المحنكين . وما كانت تصدر عنه قبل الآن ، فلولا أن حظه من المقاومة قد ضعف حتى أصبح كغيره من الناس لما صدمه نقل المندوب السامى ، لأن هذا النقل شىء عادى لا قيمة له ، ولا خطر . ولن يكون له تأثير ما فى السياسة الإنجليزية المصرية . وهبه عظيم الخطر ، بعيد الأثر فى هذه السياسة كما يقول المعارضون الذين لا علم لهم بالسياسة ولا فهم لهم لدقائقها ودخائلها ، فإن نوابغ الساسة وعظماء الرجال لا يحفلون أو لا يظهرون احتفالهم بالأشياء ذوات الخطر العظيم والأثر البعيد .

ولكن رئيس الوزراء لم يكد يبلغه نقل المندوب السامى حتى خف

له طربا أو جزعا ، فوثب من لوسرن إلى باريس[1] ، ثم لم يكتف بالانتقال إلى باريس ليكون قريبا من مفوضيتنا فيها ومن مفوضيتنا فى لندرة ، وليكون الاتصال يسيرا بينه وبين العاصمتين ، عاصمة مصر حيث تتعقد السياسة الداخلية ، وعاصمة إنجلترا حيث تتعقد السياسة الداخلية والخارجية معا ، بل عجل عودته إلى مصر واختزل إجازته واستشفاءه اختزالا . وكل شيء يدل على أن رئيس الوزراء لو استطاع أن يثب إلى مصر كما وثب إلى باريس لما تردد ولا اضطرب ، ولكن عبور البحر يحتاج إلى أن يصبر ، واضطر إلى أن يستعد ويفكر ، ولكن الحمى السياسية أخذت ترتفع شيئا فشيئا لأسباب قد نعلمها وقد نجهلها . وإذا رئيس الوزراء لا يكتفى بتعجيل عودته ، بل يقدم سكرتيره بين يديه بشيرا بهذه العودة ، وبما تحمله . أو نذيرا بهذه العودة وبما تحمله من الاستقالة أو بشيرا ونذيرا فى وقت واحد .

وكان رئيس الوزراء حريا أن يحتفظ بسكرتيره الخاص إلى أن يعود ، لأنه لم يصطحبه إلا وهو محتاج إليه ، فاستغناؤه عنه أكثر من أسبوعين تضحية خطيرة ما كان رئيس الوزراء ليقدم عليها لولا هذه الحمى السياسية التى تكلف الناس شططا فى كثير من الأحيان . ثم لم

---

(١) صرح صدقى باشا ، وهو فى باريس بقوله :

كل ما أرجوه هو أن يتابع المندوب السامى الجديد سياسة السير برسى لورين ، وألا يحدث أى تبدل فى السياسة الإنجليزية ، لأن السياسة الحاضرة توافق مصر . لقد سمعت ثناء كثيرا على السير مايلز لمبسون ، ويظهر انه ديبلوماتى ماهر . ومصر فى حاجة إلى دبلوماتيين ، لا إلى رجال من منظمى الإدارة فى المستعمرات . (البلاغ فى ٢ - ٩ - ١٩٣٣)

يكتف رئيس الوزراء بهذا البشير النذير الذى قدمه بين يديه ، بل أراد أن يضيف إليه بشيرا فى الصباح وبشيرا فى المساء ، أو نذيرا فى الصباح ونذيرا فى المساء . فدعا إليه مكاتب الأهرام ، ثم دعا إليه مكاتب المقطم وحملهما جميعا هاتين الرسالتين إلى الذين يعنيهم أمر الوزارة فى مصر .

فقدم رئيس الوزراء إذن بين يديه طائفة من المبشرين والمنذرين وكان حريا بعد ذلك – وقد بلغت الرسالة وأدى الرسل ما طلب إليهم تأديته – أن يهدأ ويطمئن ، ويعود إلى طور الساسة الذين يحسنون الصبر للخطوب والأحداث ، ولكن رئيس الوزراء لم يهدأ ولم يطمئن ، ولم يعد إلى طور الساسة الصابرين ، وإنما أخذت الحمى ترتفع وأخذت أقوال رئيس الوزراء وأعماله يدفع بعضها بعضا فى شكل عنيف مخيف ، وإذا المفاوضة تتصل بينه وبين الإسكندرية ، وإذا هو يرسل نذيرا آخر أو بشيرا آخر مع صحفى إنجليزى ، وإذا هو يتهيأ لركوب القطار ليرسل بشيرا آخر أو نذيرا آخر مع مكاتب روتر ، وإذا وزيرنا المفوض فخرى باشا يشفق عليه من هذه الحدة فيسأل مكاتب روتر فى المحطة كالمطمئن لرئيس الوزراء : أترى على هذا الوجه ما يؤذن بأن صاحبه مريض ؟ ويمضى القطار برئيس الوزراء إلى مدينة البندقية ، وفى مدينة البندقية – للذين يعرفونها – ما يبعث الهدوء والاطمئنان . ويكفى أن ينظر الإنسان المضطرب إلى هذه الخلجان الهادئة المطمئنة التى تخترق المدينة لتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ، ويكفى أن ينظر الإنسان إلى هذه الزوارق التى تخطر على هذه الخلجان فى هدوء ودعة لتزداد نفسه هدوءا وقلبه اطمئنانا . ويكفى

أن ينظر الإنسان إلى ما فى هذه المدينة من مظاهر الفن وآيات الجمال التى اشتركت الطبيعة والناس فى إقامتها لتنصرف نفسه عن السياسة وأعراضها وأمراضها ، وليصعد فى سماء حلوة هادئة من الخيال الذى يبعث فى النفوس حياة وراحة ، وأملا ولذة ونعيما

وكل هذا خليق أن يهدئ حمى الأجسام وحمى النفوس ولكن مدينة البندقية لم تظفر عند رئيس الوزراء بما تظفر به عند الفلاسفة والكتاب والشعراء ، وعند عامة الناس أيضا . فلم تهدئ من حدته ، ولم تخفف من ثورته ، بل ركب السفينة كما ركب القطار إن صح ما تذيعه الأخبار من أنه أبرق إلى كبير الأمناء يلتمس تحديد الموعد الذى يتشرف فيه بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك بعد وصوله إلى الإسكندرية . اعترف بأنى أرجو كل الرجاء ألا يكون هذا النبأ صحيحا . فهو إن صح غريب حقا . فالناس جميعا يعلمون حق العلم أن كبار المصريين إذا آبوا من سفر بعيد أو قريب التمسوا أن يتشرفوا بالمقابلة الملكية ليرفعوا إلى صاحب العرش ما يجب عليهم من التحية وما تفيض به قلوبهم من الإكبار والإجلال . ورؤساء الوزارات وزملاؤهم الوزراء أولى الناس بذلك وأسرعهم إليه . والناس جميعا يعلمون أن هذه المقابلات إنما تطلب بعد العودة ، لا قبلها . وبعد أن يقيد طلابها أسماءهم فى سجل القصر . وما نظن أن مثل هذه المواعيد تطلب على هذا النحو بالبرق قبل ركوب البحر ، أو من على ظهر السفينة إلا أن تكون هناك أحداث جسام ، أو دون الجسام تحتاج إلى أن يتعجل رئيس الوزراء التماس هذا الموعد قبل أن يصل إلى الإسكندرية ، ولا سيما وقد علم الناس أنه سيتشرف بالمقابلة ، علم

الناس ذلك من طبيعة الظروف التى نحن فيها . وعلم الناس ذلك أيضا من تصريح رئيس الوزراء الذى أعلنه إلى الصحفى الإنجليزى وإلى مكاتب روتر قبل أن يترك باريس . فأنت توافقنى من غير شك على أن هذا النبأ إن صح – وأنا أتمنى ألا يكون صحيحا – يدل على أن هذه الأزمة السياسية قد وجدت من رئيس الوزراء رجلا ضعيف الحظ من المقاومة والاحتمال ، فأخرجته عن طوره ، وتجاوزت به حدود التقاليد .

والأنباء تحدثنا بأن القصر لم يحدد هذا الموعد الذى طلبه رئيس الوزراء بالبرق بعد . فسيصل رئيس الوزراء سالما موفورا غدا إن شاء الله إلى الاسكندرية ، وسيذهب رئيس الوزراء إلى رأس التين فيقيد اسمه فى سجل القصر كغيره من رؤساء الوزارات وكبار المصريين .

وفى الوقت بعد ذلك سعة يتلقى فيها رئيس الوزراء تحديد الموعد الذى طلبه للتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ، قد يتلقى تحديد هذا الموعد مساء الثلاثاء ، وقد يتلقاه يوم الأربعاء وقد يتلقاه بعد ذلك ، ولكن المعقول والمألوف والملائم لأوضاع القصر وتقاليد السياسة أن يتلقى تحديد هذا الموعد فى الإسكندرية ، لا فى البندقية ولا على ظهر السفينة .

وبعد فإن هذه التصرفات التى صدرت عن رئيس الوزراء منذ أيام ، وصح أكثرها فلم يبق عرضة للشك دليل واضح على أن الذين نصحوا لرئيس الوزراء بأن يعتزل الحكم ، ويريح نفسه من أعباء

السياسة حين ثقل عليه المرض لم يكونوا غاشين ولا مخطئين ، وإنما كانوا ناصحين حقا ، وموفقين إلى الصواب حقا .

وكل ما نتمناه أن تكون هذه الآخره التى ينتهى إليها حكم صدقى باشا عظة لغيره من الذين يتولون رياسة الوزارات تعلمهم أن النهوض بأعباء الحكم كما ينبغى ، وكما يليق يحتاج إلى صحة كاملة وقوة موفورة ونشاط لا يعرف الضعف ، ولا يخاف عليه الفتور .

استقبال

لم تشهد[1] مصر مثله قبل اليوم ، ولن تشهد مصر مثله بعد اليوم . سيكون هذا فى حياة مصر شاذًا فى تاريخها مهما يطل ومهما تبعد به العهود ، لأن رئيس الوزراء الذى ستستقبله مصر اليوم رجل فذ بين المصريين ، بل بين الشرقيين . لم تعرف مصر ولا الشرق مثله قديما ولن تعرف مصر ولا الشرق مثله حديثا .

ومتى رأى الناس مريضا يحكم حكم الأصحاء ، وضعيفا يحكم حكم الأقوياء ، وبعيدا يحكم حكم القريبين ؟ ومتى رأى الناس وزيرا يقنع الفقير المعسر بأنه غنى موسر ؟ والجائع المحروم بأنه مكتظ متخوم ؟ والخائف الجازع بأنه آمن وادع ؟ والمستعبد المستذل بأنه حر مستقل ؟ بل متى رأى الناس فى العصور القديمة والحديثة ساحرا كرئيس الوزراء قد خلب القلوب والعقول ، وسحر الأفئدة والنفوس فلم يصلح شيئا ، وأقنع الناس جميعا بأنه أصلح كل شىء .

وحياة الناس لا تعتمد على الحقائق والوهم ، فهم سعداء ، وهم راضون متى خيلت إليهم ذلك ، وأقنعتهم به ، وسواء عليهم بعد هذا

---

(١) ٥ - ٩ - ١٩٣٣

أكانوا سعداء فى حقيقة الأمر أم لم يكونوا . وقد نجح رئيس الوزراء نجاحا باهرا ووفق رئيس الوزراء توفيقا عظيما . فليس فى مصر الآن من يحسّ جوعا ولا ظمأ . وليس فى مصر الآن من يشكو فقرا ولا عسرا ، وليس فى مصر الآن من يخاف ظلما ولا عدوانا . وإنما الناس جميعا سكارى وما هم بسكارى ، قد سحرهم رئيس الوزراء عن حقائق الأشياء فقنعوا ورضوا ثم ملكهم الإعجاب وازدهاهم الإكبار فإذا هم لا يرون لمصر إلا منقذا واحدا ، هو رئيس الوزراء . وإذا قلوبهم كلها تلتف من حوله ، ونفوسهم كلها تطيف به ، وأشخاصهم كلها تهرع إليه . وإذا هو سيصل إلى الاسكندرية مساء اليوم فيرى معجزة من هذه المعجزات التى تعود أن يراها حتى هانت عليه وصغرت فى نفسه ، وأصبح لا يقيم لها وزنا ولا يحسب لها حسابا .

سيرى خمسة عشر مليونا من المصريين قد خفوا جميعا لاستقباله والاحتفال به ، لم يتخلف منهم شيخ فان ، ولا صبى ضعيف ، ولا طفل رضيع . لم يقعد منهم رجل ولا امرأة ، وإنما احتشدوا له من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . ووسعتهم كلهم مدينة الإسكندرية ، بل وسعهم كلهم هذا المكان الضيق الضئيل الذى سترسو فيه السفينة ، وستشرق فيه الشمس من مغربها حين يطلع على الناس رئيس الوزراء .

لو حدث بعض هذه المعجزة ، خمسها أو عشرها أو دون ذلك لأعظم الناس قدرا ، وأجل الناس خطرا ، وأرفع الناس شأنا ، وأبعد

الناس ذكرا ، لفتنه واستهوى قلبه ، وتجاوز به حد الرزانة والحلم والاعتدال ، ولكن رئيس الوزراء لا يفتنه ذلك ولا يزد هيه أكثر من ذلك ، فهو قد بلا ذلك كله ، حلوه ومره حتى عرفه فأحسن معرفته ، وحتى ضاق به وزهد فيه ، فسيشرف رئيس الوزراء إذن مساء اليوم على هذه الأمة المكرمة له ، الفانية فيه ، ثم يلقى عليها نظرة زاهدة ، فيها شيء من الملل والسأم ، وفيها شيء من التفضل والتعطف ، ثم يشير رئيس الوزراء بإحدى أصابعه إلى هذه الأمة أن انصرفى مشكورة مأجورة ، فقد نهضت بالحق لأهله وأديت ما عليك فعودى إلى ما أنت فيه من عيشة راضية ، ونعمة سابغة وصفاء مقيم ، ورخاء لا يريم وابتسام للحياة .

ثم يلقى ستار ، ويرفع ستار . فأما الستار الأول فسيلقى على هذه الفصول الفكاهية التى لم تمثل لمصر وحدها ، وإنما مثلت لمصر ولفرنسا وللعالم كله ، حينا فى فرسايل وحينا فى الإسكندرية ، وحينا فى محطة من محطات باريس والتى ألهت الناس وأضحكتهم فى مصر وفى غير مصر منذ أسبوع . فقد رأى الناس أن الوزارة القائمة كانت قوية ثابتة ، ولكنها عرضة للتعديل صباح الثلاثاء . ثم رأى الناس أن الوزارة قد تستقيل مساء الثلاثاء ، ثم رأى الناس أخذا وردا ، وتهاونا وشدا ، ومفاوضات يخفق بها البرق ويتموج بها الهواء ، ثم رأى الناس قوة على مصر ، فيها إنذار بالاستقالة ، وضعفا أمام الإنجليز فيه استعطاف واستجداء . ثم رأى الناس تعجلا لتحديد الموعد الذى يتشرف فيه رئيس الوزراء بالمقابلة الملكية ، ثم انتظر الناس ونشر لهم

برنامج مفصل للاستقبال والاحتفال والمقابلة وانفراج الأزمة باعتزال الحكم أو البقاء فيه .

على هذا كله سيلقى الستار الأول . أما الستار الثانى فسيرفع عن جد قد يكون خالصا ، وقد يكون مشوبا بالفكاهة . فقد غير البرنامج تغييرا فجائيا كما ترى فى غير هذا المكان ، وظهر أن المقابلة الملكية قد تكون بعد ظهر اليوم وظهر أن السفينة استطاعت أن تزيد سرعتها وأن تقدم وصولها إلى الثغر ، وظهر أن الأمر أجل خطرا مما كان يظن ، وأن الذين إليهم الأمر لا يريدون أن يطاولوا فى وضع حد لهذه الأزمة التى مهما يكن حظها من الفكاهة فإنها لا تخلو من خطر لما تثير فى نفوس الناس من العواطف المختلفة والميول المتناقضة ولما قد تحدثه هذه العواطف والميول من أثر فى حياة الناس . وإذن فسيبدأ القسم الجدى من هذه القصة منذ اليوم إن سمحت بذلك صحة رئيس الوزراء ، وسيتبين المصريون بعد وقت قصير أمر هذا الحديث الطويل الذى أثاره رئيس الوزراء منذ أسبوع : أكان جدا أم هزلا ؟ أكان إقداما أم كان فنا من فنون المداورة ؟ ولونا من ألوان الاختبار ؟ وسواء أصمم صدقى باشا على الاستقالة أم عدل عنها ، وسواء أقبلت الاستقالة أم لم تقبل ، فإن هناك حقيقة واقعة قد ظهرت كأوضح ما تظهر الحقائق الواقعة ، ولم تدع لأحد قدرة على أن يلقاها بقليل من الشك أو كثير . وهذه الحقيقة الواقعة الساطعة هى أن الأمة المصرية كلها – إلا الذين يعيشون لرئيس الوزراء ، وبرئيس الوزراء – قد ابتهجت واستشعرت الغبطة والرضى حين ألقى إليها أن هذه الوزارة القائمة قد تستقيل .

كما أن الأمة المصرية كلها – إلا الذين يعيشون لرئيس الوزراء وبرئيس الوزراء – قد ابتهجت واستشعرت الغبطة والرضى حين ألقى إليها أن المندوب السامى قد نقل . ومعنى هذا الابتهاج لهذين الحدثين أن الأمة المصرية كلها – إلا الذين يعيشون لرئيس الوزراء وبرئيس الوزراء ضيقة أشد الضيق بسياسة هذا العهد ، منكرة أشد الإنكار لهذه السياسة ، حريصة أشد الحرص على أن تخلص منها ، وعلى أن ترى الذين أقاموها وقد حيل بينهم وبين الحياة العامة وتصريف شئونها . وقد تفهم إرادة الأمة هذه على وجهها ، وقد لا تفهم ، وقد يحال بين صدقى باشا وبين الحكم ، كما حيل بين السير برسى لورين وبين تمثيل الإنجليز فى مصر ، وقد لا يحال ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه ، هو أن إرادة الأمة هذه واضحة جلية وأن لها قيمتها وخطرها ، وأنها إن أهملت اليوم – كما أهملت منذ ثلاثة أعوام – فإن هذا الإهمال لن يغنى ولن يفيد ، كما أن إهمال إرادة الأمة منذ ثلاثة أعوام لم يغن ولم يفد .

ومهما تكن النتيجة التى ستتكشف عنها الحوادث اليوم أو غدا فإن الشىء الذى لا يقبل شكا ولا مراء ، هو أن المصريين قد أظهروا اليوم كما أظهروا منذ ثلاثة أعوام ، بل أكثر مما أظهروا منذ ثلاثة أعوام ، وسيظهرون غدا أكثر مما يظهرون اليوم ، أنهم لا يرضون – مهما تكن الظروف والخطوب – أن يحكموا على غير ما يريدون وأن يساسوا بغير ما يحبون ، أو يقضى فى أمرهم وهم غائبون ، أو يتخذوا وسيلة إلى مناصب الحكم وما يتصل بها من الجاه والسلطان ، وأنواع المغانم والمآرب القريبة أو البعيدة .

إنما يريدون اليوم ، كما أرادوا من قبل وسيريدون دائما أن ترد أمورهم إليهم ، وأن يحكموا هم لمصالحهم ، لا لمصالح الأجانب مهما يكونوا ، ولا لمصالح قلة مصرية مهما تكن . فإذا فهم هذا كله على وجهه ، فليس من شك فى أن أمور مصر ستجرى على أحسن حال . وإذا لم يفهم هذا كله على وجهه فليس من شك فى أن المصاعب ستزداد ، وفى أن المشكلات ستضاف إلى مشكلات ، وفى أن الكوارث التى أخذت تطيف بهذا البلد ، والتى تدنو منه فى غير أناة ولا تمهل ، ستلم فى يوم قريب فلا تجد لها مصر دفعا ولا ردا ، وستكون آثار الكوارث شاملة لا تؤثر فريقا دون فريق ، ولا تصيب الظالمين خاصة وإنما تلم بالمسىء والبرىء . والله قادر على أن يلهم الناس من أمرهم رشدا ، وعلى أن يبين للناس أن سياسة الاستئثار وتسخير الشعوب لنفر قليل قد مضى عليها الزمن ، وأصبحت شيئا لا ينتج خيرا ما ، ولكنه ينتج شرا كثيرا .

والآن

كان[1] البحر خاشعا خاضعا ، وكان الجو مشرقا ساطعا ، وكانت السفينة بين ذلك تخطر فى كثير من التيه والإعجاب ، وكان الجمع ينتظر فى كثير من الإكبار والإجلال . وكانت الزوارق تسعى على هذا السهل السائل بين السفينة والمدينة ، يكاد يثقلها من تقل من الوفاء والولاء لرئيس الوزراء وكان القدر ومصر يلحظان هذا كله باسمين ، وينظران إلى هذا كله ساخرين ، لأنهما كانا يعلمان كيف دبر ذلك وكيف هيىء له ، ولأنهما كانا يعلمان كيف تكون عاقبة ذلك ، وإلى أين تصير به الأمور .

وكان رئيس الوزراء ينظر إلى هذا كله ، وعلى ثغره ابتسامة لها معنيان ، معنى لنفسه ومعنى للناس . فأما فى نفسه فقد كان ضيقا بهذا كله ، ساخرا من هذا كله . يعلم كيف دبرو يعلم إلى أين يصير .

وأما للناس فقد كان متكلفا الابتهاج الرزين ، مصطنعا الاغتباط المعتدل ، لا يريد أن يرى الناس يأسه ولا ضجره ، ولا يريد أن يحسّ

(١) ٦ - ٩ - ١٩٣٣

الناس ضيقه ولا ضجره ، وإنما يريد أن يروا منه ما ينبغى أن يظهر على الجلد الصبور

وكانت هذه الحركات التى وصفتها الصحف من تحية للصاعدين إلى السفينة وخلوة إلى النائب عن رئيس الوزراء ، ثم نزول إلى الزورق وابتسام للمستقبلين ، وذهاب إلى رأس التين واحتمال لهذه المشقة التى تفرضها السياسة على أهلها من لقاء الأعوان والأنصار ، والاستماع للكلام الذى لا يفيد ، والرد عليه بكلام لا يقول شيئا ، ثم الاستراحة ، ثم المقابلة الملكية ، ثم العودة إلى الدار ، ثم نفثة المصدور ، وتنهد الرجل الذى خلص من التكاليف ، وخلا إلى نفسه ليفكر ويستريح .

وكان شيء من الحزن القائم يظلل هذا كله ويلقى عليه رداء يثير فى نفوس المحتفلين كثيرا من الكآبة وكسوف البال . وكان شيء من السخرية الضاحكة الكئيبة يظلل مصر كلها ، فيرسم على وجوه الناس ابتهاجا وابتئاسا فى وقت واحد . فأما الابتهاج فمصدره إخفاق هذه السياسة المنكرة التى سلطت على مصر ثلاثة أعوام ، فلم تبلغ منها شيئا إلا أن زادتها يقينا وإيمانا ، وتثبيتا وإصرارا على الحق ، وجدا فى الوصول إليه . ثم انتهت بعد ذلك إلى ما انتهت إليه من اعتراف الإنجليز بالفشل ، ونقل ممثلهم إلى حيث يستطيع أن يكون نافعا لبلده ، لا يكسب له عداوة الأمم وبغض الشعوب . ومن اعتراف رئيس الوزراء بخيبة الأمل والعجز عن العمل ، واضطراره إلى أن يرفع إلى جلالة الملك رغبته فى أن يريح ويستريح . ومن حق الشعوب أن

تبتهج إذا وجه إليها الكيد فلم يفلح ، ودبر لها المكر ثم لم يصب منها مقتلا . وأما الابتئاس الذى كان يصاحب هذا الابتهاج على وجوه الناس فمصدره أن هذا الشعب العامل الجاهد فى العمل ، النشيط الغالى فى النشاط الذى يجعله عمله وأمله ، ونشاطه وجده أهلا للحياة الراقية الصالحة العزيزة الكريمة ، خليقا بأن يظفر بحريته كاملة ، واستقلاله موفورا ، ينظر فإذا حقه يضاع وإذا كرامته تهدر ، وإذا أموره تدبر على غير ما يريد ، لا يسأل فى ذلك ولا يستشار حتى إذا أعرب عن إرادته ، لم يسمع له ولم يلتفت إليه كأنه لم يوجد بعد ، أو كأنه وجد ليستغل ويستذل ، ويتخذ وسيلة لإرضاء الأهواء والشهوات ، وتحقيق المآرب والمنافع وتمكين الواثبين إلى مناصب الحكم من الاستمتاع بالجاه والسلطان وتمكين المستعمرين من الأجانب من بسط النفوذ وملء الأيدى بالأموال ، ومن حق الشعوب أن تبتئس حين تزرع الخير فلا تجنى ألا شرا ، وحين تسعى إلى الحرية والاستقلال فيضطرها النفعيون إلى ما تكره من الخضوع والذل ، وحين تنفق ما تملك من القوة والجهد لتثبت أنها مخلصة نقية الضمير ، لا تريد بأحد سوءا ، ثم ترى أن غيرها يلقاها بنية ملتوية ، وضمير معوج ، ولا يريد بها إلا الشر والمكروه .

نعم من حق الشعوب ان تبتهج إذا لم يبلغ منها كيد الكائدين ، ومن حق الشعوب أن تبتئس إذا سلط عليها الشر ولم تكن له أهلا . ومن حق الشعب المصرى أن يبتهج حين يرى سياسة السير برسى لورين ودولة صدقى باشا تنتهى إلى نقل أحدهما واستقالة الآخر . ومن

حق الشعب المصرى أن ييئس إذا رأى أن الجو السياسى قد كثر فيه الضجيج والعجيج ، واشتد فيه اللجب والاصطخاب وكثر فيه السعى الظاهر ، والسعى الخفى منذ أكثر من أسبوع ، لا لشىء إلا لأن رجلا واحدا من الناس يريد أولا يريد أن يحتفظ بالسلطان . يراد له أو لا يراد له أن يظل فى منصب الحكم . فأما الشعب نفسه ، الشعب الذى يكد ويجد ، الشعب الذى يعمل ويأمل ، الشعب الذى لولا وجوده وجهوده ما كانت دولة ولا حكومة ، فليس موضوع تفكير ولا تقدير ، وإنما هو شىء مهمل فى زاوية من زوايا الحياة السياسية ، عليه أن يحتمل الخطوب ويتجشم الهول ، ويصبر على أثقل الأعباء وأشد الحوادث نكرا ، ولغيره من هؤلاء السادة القليلين الذين يتولون الحكم أو يتهيأون له أن يدبروا بينهم أمر الحكم : أيبقى فى يد أولئك ، أم ينتقل إلى يد هؤلاء ؟

هذا كثير وهو خليق أن يحزن الشعب ويسوءه ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يضعف إيمان الشعب بحقه أو يغل عزم الشعب على المطالبة بهذا الحق ، والجد فى الظفر به والوصول إليه .

لقد أعلن رئيس الوزراء عزمه على الاستقالة ، ثم رفع رئيس الوزراء إلى جلالة الملك رغبته فى الاستقالة . وأخذت أحاديث الناس تستفيض عن مصير الحكم إذا استقال صدقى باشا : أيصير إلى الحزبين المؤتلفين ، أم يصير إلى حزب الاتحاد دون حزب الشعب ؟ وأخذت أحاديث الناس تستفيض عن أساليب الحكم إذا استقال

رئيس الوزراء ، أتبقى كما شرعها ورسمها ، أم يصيبها التغيير قليلا أو كثيرا ؟

وكم كان الشعب المصرى يحب أن تستفيض أحاديث الناس بأن أمور الحكم سترد إليه ، وبأنه هو قد أصبح موضوع ما يجيله الساسة سرا أو جهرا من رأى ، وما يهيىء الساسة سرا وجهرا من تدبير .

فقد مضى وقت طويل كان الوزراء ورؤساء الوزارات فيه موضوع الحديث والتدبير . مضى وقت طويل صرفت فيه أمور الشعب على غير ما يرضى . وآن الوقت الذى ينبغى أن تصرف فيه أمور الشعب على ما يرضى .

نعم لقد طال إهمال الأمة فى حساب الساسة ، ودل كل شىء على أن هذا الإهمال لا يؤدى إلى خير ، ولا ينتهى إلى نجاح . فمتى يريد الله إلهام الساسة أن يسلكوا إلى الحكم طريقه الطبيعية المستقيمة فيلائموا بينه وبين آمال الأمة وأمانيها وحقها فى الحرية والاستقلال ؟

حلول

لم ينته[1] تمثيل هذه القصة البديعة التى أراد رئيس الوزراء أن يفكه الناس بها منذ عشرة أيام . وقد ينتهى هذا التمثيل اليوم ، وقد ينتهى غدا ، وقد يطول أمده أياما . وإذن فمن حق الناس أن يحمدوا لرئيس الوزارة هذه الفكاهة التى أراد أن يسليهم بها عما يطيف بهم من الهموم .

تلميح بالاستقالة ، ثم تصريح ، وتفكير فى الاستقالة ثم تصميم عليها ، ثم تحدّ وإنذار ، ثم تراجع واعتدال ، ثم تردد هو إلى العدول أقرب منه إلى المضى والتصميم . ولن يشرق صبح الغد ، ولن يقبل الليل حتى يكون رئيس الوزراء قد تقدم خطوة أو خطوات فألقى ستارا على هذا الاضطراب ، ورفع ستارا عن فصل جديد من فصول القصة .

على أننا نشك كل الشك فى أن يكون الأمر كله هزلا ، أو أن تكون القصة كلها فكاهة . وأكبر الظن أن وراء هذا الهزل جدا ،

---

(١) ٧ - ٩ - ١٩٣٣

وأن من دون الفكاهة أشياء أقل ما توصف به أنها عظيمة الخطر ، بعيدة الأثر فيما بقى لرئيس الوزراء من حياة سياسية قد تقصر وقد تطول .

ولعل الرسالة التى بعث بها مكاتب الديلى تلغراف إلى صحيفته قبل أن يترك الإسكندرية والتى أقلقت رئيس الوزراء ، وأخرجته من صمته ، ودفعته إلى أن يطلب الرحمة والإنصاف من الديلى تلغراف ، والتى أقامت الوزراء وأقعدتهم ، وملأت قلوب الأنصار هلعا ورعبا ، ودعت إلى إقامة الحفلات وإلقاء الخطب ، نقول لعل هذه الرسالة أن تكون أدلة نذير نبه رئيس الوزراء إلى أن الجو من حوله لم يبق صفوا ولا صحوا . فقد أكد مكاتب الديلى تلغراف فى رسالته تلك — نقلا عن مصدر موثوق به — أن الوزارة القائمة لا مقام لها فى مناصب الحكم ، وأن الحمق وحده هو الذى أخرج من هذه الوزارة رجالا لهم — فيما يقول مكاتب الديلى تلغراف أو مصدره الموثوق به — كفاية نادرة وتفوق عظيم .

فقد كان من الحق أن يعرف رئيس الوزراء حقيقة هذا المصدر الموثوق به الذى ألقى هذا الوحى إلى مكاتب الديلى تلغراف ، وكأن رئيس الوزراء قد عرف هذا المصدر فضاق به ، فإذا أضفت هذا إلى مالا بد منه من أن هذا المصدر لم يكن يكيد لرئيس الوزراء بالقول وحده ، وإنما كان يخاصمه ويقاومه بالعمل أيضا ، فيجدّ فى وقف أشياء كان رئيس الوزراء يحب أن تمضى ، وفى إمضاء أشياء كان رئيس الوزراء يحب أن تقف ، عرفت أن هذه القصة الفكاهية التى

تشهدها مصر ، ويشهدها العالم معها ليست لعبا كلها ، وإنما هى قصة ظاهرها اللعب والفكاهة وباطنها الجد المخيف .

وقد زعمت الصحف وكانت الأهرام فى مقدمتها أن رئيس الوزراء قد عرض مطالب ، وجعل قبولها شرطا لبقائه فى الحكم . وأخذ الناس يسألون عن هذه المطالب ، ويلتمسونها ويحاولون أن يعرفوا على من عرضت هذه المطالب ، لمن قدمت ؟ ولمن كان التحدى الذى أظهره رئيس الوزراء ؟ ولم يجب أحد فى صراحة على أسئلة الناس هذه ، ولكن الغموض أخذ ينجلى قليلا فتحدث الناس وتحدثت الصحف هنا وهناك بأن رئيس الوزراء ضيق ببعض زملائه ، وأنه يريد أمرين : أحدهما أن يخلص له أمر الحكم فلا يشاركه فيه أحد . والثانى أن يغير تأليف الوزارة ليخرج منها بعض الأشخاص ، وألح الناس وألحت الصحف فى هذا الحديث ، ثم أخذ رئيس الوزراء منذ أمس يظهر استعداده للعدول عن الاستقالة ، والنهوض بأعباء الحكم بعد أن كان مصرا على أن يلقيها عن كتفيه . فهل أجيب رئيس الوزراء إلى مطالبه هذه فكفت بعض الأيدى عن أن تعمل فى الحكم الذى يريد رئيس الوزراء أن يكون خالصا له ، لا يضايقه فيه أحد ؟ وأذِن لرئيس الوزراء فى أن يغير تأليف وزارته ليخرج منها الذين يضيق بهم من الزملاء .

هذه الصحف تتحدث اليوم بشىء عن حفلة الشاى التى أقيمت لرئيس الوزراء أمس ، فحضرها من حضرها ، وغاب عنها من غاب . وفى أحاديث الصحف وملاحظاتها تلميحات لا تحتاج إلى

شرح ولا إلى تفسير . وهذه الأنباء تصل – وقد نشر بعضها فى الصحف – بأن رئيس الوزراء قد يدخل فى وزارته قوما ليسوا منها ، ويخرج من وزارته قوما يعملون فيها . وإذن فقد أجيب رئيس الوزراء إلى ما كان يريد كله أو بعضه ، ولكن هذا كله أحاديث لا يظهر وجه الحق فيها إلا مساء اليوم أو صباح الغد . وقد شهدنا القصة عشرة أيام فليس يمنعنا أن نشهدها يوما أو بعض يوم ، على أن التفكير فى هذا كله ينتهى إلى نتيجتين اثنتين : الأولى أن الطريق السياسية الداخلية لم تبق سهلة ولا ممهدة أمام رئيس الوزراء منذ اليوم . فقد أخذ صدقى باشا يلقى ما لقيه غيره من الوزراء من هذه المرارة الممضة التى تشوب الحكم حين يبلغ أعقابه ، وينتهى إلى آخره . ولو نصح صدقى باشا لنفسه لاستقال ، لا إيثارا لصحته ، فقد يظهر أن الحكم آثر عنده من الصحة ، ولكن لسبب آخر يعرفه هو حق المعرفة . وهو أن الحكم لن يحلو له منذ اليوم ، وهو أن طريق الحكم لن تخلو من الصعاب والعقاب ، ومن الشوك المؤذى منذ اليوم .

والثانية أن كل هذا الضجيج والعجيج ، وكل هذه المداورات والمناورات ، وكل هذا الإقدام والإحجام ، إنما يدور حول أشخاص بأنفسهم يراد أن تبسط أيديهم فى الحكم ، أو أن تكف أيديهم عن الحكم قليلا أو كثيرا ، لا حول المصلحة الوطنية الكبرى . فسواء على مصر أبقى رئيس الوزراء يختلف إلى ديوانه ، أم لزم داره ، وسواء على مصر أأطلقت يد رئيس الوزراء فى الحكم إلى غير حد ، أم كفت يد رئيس الوزراء عن هذا الحكم بعض الشىء . وسواء على مصر أخلص الحكم لرئيس الوزراء وحده ، أو شاركه فى الحكم هذا

الموظف الكبير أو ذاك ، وسواء على مصر أكان زملاء رئيس الوزراء شعبيين أم اتحاديين أم مستقلين . كل هذا سواء على مصر لأن مصر تضيق بالسياسة التى رسمها رئيس الوزراء ومضى فى تنفيذها ، فجرت على مصر ما جرت من الشر ، وجنت على مصر ما جنت من المكروه .

ومصر لا يرضيها شيء من هذه الحلول ، أو من هذا اللعب الذى تنطلق به الألسنة ، وإنما الشيء الوحيد الذى تريده مصر ، ولن ترضى غيره ، هو أن تكون هى موضع التفكير ، وأن تكون هى موضوع كل حساب ، وأن يكون تغيير الوزارات وسيلة إلى إرضائها ، وتحقيق منافعها ، لا إلى إذلالها واستغلالها ، والتنافس حول الجاه والسلطان لمن يكونان ؟

ويظهر أن الساسة الذين يديرون بينهم أمور الحكم فى مصر لا يريدون أن يجاروا آمالهم وأمانيهم حتى يعجزوا عن هذه المجاراة ، بل يظهر أن هؤلاء الساسة الذين يديرون بينهم أمر الحكم فى مصر لم يرزقوا من التبصر والتوفيق مثل ما رزق الإنجليز الذين ينظرون إلى أمور السياسة فى مصر من بعيد أو قريب .

هؤلاء يغيرون مندوبهم السامى لأنهم يقدرون الظروف ويفهمونها ، ويعرفون قيمة الحقائق الواقعة ويريدون أن يلقوها بما ينبغى من الحذر والفطنة . وأولئك يمضون فى طريقهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم ولا يقفون إلا عند ما يريدون أن يكون لهم من القوة والجاه . ومهما يكن من شيء فإن الأزمة الوزارية القائمة ليست إلا

موجة صغيرة من هذا الموج الذى يثيره النسيم على سطح البحيرة ، والذى لا يلبث أن يزول دون أن يغير شيئا .

فأما الأزمة الحقيقية التى ينبغى التفكير فيها ، والجد فى حلها ، فهى أبعد من ذلك مدى ، وأعمق غورا ، وأشد تعقيدا ، وأعسر من أن تحل بالتوفيق أو العجز عن التوفيق بين رئيس الوزراء وغيره من كبار الموظفين .

فليقم رئيس الوزراء ، أو ليستقل ، فإن إقامته لا تغير شيئا واستقالته لا تغير شيئا ، وستبين الأيام لرئيس الوزراء أن الأمر أشد عسرا مما يظن .

معلق

رئيس[1] الوزراء معلق بين البقاء فى الحكم والنزول عنه كما كان المندوب السامى معلقا بين البقاء فى القاهرة والانتقال عنها . وكل ما نرجوه لرئيس وزرائنا المريض ، ألّا يطول تعليقه كما طال تعليق المندوب السامى . فمهما يكن حظ الرجل من الشفاء وحسن الحال ، فإن هذا التعليق مؤذ للأصحاء فضلا عن المرضى ، وقد كانت أسرار هذا التعليق غامضة ، شديدة الغموض عند الذين يخوضون فى أحاديث السياسة ، فهم جميعا يؤمنون إيمانا لا يخالطه الشك فى أن نقل المندوب السامى أمر من أمور الإنجليز ، قد يكون جدا من الجد ، وقد يكون لهوا من اللهو ، ولكنه على كل حال مقصور على الإنجليز ، لا يمس مصر بقليل ولا كثير . وماذا يعنى مصر أن ينقل الإنجليز مندوبا ويرسلوا مندوبا . أو ينقل الفرنسيون وزيرا ويرسلوا وزيرا ؟ فالإنجليز أحرار فى بلادهم ، والفرنسيون أحرار فى بلادهم ، والمصريون أحرار فى بلادهم ، لكل منهم أن ينقل ويعزل ، وأن يغير ويبدل دون أن يكون لغيره حق فى أن يعرض له أو

---

(١) ٨ - ٩ - ١٩٣٣

يتدخل فى شأن من شئونه ، فإن فعل فهو الاعتداء الصارخ والنذير بالشر العظيم .

ذلك شيء كان يؤمن به الناس جميعا ، لا يشكون فيه ولا يرتابون ، ولم يخطر لهم على بال أن الإنجليز حين نقلوا مندوبهم بعد أن علقوه ، قد يسقطون رئيس وزارتنا بعد أن يعلقوه أيضا . ولهذا أخذ الناس يتساءلون عن الحبال التى علق بها مركز وزارتنا القائمة : ما هى ؟ ومم صيغت ؟ ومن صاغها ؟ قال لهم قائلون : إن هذه الحبال إنما هى حبال المرض الذى أصاب رئيس الوزراء منذ أشهر طوال ، فلم يصدقوا ؛ لأن الأزمة لم تظهر حين مرض رئيس الوزراء ، ولا بعد أن مرض بزمن قصير أو طويل . وإنما ظهرت بعد أن تقدم رئيس الوزراء نحو الشفاء وأرضى عن حاله الأطباء ، وبعد نقل المندوب السامى قيل لهم إن هذه الحبال إنما هى الخلاف بين رئيس الوزراء وبين موظف من كبار الموظفين ، فشكوا فى ذلك وأنكروه ، لأن أمر رؤساء الوزارات ليس إلى الموظفين مهما كبروا ، وإنما هو إلى البرلمان وصاحب العرش . ورئيس الوزراء يعلن ويعلن أنه مستمتع بثقة البرلمان وما ينبغى له غير ذلك . وأنه مستمتع بعطف جلالة الملك ، فوقوع خلاف بينه وبين موظف مهما يكن كبيرا أو صغيرا لا ينبغى أن يعلقه ، ولا أن يحرجه ، ولا أن يضطره إلى أن يستقيل أو يفكر فى أن يستقيل . وقد يوجد هذا الخلاف ، وقد يضيق به رئيس الوزراء ، ولكنه على كل حال أيسر أو ينبغى أن يكون أيسر من أن يثير أزمة وزارية حادة كهذه الأزمة التى نشهدها الآن .

ولكن الأهرام ظهرت صباح اليوم ، وفيها أنباء تدعو إلى التفكير ، وإلى التفكير الطويل الدقيق . وتبين أنا لم نكن مخطئين أمس حين قلنا إن وراء هذه الأزمة القصة الفكاهية التى تشهدها مصر ، ويشهدها العالم ، جدا لعله أن يكون مخيفا .

والأهرام تقطع بهذه الأنباء وتؤكدها تأكيدا . والأهرام تشفق من هذه الأنباء وتدافع عن رئيس الوزراء ، وتلتمس له المعاذير من حسن النية وزعامة الكثرة البرلمانية . وخلاصة هذه الأنباء التى تؤكدها الأهرام ، أن رئيس الوزراء بداله أن يستقيل حين كان فى أوربا ، والأهرام لا تعلل هذا التفكير فى الاستقالة ، فعلله أنت كما تشاء ، ولكن رئيس الوزراء أراد أن ينشىء الأزمة وأن يوجد لها الحل . فأرسل كتابا إلى مصر ، يقسم فيه الأمر تقسيما ، فيقترح أن تكون رياسة الوزارة لصاحب المعالى شفيق باشا ، وأن تكون له هو زعامة الكثرة فى البرلمان . وقد ذكرنا حين قرأنا هذا الكلام فى الأهرام كلاما آخر نقرؤه فى التاريخ يضاف إلى أحد المتنبئين وهو قوله : لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يظلمون .

وقد أنكرنا هذا الكلام حين قرأناه فى الأهرام لأنه يخلف ظننا برئيس الوزراء إلى أبعد حد ، ويغير رأينا فى رئيس الوزراء إلى أبعد مدى . فقد كنا نرى فى رئيس الوزراء ما نرى من إيثار العنف على اللين وسياسة القهر على سياسة المودة ، وفرض نفسه على أمته فرضا ، واضطراره بحكم هذه السياسة إلى طائفة من الأغلاط المنكرة فى تصريف الأمور ، ولكنا كنا نعتقد اعتقادا لا يشوبه الشك أن

رئيس الوزراء سياسى لبق ماهر واسع الحيلة عميق العلم بأمور السياسة ، قوى الإلمام بواجبات الساسة . وكما نأبى أن نفكر فى أن رئيس الوزراء يمكن أن يؤتى من ناحية التقصير فى بسائط السياسة وأولياتها . ومن أبسط البسائط السياسية ، أن رؤساء الوزارات إذا أرادوا أن يستقيلوا رفعوا استقالاتهم إلى رئيس الدولة حتى إذا أراد رئيس الدولة أن يستشيرهم فى شىء كانوا عندما يريد من تقديم المشورة ناصحين له وللدولة ، مخلصين له وللبلاد . فاما أن يستقيل رؤساء الوزارات ويشيروا مع ذلك بمن يحبون أن يخلفهم على كرسى الحكم فشذوذ كنا نصدق كل شىء قبل أن نصدق أن يقع من رئيس وزرائنا الماهر الكفء . والمعروف من التقاليد فى البلاد الديمقراطية أن رؤساء الوزارات إذا استقالوا فلرئيس الدولة أن يراجعهم فى هذه الاستقالة أو لا يراجعهم ، ولرئيس الدولة أن يقبل هذه الاستقالة ثم يستشير بعد ذلك فى أمر الحكم رئيس البرلمان من الساسة والزعماء ، ثم يسند الوزارة إلى من يرى بعد ذلك .

فكان المألوف والمعقول والملائم للواجب والتقاليد أن يستقيل رئيس الوزراء إذا لم ير من الاستقالة بدا ، ثم ينتظر حتى يراجعه جلالة الملك فى هذه الاستقالة أو يستشيره فيمن يخلفه قبل أو بعد أن يستشير غيره من الساسة والزعماء .

ولكن رئيس الوزراء خالف هذه التقاليد كلها ، إن صح ما قالته الأهرام ، ونحن نرجو ألّا يكون صحيحا برغم هذا التأكيد القاطع الذى تلح الأهرام فيه . خالف رئيس الوزراء هذه التقاليد ، فأشار

قبل أن يستشار ، وسبق رئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الشيوخ إلى إبداء الرأى . وقد يكون مصدر ذلك إيمان صدقى باشا بزعامته لحزب الشعب . وبأنه سيكون زعيما للكثرة فى البرلمان بعد أن يخرج من الحكم ، ولكن زعيم الكثرة نفسه - وهو زعيم للكثرة بالفعل ليس له أن يشير على جلالة الملك قبل أن يستشيره جلالة الملك . وليس له أن يتقدم بمشورته قبل رئيس البرلمان لأنه مهما يكن زعيم كثرة ، فهو زعيم فريق من النواب والشيوخ ، يجب أن يتقدمه رئيس النواب جميعا ، ورئيس مجلس الشيوخ جميعا . وزعيم الكثرة يمثل حزبا ، ورئيس أحد المجلسين يمثل الأحزاب التى يتألف منها مجلسه ، ولكن هذه الحقائق كلها غابت عن رئيس الوزراء ، لأنه متعب مكدود ، أو لأنه مؤمن بنفسه وبقوته أكثر مما ينبغى .

والغريب أن أنصار الوزارة القائمة ينكرون على خصومهم أنهم كانوا طغاة يستأثرون بالأمر دون أنصارهم وأعوانهم وزملائهم ، ولكنا لا نعرف أن أحدا من هؤلاء الخصوم وصل به اعتداده بالنفس إلى أن يشير على جلاله الملك قبل أن يستشيره ، أو يتقدم رئيسى المجلسين بحجة أنة زعيم الكثرة . إنما يقع هذا الشذوذ من رئيس الوزراء الذى جاء فيما يقول لمحاربة الطغيان الشعبى والقضاء عليه

ومن المعقول بعد ذلك أن تكون هذه الأزمة التى نشهدها دقيقة مظلمة ، شديدة التعقيد ، فإن رئيس الوزراء إن صح ما قالته الأهرام ، قد أحدث أو حاول أن يحدث بهذه الغلطة سابقة سيئة لا تلائم الحياة الدستورية فى بلد من البلاد ، وهى رفع رئيس الوزراء إلى

حيث يرى سمسه هذا الحق الغريب ، وهو ألّا يستقيل حتى يولى عهد الوزارة بعده من شاء من الزعماء .

هذا كثير ، وأكثر منه أن يقع من رئيس الوزراء ، ونحن نرجو ونلح فى الرجاء أن يكون هذا الحديث الذى أذاعته الأهرام وَهماً كله . ونحن نرجو ونلح فى الرجاء أن يكذب هذا الحديث تكذيبا قاطعا ، ونحن لا نشك فى أن هذا الحديث إن صح فقد تكون آثاره أبعد جدا مما يظن الذين يتحدثون فى الشئون السياسية من الوزاريين .

فلننتظر ، فقد لا تغرب الشمس مساء اليوم إلا وقد كذب هذا الحديث تكذيبا قاطعا ، فصفا الجو من هذا السحاب المنكر أو لم يكذب هذا الحديث ، فأصبحت استقالة الوزارة أمرا ليس منه بد ، وليس إلى الشك فيه من سبيل .

بغى

لم يخطىء[1] الفرزدق تصوير العرب حين قال فى لاميته المشهورة :

أحلامنا تزن الجبال رزانة　　　وتخالنا جنا إذا ما نجهل

وقد كان صديقى العزيز عبد الرحمن عزام جنيا منذ أيام حين قرأ جملة قصيرة فى فصل طويل فصال وجال ، وطلب الطعن والنزال ، وخيل إليه أنه فى ميدان قتال وكتب ذلك الفصل الطويل الذى نشرته له البلاغ مدافعا عن العرب ولم يهاجمهم أحد ، ذائدا عن كرامتهم ولم يغض منهم أحد ، مثبتا لمجدهم ولم ينكره عليهم أحد ، داعيا إلى المبارزة والمناجزة كأنه فى ميدان من هذه الميادين التى كانت تتجلى فيها قوة الفرسان من العرب وشجاعتهم وبأسهم والتى تجلت فيها قوته هو وشجاعته هو ، وبأسه هو فى أيام ليس عهدها ببعيد .

ولكن أحدا لم يبرز له لأن أحدا لم يسىء إليه ولا إلى العرب ، ولم يقترف هذا الإثم الذى أغضبه وأحفظه وملأه بهذه العزة الشامخة

---

(١) ٨ - ٩ - ١٩٣٣

الباذخة ، عزة عامر بن الطفيل ومن إليه من فرسان العرب الأقدمين .

فصديقى عبد الرحمن عزام يعلم حق العلم إذا حلا إلى نفسه وسأل ضميره – وما أشك لحظة فى أن ضميره نقى صادق – أنى لست من خصوم العرب ، ولا المنكرين لما كان لهم من مجد مؤثل وعز باق على الزمان . وهو يعلم حق العلم أنى لست خصما للنهضة العربية الحديثة ، ولا لهذه الدعوة التى يذيعها العرب إلى وحدتهم القومية بأى شكل من أشكالها ، لأنى تحدثت إليه فى ذلك غير مرة منفردين وبملأ من الناس ، فهو إن شك فى شىء فلا يستطيع أن يشك فى أنى أبعد الناس عن الإساءة إلى العرب أو الازورار عنهم .

ولكنه مع ذلك اختزل هذه الجملة القصيرة من ذلك الفصل الطويل وكتب حولها ذلك المقال الذى نشر فى البلاغ . والغريب جدا أن هذا المقال نشر فى نفس اليوم الذى نشرت فيه « الشعب » مقالا مثله .

وكنت أفهم أن تذهب « الشعب » هذا المذهب فإن بين « الشعب » وبينى من أسباب الخصومة ما يدفعها إلى ألوان من الكذب والتجنى وإلى ضروب من الكيد والدس . فأما أن يذهب صديقى عبد الرحمن عزام هذا المذهب فأمر لا أستطيع له تأويلا ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد أثار مقال صديقى عبد الرحمن عزام حركة أو شيئا يشبه الحركة فى دمشق ، لو كنت مكانه لا ستحيت لأنى كنت سببا

لإثارته، فإن إغراء الناس بالناس عمدا أو عن غير عمد ، ودعوة الناس إلى الجناية على حرية الرأى عمدا أو عن غير عمد ، ليس من الأشياء التى يبتهج بها أو يطمئن إليها كاتب فضلا عن أن يبتهج بها أويطمئن إليها مجاهد فى سبيل الحرية والاستقلال .

وكنت أحسب أن صديقى عبد الرحمن عزام سيكون أسرع الناس إلى إنكار هذا الشر انتصارا للعرب ، وظهورا لحجتهم وتثبيتا لمجدهم الأثيل . ورأت البلاغ لذة غريبة فى أن تطيل الحديث حول هذا الشر ، فتنشر ما قالته صحيفة من صحف دمشق ، ثم تنتظر يوما حتى إذا كان الغد عادت فلخصت ما نشرته هذه الصحيفة ليكون أشد استقرارا فى نفوس القراء ، وانتشارا بينهم ، ثم أخذت تناقش هذه الصحيفة .

وبعد أن تقرر أن الدكتور طه حسين أخطأ خطأ عظيما ما فى ذلك شك . ولذلك أحجم عن الرد على الأستاذ عبد الرحمن عزام

فأنا أهنىء البلاغ بما لا أهنىء به صديقى عبد الرحمن عزام من هذه المهارة فى إذاعة الشر على الناس فى غير تحر ، لا تثبت . وأحب أن أقول للبلاغ ولصديقى عبد الرحمن عزام إنى لم أحجم عن الرد ، ولم أمتنع عن المناقشة اعترافا بالخطأ ، أو عجزا عن الرد ، وإنما عرفت نية القوم فأعرضت عن جدالهم ، وكرهت أن أشغل المصريين بالكلام الذى لا غناء فيه والجدال فى أمر لم يرد به وجه الله ، ولا وجه آخر من هذه الوجوه المشرقة الطلقة ، وإنما أريد به وجه قاتم مظلم ، لا يستطيع أن يجلو نفسه للناس .

ولعل « البلاغ » قد فهمت عنى ، ولعل صديقى عبد الرحمن عزام قد كان أسرع منها إلى الفهم وإلا فإن صديقى عبد الرحمن عزام والذين يكتبون جميعا فى صحيفة البلاغ ، ليسوا من الجهل بالتاريخ والغفلة عن حقائقه بحيث يعتقدون أن حكم العرب فى مصر قد كان كله خيرا وبرا ، وعدلا وإنصافا . وقد برىء من الجور والحيف وخلص من البغى والطغيان . وهذا كلام يقوله العامة وأشباه العامة . فأما المثقفون - وفى مقدمتهم صديقى عبد الرحمن عزام وكتاب البلاغ - فيعلمون حق العلم أن حكم العرب لمصر كان فيه الخير أول الأمر حين حمل إلى مصر الإسلام ولكنه بعد ذلك كان كحكم العرب لجميع البلاد الإسلامية مزاجا من الخير والشر ، ومن العدل والجور . وقد ضاقت مصر به وثارت عليه ، وجدَّت فى الثورة حتى ظفرت باستقلالها من السلطان العربى ، وحتى كلفت الخلفاء من بنى أمية والعباس عناء غير قليل . وإنه لمما يحزن أن نحتاج إلى تقرير مثل هذه الأشياء التى لا ينبغى أن تحتاج إلى تقرير ، لأنها من الأوليات التى لا يمكن فيها الاختلاف .

وعفا الله عن قوم يريدون شيئا فيسلكون إليه طريق الذود عن العرب والدفاع عن الأحساب والأنساب ، لأنهم لا يستطيعون أن يسلكوا إليه طريقه الواضحة المستقيمة . ولو قد سلكوها لو جدوا شوكا وحسكا كثيرا .

أما بعد فأحب أن يعلم صديقى عبد الرحمن عزام ، وأن تعلم البلاغ أنى لا أخاف مثل هذا المكر ، ولا أحسب له حسابا ، وإنما

أشفق منه على أهله ، لأن الله عز وجل قد أنذر أهل المكر السيىء بعذاب شديد .

وأعود فأختم هذه الكلمة كما بدأتها ببيت من شعر الفرزدق يظهر أنه قد صور أصحابنا تصويرا دقيقا ، وهو

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

أما إخواننا من أهل الشام فإن لى معهم حديثا آخر .

تأجيل

وخرج[1] النظارة من الملعب وهم يضحكون ويتساءلون ، فقد كان فى الملعب ما يضحك ويلهى . وقد كان فيه ما يدعو إلى التساؤل ويحمل على الانتظار . تلميح بالاستقالة ثم تصريح وإقدام على الاستقالة ثم إحجام ، والحاح فى الاستقالة ثم تردد ، واستتار بالصحة واستشهاد بالأطباء ، ثم تراجع على طول الخط واستقرار على الكرسى كأن لم يكن تلميح ولا تصريح ، وكأن لم يكن إقدام ولا إحجام ، وكأن لم يكن تحد ولا تصد ، وكأن لم يكن عزم ولا تردد ، وكأن الأمر يجرى مطّردا كهيئته يوم سافر رئيس الوزراء معتزما أن يحكم غائبا وحاضرا ، وأن يصرف الأمور معتلا وصحيحا .

كل هذا أضحك النظارة وألهاهم . وكل هذا دعا النظارة إلى أن يتساءلوا : هل ألقى الستار على الفصل الأخير ، وهل سيرفع الستار عن فصل أو قصة أخرى ؟ وهل يطول الانتظار لهذا الفصل وهل يقصر هذا الانتظار ؟

---

(١) ٩ - ٩ - ١٩٣٣

ومهما تصدر صحيفة الوزارة ملحقاتها فى ظلمة الليل ، ومهما تنطلق ألسنة الوزارة ، وقد كانت معقودة ، ومهما ننشط هذه الألسنة ، وقد كانت معقودة فإن فى الجو سحبا متكاثفة يركب بعضها بعضا ، ويقفو بعضها إثر بعض ، وكلها تهيب بالنظارة ألّا تتفرقوا ، فإن وراء الستار ما وراءه ، وإن رفع الستار ليس بالبعيد .

وهذه السحب التى يركب بعضها بعضا ، ويقفو بعضها إثر بعض لا تأتى من وجه واحد ، وإنما تأتى من وجوه مختلفة ، وأنحاء متباينة . تأتى من وراء البحر حيث ينقل مندوب ويرسل مندوب ، وتأتى من شمال مصر حيث الخلاف بعد الوفاق ، وحيث انتهاز الفرص وتربص الدوائر ، وحيث الابتسام من ورائه العبوس ، والابتهاج من ورائه الابتئاس . وتأتى من مصر كلها حيث ضيق النفوس ينتهى إلى أقصاه ، وحرج الصدور يصل إلى غايته ، وتأتى من فرنسا وإيطاليا حيث الإصرار على أن يؤدى الدين وأرباحه بالذهب لا بالورَق

كل هذه سحب يركب بعضها بعضا ، ويقفو بعضها إثر بعض ، ويصيح بالنظارة أن انتظروا فإن وراء الستار شيئا جديدا ، ويصيح برئيس الوزراء : لقد حرصت على الحكم بعد أن أظهرت الزهد فيه ، فهلم أقدم على الحكم إن كنت جريئا فا حلل مشكلاته ومعضلاته ، وانهض بأعبائه وأثقاله ، واثبت لأَوجاله وأهواله الآن كما ثبت لها منذ أعوام . وسينتظر الناس وسيقدم رئيس الوزراء ، وسيرى الناس أن انتظارهم لن يطول وسيرى رئيس الوزراء أن إقدامه لن يمضى بعيدا .

وسيعلم رئيس الوزراء أن الأمر قد انتشر وانتشر حتى أصبح لا يستطيع جمعه إلا رجل له من القوة والنشاط ، ومن الصبر والثبات، ومن حسن البلاء السياسى ما ليس لرئيس الوزراء .

هذه الأهرام قد حدثتنا أمس بحديث أكبرناه وأنكرناه ، ورأينا أنه لا يمكن أن يكون صورة صحيحة لما صدر عن رئيس الوزراء ، وانتظرنا أن يكذب هذا الحديث مع المساء تكذيبا قاطعا فلم يكذب . وقلنا إن هذا الحديث إن لم يمحه التكذيب فسيجعل استقالة الوزارة أمرا لا بد منه ، ولا سبيل إلى الشك فيه . ولم يكذب الحديث إلى الآن ، وإنما أنكرته صحيفة الوزارة فى خوف واستحياء . ولم يستقل رئيس الوزراء أمس وإنما أعلن عدوله عن الاستقالة . ومع ذلك فمن زعم لك أن الأزمة قد انفرجت وأن كل شىء حول الوزارة قد استقر وأن الأمور ستجرى منذ اليوم كما كانت تجرى من قبل فلا تؤمن له ولا تطمئن إليه . وثق بأنه خادع أو مخدوع . فإن للأشياء منطقا مهما تفسده الأوضاع السياسية والظروف الطارئة إفسادا موقوتا ، فهو الغالب على كل حال . وهو المنتصر آخر الأمر . ومنطق الأشياء هذا لا يسمح بأن يشير الوزراء المستقيلون قبل أن يستشاروا ، ولا بأن يقترح الوزراء المستقيلون أسماء الذين يرثونهم فى الحكم ويخلفونهم عليه ، ولا أن يقسم الوزراء المستقيلون أمور السلطان ، يحفظون لأنفسهم نصفها ، وينزلون لأصفيائهم عن نصفها الآخر . فإما أن يكون هذا الحديث الذى أكدته الأهرام صحيحا وإذن فله نتيجة طبيعية محتومة هى استقالة رئيس الوزراء غدا أو بعد غد ، وإما أن يكون هذا الحديث الذى أكدته الأهرام مختلقا ، لا أصل له ،

وإذن فلا بد من تكذيبه فى حزم وعزم ، وفى جزم وتأكيد . ولا بد من أن تحتمل الأهرام تبعة هذا التأكيد الذى يشكك الناس فى أمور لا ينبغى أن تتعرض للشك أو الريب .

وصمت رئيس الوزراء على هذا الحديث واستحياء صحيفته فى إنكار هذا الحديث دليل يرجح أن الأهرام قد فكرت كثيرا قبل أن تنشر ما أذاعته فى الناس .

والآن يقال إن الوزارة القائمة باقية ، لا يصيبها تعديل ، ولن يمسها تبديل ، ونقول نحن إن بقاءها لن يطول ، ولعله أن يكون أقصر جدا مما يظن الأنصار والأعوان ، ومما يرجو الخائفون والمذعورون ، ولكن رئيس الوزراء قد أعلن بقاءه فى الحكم . فمن حق الناس أن يطلبوا إليه ما يحتاجون إلى أن يطلبوه ، وهم محتاجون إلى أن يطلبوا منه شيئا كثيرا ، وإلى أن يتعجلوا إجابته إلى ما يطلبون .

فهذا وزير الداخلية عاجز كل العجز عن ضبط الأمن وإقرار النظام ، إما لأنه مريض قد طال مرضه وثقل ، وإما لأن ضبط الأمن وإقرار النظام يحتاجان إلى كفاية أخرى غير كفايته . ولعل رئيس الوزراء يعلم أنه بينما كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويبسط يدا بالاستقالة ثم يقبضها ويتراءى للناس حينا مستقيلا ، وحينا مقيما ، كانت أمور الأمن تفسد فتسرف فى الفساد . ولعل رئيس الوزراء قد ألقى إليه أن يوم الجمعة الذى عدل فيه عن الاستقالة قد

سجل فيما سجل من الأحداث العظام حدثين خليقين بالتفكير وهما أهم وأعظم خطرا من بقائه فى الحكم أو نزوله عنه . وقع أحدهما فى مركز الصف ، قريبا من القاهرة وقتل فيه أربعة من المصريين ، وجرح فيه أكثر من عشرين مصريا . ووقع الآخر فى أقصى الصعيد ، هناك حيث تقوم معابد الفراعنة وآثارهم الخالدة . هناك قريبا من الأقصر حيث تذهب الألوف من الأجانب لزيارة الآثار . اصطدمت قريتان فى سوق من الأسواق فكانت موقعة حربية هائلة ، نشرت الصحف صباح اليوم أنباءها الأولى فأحصت الأهرام خمسة وعشرين قتيلا من المصريين ، بينهم نفر من حماة الأمن ، ولم تحص الصحف عدد الجرحى بعد . فليسأل رئيس الوزراء نفسه وضميره : أخليق هذا الأمر بالعناية ؟ أم هو لا يستحق التفكير ؟ وليسأل رئيس الوزراء نفسه وضميره : أيهما أحق أن تعنى به مصر وتحفل به : أهذه المداورات السياسية التى تجرى من وراء ستار ، ولا يكاد يعلم الناس من أمرها وسرها شيئا ؟ أم هذه الدماء المصرية التى تراق جهرة ؟ وهذه اليد السوداء ، يد الموت المظلم التى تحصد فى يوم واحد تسعة وعشرين من المصريين ؟

يجب أن تكون لله عز وجل حكمة يعجز الناس عن فهمها وتأويلها فقوم فى الإسكندرية يداورون ويناورون ليبقوا فى الحكم أو ليعتزلوه ، وقوم آخرون يبغى بعضهم على بعض ويتساقون كؤوس الموت .

نحب أن يسأل رئيس الوزراء نفسه وضميره : أى الأمرين أجدى على مصر : أن تستقر دماء الناس فى عروقهم وتبقى لهم الحياة التى

منحهم الله ، أم أن تستقر فيهم وزارة عاجزة حتى عن أن تحمى بعضهم من بعض وتحفظ عليهم أيسر ما ينبغى لهم من الأمن والنظام ؟

لقد أعلن رئيس الوزراء أنه مقيم فى الحكم إيثارا لمصلحة مصر ، وأنه مضح فى سبيل ذلك بصحته فلينظر إذن رئيس الوزراء إلى هذه الدماء التى تراق فليحقنها ، وإلى هذه النفوس التى تزهق فليعصمها . وليقم إذن رئيس الوزراء دليلا على أنه آثر البقاء فى الحكم وهو قادر فيه حقا . فإن الحكم فى نفسه ليس غاية ، ولا ينبغى أن يكون غاية . والأمة لا تفرح ولا تبتهج بأن ترى رئيس الوزراء قد أقام فى الحكم ، وإنما تريد الأمة من رئيس الوزراء – ما دام يفرض نفسه عليها فرضا – أن يؤدى إليها أبسط ما يؤدى الوزراء للشعوب فيحفظ عليها دماءها وأموالها ، ويصونها من عبث العابثين والمعتدين

نرجو أن يكون لدى رئيس الوزراء من الصحة والنشاط والقدرة على ضبط الأمن ما يمكنه من أن يحول بين الأمة وبين الموت والخراب فى هذه الأيام القليلة التى ستقضيها وزارته مستأثرة بالحكم ، مسيطرة على تصريف الأمور .

دعوة

قلوب[1] الوزاريين خفيفة لطيفة ، يهيجها أيسر الأشياء فتطير فى الهواء ويطمئنها أيسر الأشياء فتستقر فى الصدور . سمعت حديث الأزمة الوزارية فطارت مع الريح ، وذهبت من الهلع والفزع كل مذهب . ثم سمعت أن رئيس الوزراء آثر رياسة الوزارة على زعامة الكثرة البرلمانية فعادت إلى الصدور ، واستقرت بين الضلوع . وأخذت منذ أمس تخفق خفقانا هادئا منظما بعد أن انجلت عنها نشوة الفرح والمرح ، وبهجة الرضى والسرور . وأكبر الظن أن قلوب الوزراء أثبت وأثقل من قلوب الوزاريين ، لا تطير للشىء اليسير ، ولا تستقر للأوهام والأحلام . وأكبر الظن أن قلوب الوزراء لهذا لم تهدأ بعد ، ولم تستقر كما هدأت قلوب الوزاريين واستقرت . فالوهم يكفى لإرضاء الوزاريين ولكنه بعيد كل البعد عن أن يرضى الوزراء . والوزراء يعلمون حق العلم إذا خلوا إلى أنفسهم أن الأزمة لم تحل ولم تنفرج ، وإنما افتتحها رئيس الوزراء وهى ماضية فى طريقها تشتد من يوم إلى يوم وتتعقد من حين إلى حين ، حتى تنتهى إلى هذا الحرج

---

(١) ١١ - ٩ - ١٩٣٣

الذى لا يدع سبيلا للأخذ والرد ، ولا التعلل بآراء الأطباء حينا فى سبيل الاستقالة ، وحينا فى سبيل البقاء .

ومع ذلك فقلوب الوزاريين هادئة مستقرة منذ أمس ، وقد أخذوا يعودون إلى دعوة لا بأس بالوقوف عندها قليلا ، لا لأنها تستحق الوقوف ، بل لأنها خليقة أن تثير الضحك وأن تلهى الناس ولو قليلا عما يشغلهم من أهوال الأزمة وأوجالها ، فصحيفة الوزارة تدعو اليوم إلى العمل بعد أن انتهت الأزمة ، وصحيفة الوزارة تعترف بأن الحياة المصرية مملوءة بالشر والخطر ، تحتاج إلى أن يتعاون الناس جميعا على إصلاحها ودفع الكوارث الملمة والكوارث التى تريد أن تلم . وصحيفة الوزارة بعد هذا كله تطلب إلى الناس جميعا أن يقترحوا على الوزارة ما يرون من دواء لهذه الأدواء ، وهى تؤكد – ولعلها تصدر فى هذا التأكيد عن بعض الوحى – أن الوزارة ستعنى بهذه الاقتراحات وتوفيها حقها من الدرس ولا تتردد فى أن تقبل النافع منها . فنحن نقبل هذه الدعوة ، ونستجيب لها ، ونتقدم إلى الوزارة بالاقتراح الذى نراه نافعا كل النفع ، مفيدا كل الفائدة لرفع ما تشقى به الحياة المصرية الآن من الشر ، ودفع ما تتعرض له الحياة المصرية غدا من الكوارث والخطوب .

ونؤكد للوزارة والوزاريين أنا مخلصون كل الإخلاص ، ناصحون كل النصح ، مؤمنون كل الإيمان بصدق ما نقول ونفع ما نقدم من اقتراح ونؤكد للوزارة والوزاريين أن قبول هذا الاقتراح أيسر جدا مما يظنون وأنهم إن قبلوه الآن أراحوا أنفسهم ، وأراحو الناس من أعباء

ثقال لن تقوى أكتافهم الضعيفة على حملها ، وأنهم إذا لم يقبلوه الآن راضين فستضطرهم الظروف إلى أن يقبلوه وهم كارهون .

وهذا الاقتراح هو أن يرفع رئيس الوزراء استقالة الوزراء إلى جلالة الملك ، فبقاء الوزارة وحده فيما نعلم وفيما يعلم المصريون جميعا إلا الوزراء وأنصارهم – وهم قليلون ولعلهم يعلمون من ذلك مثل ما نعلم – هو مصدر ما تشقى به مصر الآن من خطوب واقعة وخطوب تريد أن تقع . وليس إلى محو الشر من سبيل إلا أن تمحا الأسباب التى دعت إليه وفرضته على البلاد فرضا .

ورئيس الوزراء يعلم حق العلم وأنصاره يعلمون معه حق العلم أن الوزارة القائمة قد أخفقت فى كل شيء . أخفقت فى تدبير السياسة ، وأخفقت فى تدبير الاقتصاد ، وأخفقت فى حماية الأمن والنظام . قامت لتمحو الوفد فلم تزده إلا قوة وتأييدا . ومهما يقل رئيس الوزراء وأنصاره للناس أن الوفد قد ضعف وأشرف على الفناء ، فإن رئيس الوزراء وأنصاره يقولون فى كل لحظة أن إضعاف الوفد – فضلا عن إفنائه ومحوه – شيء لا سبيل إليه ، تهلك فى سبيله القوى مهما تكثر ، وتفنى فى سبيله الجهود مهما تشتد ، وتسقط في سبيله الوزارات مهما يكن أنصارها ، ومهما تطل أعمارها .ذلك شيء يعلمه رئيس الوزراء ، ويعلمه غير رئيس الوزراء من خصومه وأصدقائه ، ما يشكون فى ذلك قليلا ولا كثيرا .

وقامت لتمضى المعاهدة بين مصر وإنجلترا فأبعدت الأمد بين مصر وإنجلترا ما استطاعت ، وأرجأت المعاهدة راضية أو كارهة ،

وبسطت للإنجليز على مصر سلطانا لم يكن لهم ، وحققت للإنجليز فى مصر مآرب ما كانوا يحلمون بتحقيقها وقامت لتدبير الاقتصاد والمال تدبيرا لم يوفق إليه غيرها من الوزارات فوفقت من ذلك إلى ما لم يوفق إليه غيرها من الوزارات ، وبسطت للجوع والحرمان والفقر على حياة الناس سلطانا لا يشبهه إلا سلطان الإنجليز على الحياة السياسية .

وقامت لتمحو الفوضى وتحمى النظام وتحقن الدماء وتعصم النفوس ، فوفقت من ذلك إلي حيث أصبحت الجنايات ، وجنايات القتل خاصة تحصى بالعشرات فى كل أسبوع ، وإلى حيث تكافىء مدير الأمن العام رغم ذلك بالعلاوة ثم تنقله مضطرة أو مختارة إلى حيث تنقطع الصلة بينه وبين الأمن .

لهذا كله وفقت الوزارة وبهذا كله أفسدت الوزارة آراء الناس فى السياسة والاقتصاد والأمن . وأساءت الوزارة ظن الناس بقدرة السلطان على تدبير السياسة والاقتصاد والأمن . وملأت الوزارة قلوب الناس شكا فى قيم الأشياء ، وزهدا فيما كانوا يحرصون عليه ، ودفعت الوزارة أهل مصر جميعا إلى هذه الحياة السيئة التى لا يطمئنون فيها إلى شيء ولا يثقون فيها بشيء ، ولا ينتظرون من ورائها إن طالت إلا شرا ونكرا .

فإذا كان هذا حقا – وليس بين المصريين من يشك فى أنه حق فإن الاقتراح الوحيد الذى يقدمه المصريون إلى الوزارة لإصلاح الحال إنما هو أن تستقيل الوزارة ، وان يرد إلى مصر أمرها لتدبره كما تريد ،

حرة مختارة محتملة تبعة ما تأتى من الأمر ، لا مذعنة لذلك إذعانا ولا خاضعة لذلك وهى كارهة راغمة بقوة الحديد والنار .

فإن كانت صحيفة الوزارة صادقة فيما تزعم من أن الوزارة ستلقى بالعناية ما يرفع إليها من اقتراح لإصلاح الحال فها نحن أولاء نرفع إليها هذا الاقتراح ناصحين لها وللامة ، مخلصين لها وللبلاد . وسنرى أتقبله أم ترفضه ، نستغفر الله ، بل نحن واثقون بأنها سترفضه حتى تكرهها الظروف على قبوله وتلجئها إليه إلجاء إن لم يكن بعد أيام فبعد أسابيع

ولا هذا أيضا

وكما أجاد[1] الفرزدق فى تصوير صديقى عبد الرحمن عزام فى قوله :

أحلامنا تزن الجبال رزانة   وتخالنا جنّا إذا ما نجهل

فقد أجاد الحارث بن عبّاد تصوير صديقى المازنى حين قال :

لم أكن من جناتها علم الله   وإنى لحرها اليوم صالى

فصديقى المازنى لم يثر هذه الفتنة حول تلك الجملة القصيرة التى اقتطعها صديقى عزام من فصل طويل ، ولم يجلب فى هذه الحرب أول الأمر بخيل ولا رجل حتى إذا شبت النار ، وارتفع الغبار ، ثار ثم طار وإذا هو فى الميدان يطلب الضرب والطعان .

وقد ثار المازنى للدفاع عن حرية الرأى ، ولكنه أخطأ طريق هذا الدفاع فرمى صديقه بالزلل والخطأ اللذين ليس فيهما شك . ثم أخذ يدور حول هذا الزلل وهذا الخطأ ، يلتمس الهفوة . فلست معصوما

---

(١) ١١ - ٩ - ١٩٣٣

من الخطأ ولا مبرأ من الزلل . وما كان لأحد من الناس أن يرى العصمة لنفسه ، ولكن ما ذنبى إذا كنت لم أخطىء فى هذه المرة ولم أزل . وإنما صورت الحق الذى لا يقبل شكا ولا يحتمل جدالا ، ولا يغفل عنه إلا قوم ليس لهم عشر ما للمازنى من العلم والثقافة ، أو قوم آخرون يعلمون ثم ينكرون ، ويرون الحق ثم يعرضون عنه ، لأن لهم حاجة من وراء هذا ، لا يستطيعون أن يسلكوا إليها صراطها المستقيم .

وأحب أن أؤكد للمازنى مخلصا أنى أرفع ما بينه وبينى من الصداقة عن جد الخصومات وهزلها ، وعما كان منها صريحا واضحا ، وما كان منها ملتويا غامضا . وإنه مهما يقل فىّ مصرحا أو ملمحا فلن يبلغ ذلك من مودتنا شيئا . فأنا أعرف – والحمد لله كيف أقدر ضعف الناس .

وقد كنت أحب ومازلت أحب لصديقى المازنى ألّا يخلط بين من يقول له لم يخطىء ومن يقول له ليس بينى وبين الخطأ سبب ولا سبيل ، ذلك يقرر الحق ، وهذا يدعى لنفسه من العصمة ما ليس للناس . فليعلم المازنى ، وليعلم عزام ، وليعلم من يظاهرهما من المصريين ، وليعلم السوريون أيضا أنى مازلت عند رأيى الأول ، لا أغيره ، ولن أغيره لأنى لا أحب ، ولا أستطيع ، ولا يستطيع أحد تغيير الحق مهما تكن الظروف .

وأخرى أضحكتنى من « البلاغ » وأريد أن أعتقد أنها لم تصدر عن المازنى ، فهو عندى أكبر منها . فقد زعمت « البلاغ » أمس أنى

أخذت منها ما كتبت به إلى السوريين دفاعا عن حرية الرأى . وكم كنت أحب أن أعترف للبلاغ بأنى أخذت منها واستعنت بها على هذه القضية المعضلة ، قضية الرأى وحريته ، فإنى لا أكره أن أسر البلاغ إن وجدت إلى ذلك سبيلا شريفة معقولة ، ولا أتحرج أن أستعين بكاتب بارع كصديقي المازنى إن وجدت حاجة إلى معونته ، ولكنى آسف أشد الأسف لأنى كتبت إلى « فتى العرب » يوم الأربعاء قبل أن تكتب البلاغ ما كتبت ، وأخرت نشر الكتاب يومين أو ثلاثة أيام حتى يصل الكتاب إلى دمشق ، ثم ينشر فى مصر بعد ذلك . فإذا كانت البلاغ فى حاجة إلى من يشهد لها بذلك ، فإن الشهود أحياء يرزقون ، وهم قادرون على تأدية الشهادة ، لا يترددون فى ذلك قليلا ولا كثيرا .

وبعد فلم أقل فى كتابى إلى « فتى العرب » يوم الأربعاء ، ولم تقل البلاغ فيما كتبت يوم الخميس شيئا طريفا فذا ، يحسن الاختصام فيه : أينا سبق إليه . وإنما قلت يوم الأربعاء وقالت البلاغ يوم الخميس ، أوليات شائعة بين الناس ، من المحزن أن نحتاج إلى تقريرها ، فضلا عن أن نزعم لأنفسنا ابتكارها واستكشافها

فلتطمئن البلاغ ولتخفف من غلوائها ومن اعتدادها بنفسها فإن الله – عز وجل – لم يقصر عليها العلم بالبسائط والأوليات ، وخير للبلاغ أن تمضى فى سبيلها ، لا تنحرف إلى يمين أو إلى شمال ، ولا تقف عند أشياء تعلم حق العلم أن الوقوف عندها لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يرضى الحق ولا المنفعة ، ولا الضمير على أية حال .

لغز

حله(1) عند رجلين ، أحدهما رئيس الوزراء ، والآخر وزير الداخلية . ويزعم طوال الألسنة أن رجلا ثالثا من كبار الموظفين قد يستطيع مشاركة الوزيرين الخطيرين فى حل هذا اللغز ، ولكنهم يأبون أن يسموه ويكتفون بالإشارة إليه .

أما نحن فلا نطلب الحل إلا عند القادرين الرسميين عليه ، أى عند رئيس الوزراء ، ووزير الداخلية .

وهذا اللغز يحيط بصاحب العزة أحمد كامل بك مدير الأمن العام ، فقد نهض الرجل بحماية الأمن كما لم ينهض به أحد من قبله إلا وزير الداخلية حين كان مديرا للأمن العام ، وكانت نتيجة هذه الكفاية الباهرة فى حماية أحمد كامل بك للأمن العام أن أخذت الجنايات تنقص ثم تنقص ، وتقل ثم تقل حتى انعدمت انعداما . ومضت الأيام والأسابيع والشهور ، ومصر لا تقع فى أرضها جناية ما حتى أشفق الناس من ذلك فبعض العلماء من أصحاب الاجتماع

(1) ١٢ - ٩ - ١٩٣٣

يرون أن وقوع الجرائم ظاهرة من الظواهر الطبيعية ، لا يمكن ولا ينبغى أن تخلو منها جماعة منظمة .

فلما رأى الناس أن مصر قد برئت من الإجرام والمجرمين ، أصابهم خوف لا يشبهه خوف ، وظنوا أن جماعتهم مريضة لأنها لا تؤدى عملها الاجتماعى كما ينبغى .

ولكن الوزارة أعلم بشئون الاجتماع والسياسة من الناس ، فحمدت لمدير الأمن العام كفايته وبراعته ، لأنه حقن الدماء ، وعصم النفوس ، وحفظ على الناس أموالهم وأعراضهم ، ومكنها من أن تعلن مطمئنة أنها قد ظفرت بما لم تظفر به وزارة فى أقطار الأرض فمحت الجرائم محوا . ولذلك اعترفت لمدير الأمن بالفضل وسجلت له هذه المآثر ، وعجزت عن أن تكافئه كما ينبغى فأشارت إلى مكافأته إشارة موجزة يسيرة ضئيلة حين منحته ثلثمائة جنيه علاوة فى كل عام .

وبينما الناس يلومون الوزارة لأنها لم تحسن مكافأة المدير الكفء ، ولم تبلغ من ذلك رضى الأمة الآمنة المطمئنة ، اجتمع مجلس الوزراء لأول مرة بعد عودة الرئيس العظيم ، ولم يجتمع فى دار من دور الحكومة ، ولا فى يوم من أيام العمل ، وإنما اجتمع فى دار وزير الداخلية ، وفى يوم من أيام الراحة واتخذ قرارا كان وقعه بين المصريين كوقع هذه الفرقعة التى روعت نادى الشعب ، وجريدة الشعب ، وأزعجت الشرطة مساء أمس . وكان هذا القرار يقضى بإبعاد مدير الأمن العام عن إدارة الأمن العام وندبه للعمل فى مجلس الوزراء

وقد ذهب الناس بعد أن هدأت الثائرة ، واطمأنت القلوب بين الجنوب مذاهب مختلفة فى تأويل هذا القرار الخطير ، ستظل أمرا مستورا ، وحجرا محجورا ، لا ينبغي لأحد أن يعرفه أو يظهر عليه .

وقال بعض المتأولين إن مصدر هذا الندب إنما هو مذهب أولئك العلماء من أصحاب الاجتماع وعلى رأسهم دوركيم من أن الإجرام ظاهرة طبيعية فى حياة الجماعات ، كما أن المرض ظاهرة فى حياة الأصحاء ، وكما أن الناس لا بد لهم من أن يمرضوا ليصحوا من جهة وليعمل الأطباء من جهة أخرى ، وليعيش الصيدليون من جهة ثالثة ، ولتكون لكلية الطب حياتها وواجباتها من جهة رابعة ، وليختلف إليها الطلاب وليدرس فيها الأساتذة ، وتشترى لها المعامل ، وتقام لها الأبنية من جهة خامسة ، وليعيش الممرضون والممرضات من جهة سادسة ، ولتشتغل المعامل فى صنع العقاقير وتركيبها من جهة سابعة ولغير ذلك من الجهات التى لا تكاد تحصى . فلا بد للجماعات أن تقع فيها الجرائم لتنشأ إدارة الأمن العام من جهة ، وليكون لها مدير ووكيل يرقيان إلى الدرجات العالية ويقبضان المرتبات الضخمة من جهة ثانية ، وليكون فيها المفتشون والعمال من جهة ثالثة ، وليعيش المديرون والمأمورون والملاحظون والمعاونون والشرطيون من جهة رابعة ، ولتحقق النيابة ويترافع المحامون ويقضى القضاة ، ويكتب الكتاب من جهة خامسة ، ثم لتنشر الصحف ويتحدث الناس ، وتظهر كفاية الوزراء فى ضبط الأمن وحماية النظام من جهة سادسة ، ثم لغير هذا كله من الجهات التى ليس إلى إحصائها من سبيل دون اضطرار إلى الإسهاب والتطويل .

وكان مدير الأمن قد ألغى الجرائم إلغاء ، ومحا الجنايات محوا ، فكاد يقيم الدليل – نستغفر الله ، بل أقام الدليل على أن عضوا بل عضوين ، بل أعضاء فى الجسم الإدارى للحكومة قد أصبحت زوائد لاغنا فيها ، ولا حاجة إليها . وإذن فقد تردد مجلس الوزراء ، أيمضى مع مدير الأمن العام فيلغى إدارة الأمن العام ، ويلغى الشرطة ويضيق من اختصاص المديرين ، ومن اختصاص النيابة ومن اختصاص القضاء ؟ أم يبعد مدير الأمن العام عن عمله لتعود الحياة المصرية سيرتها الأولى ؟

وفى مجلس الوزراء رحمة للمصريين عطف عليهم ، ورعاية لهؤلاء الموظفين الذين يعيشون للأمن العام ، ومن الأمن العام ، فآثر مجلس الوزراء نقل مدير الأمن العام ، أو ندبه إذا أردت التعبير الدقيق .

وقال قائلون آخرون : كل هذا ممكن ، ولكنا نرجح تأويلا آخر ، فلم تكذب الحكومة الحكمة السائرة حين قالت « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ومن حق الوزارة أن تفكر فى نفسها قبل أن تفكر فى الناس . وقد رأت الوزارة أن مدير الأمن العام قد أصلح إدارته إصلاحا لم يسبق إليه ، وضبط الأمن ضبطا لا يجارى فيه ، فغارت الإدارات من إدارة الأمن العام ، وغارت الوزارات من وزارة الداخلية . وطلبت كل إدارة أن تجعل أمورها إلى مدير الأمن العام ، وطلبت كل وزارة أن يمر بها مدير الأمن العام . وكثر فى ذلك الخصام بين الإدارات والوزارات ، وأراد مجلس الوزراء أن يكون منصفا عدلا ، وأن يقبل مطالب الإدارات والوزارات ، ولكن على أن يبدأ

بأولاها بالعناية ، وأحقها بالرعاية ، وأجدرها بأن تكون المبدأ والنهاية ، فقرر أن يندب مدير الأمن العام للعمل فى مجلس الوزراء حتى إذا ضبط أمور هذه الإدارة الممتازة وأصلحها كما ضبط أمور الأمن العام وأصلحه ، نقل بين الإدارات والوزارات ، مؤثرا الأهم على المهم حتى إذا دار دورته كان قد أتم للأداة الحكومية كل ما تحتاج إليه من الإصلاح .

وقال أصحاب هذا الرأى فى تأويل هذا القرار : ألم يبلغكم ما تتحدث به الصحف من أن هَمّ مجلس الوزراء أو رئيسه على الأقل متجه إلى أن يرقى مدير الأمن العام فى الدرجة بعد أن زاده فى المرتب فيصبح وكيل وزارة بعد أن كان مديرا عاما . هذه الترقية توطئة لم يكن منها بد حتى إذا ذهب المصلح العظيم إلى الوزارات كان أكبر رأس فيها بعد الوزير ، واستطاع أن يتناول إداراتها كلها بالإصلاح جماعات لا أفرادا ، وجملة لا تجزئة . ذلك أدعى إلى الاقتصاد فى الوقت والإسراع فى العمل وتحقيق الإصلاح الشامل فى أقصر وقت ممكن .

قال قائلون آخرون : إنما هذا كله رجم بالغيب ، وتحدث بما لا علم لكم به ، وما ينبغى أن نلتمس التأويل ونغلو فيه . وقد أشارت الوزارة أو ألسنتها فى أحاديث غير رسمية ولكن لها قيمتها إلى أن رئيس الوزراء متعب مكدود ، محتاج إلى العناية بصحته والترفيه على نفسه . فهو محتاج إلى رجل ثقة يقوم معه فى مجلس الوزراء ، يصرف له هين الأمر ، ويعرض عليه فى رفق ما قد يكون عسيرا يحتاج إلى عنايته

ورعايته وكفايته . ورئيس الوزراء واثق بمدير الأمن العام لكفايته أولا ، ولمكانه منه ثانيا . وليس على رئيس الوزراء بأس أن يؤثر نفسه بهذه الكفاية النادرة بين كبار الموظفين . فصلاح الأمر فى مصر كلها رهين بصحة رئيس الوزراء من جهة وبصلاح الأمر فى مجلس الوزراء من جهة أخرى .

قال قائلون آخرون : إنكم لتلتمسون الظهر فى الساعة الرابعة عشرة ، وتشطرون الشعرة شطرين ، وتكلفون أنفسكم شططا . وما بالكم لا تسلكون إلى التفسير أقرب الطرق ، ولا تتخذون إليه أيسر الأسباب ، ولا تقولون إن وزير الداخلية لم يرض عن مدير الأمن العام ، لأن وزير الداخلية ممتاز فى شئون الأمن امتياز المدير ، وفى مصر مثل له قيمته ، وهو أن السفينة تغرق إذا وكلت أمورها إلى رئيسين . فقد آثر وزير الداخلية – على مرضه – أن تكون إليه أمور الأمن العام وتخفف من مديره الكفء ، فطلب ندبه للعمل فى مجلس الوزراء ، ومن يدرى ؟ لعل العلاوة التى أهديت إلى مدير الأمن العام كانت تمهيدا لهذا الندب ، ولعل الترقية التى يقال إنها ستهدى لمدير الأمن العام أن تكون تتويجا لهذا الندب .

قال أصحاب الجد : مهما تفكروا وتقدروا ، ومهما تحللوا وتعللوا ، ومهما تذهبوا المذاهب فى التفسير والتأويل فإن فى الأمر غموضا لا يجلوه إلا بيان من رئيس الوزراء . فمن حق الناس أن يعلموا كيف تترك إدارة الأمن العام وليس لها مدير ، مع ما نعلم من حاجة الأمن إلى عناية لم يحتج إلى مثلها فى يوم من الأيام . ومن حق

الناس أن يعرفوا طبيعة العمل الجديد الذى سينهض به المدير المندوب فى مجلس الوزراء ، فليس من المعقول ولا من الأشياء التى تستقيم مع طبيعة الاقتصاد وحاجة مصر إليه ، واعتراف الوزارة بهذه الحاجة ، أن يكلف موظف من كبار الموظفين عرض الأوراق على رئيس الوزراء ، وأن يتقاضى على ذلك ألفا ونصف ألف من الجنيهات . وعند رئيس الوزراء مكتبه ، ولهذا المكتب رئيس وفيه موظفون ، وعند رئيس الوزراء السكرتير العام لمجلسه ، ومن وراء هذا السكرتير العام جيش لا بأس به من الموظفين

ففى الأمر سر يحتاج إلى أن يحل ، ورئيس الوزراء ووزير الداخلية وحدهما قادران على إظهار هذا السر ، وحل هذا اللغز . والخير ألا نرجم بالغيب وأن ننتظر البيان من القادرين عليه

ثم تفرق المتحدثون وكلهم ينتظر هذا البيان ، ولكنى أخشى أن يطول انتظارهم ، ويطول دون أن يظفروا بشىء .

استعجال

رئيس[1] وزرائنا عجلان لا يهدأ ، ولا يريد أن يهدأ الناس من حوله ، لا يستريح ولا يريد أن يستريح الناس من حوله منذ عاد إلى كرسى الحكم بعد مرضه الطويل .

فقد أحسّ فى آخر لحظة أن الاقتصاد المصرى فى خطر ، وأن الثروة المصرية توشك أن تزول ، وأن الشقاء الذى أخذ يرسل سحبه فى بعض الأجواء المصرية يوشك أن يملأ الجو المصرى كله بهذا السحاب المظلم الذى يبرق من خلاله الجوع ، ويرعد من خلاله الموت ، ويرسل الصواعق على البائسين والمحرومين . ورئيس وزرائنا رحيم شفيق . ورئيس وزرائنا رءوف رفيق ، ورئيس وزرائنا قد آثر فى هذه الأيام أن يضحى بصحته فى سبيل بلاده ، فعدل عن الاستقالة وأزمع البقاء فى الحكم . ورئيس وزرائنا قد عاهد الله ، وعاهد الناس ، وعاهد نفسه منذ اعتزم البقاء فى الحكم على أن يدفع عن الاقتصاد المصرى كل خطر ، وعلى أن يثبت الثروة المصرية فى

---

(١) ١٢ - ٩ - ١٩٣٣

أيدى المصريين ، وعلى أن يطرد سحب الجوع والحرمان ، والشقاء والموت من جو مصر طردا عنيفا .

ورئيس وزرائنا يتأهب لذلك فى جد ما مثله جد ، ويسعى لذلك فى حزم ما مثله حزم . وهو لهذا كله قد خاصم الهدوء ، وقطع الأسباب بين نفسه وبين الراحة ، كما قطع الاسباب بين أعوانه وبين الراحة أيضا . وآية ذلك بيّنة واضحة ، ودليل ذلك ساطع جلىّ ، فهو قد تحدث إلى وكيل المالية بالتليفون وتقدم إليه فى أن يكلف المفتشين الماليين أن يدرسوا الشئون المالية والاقتصادية فى الأقاليم ، وأن يرفعوا إليه تقارير يبينون فيها أحوال الناس : أقادرون هم أم عاجزون ؟ أموسرون هم أم معسرون ؟ ألهم طاقة بدفع الضرائب أم هم مكرهون على أن يلتووا بها ويعتذروا عن أدائها ؟

وتفرق المفتشون فى الأقاليم ليبحثوا ويدرسوا وليفتشوا وينقبوا ثم ليحرروا ويكتبوا . وقد يحتاج هذا كله إلى أيام تطول أو تقصر حتى إذا انتهت التقارير إلى وزارة المالية ، فقد يحتاج درسها إلى أيام تطول أو تقصر ، حتى إذا انتهى هذاالدرس فى مكاتب الوزراء ورفعت خلاصتها إلى وزير المالية ، فقد يحتاج الوزير لدرس هذه الخلاصة إلى أيام تطول من غير شك ، لأن الوزير مريض متعب ، لا يستطيع أن يتكلف الجهد الثقيل . فإذا فرغ الوزير من الدرس فقد يقترح الدواء إن كان اقتصاد مصر مريضا . وقد يتحدث إلى الصحفيين المصريين والأجانب بأن الحياة الاقتصادية فى مصر لم تكن فى يوم من الأيام

خيرا مما هى الآن ، كما أن الحياة السياسية فى مصر لم تكن فى يوم من الأيام خيرا مما هى الآن .

وليس على الوزارة بأس من طول هذا الدرس والبحث ، ومن تفرق المفتشين للتفتيش والتنقيب وكتابة التقارير ورفعها ، فالأموال تجبى على كل حال . إما أن يؤدى الناس هذه الضرائب من تلقاء أنفسهم فيريحوا ويستريحوا . وإما أن يعجز الناس عن تأدية هذه الضرائب فتؤخذ منهم بالقوة والعنف ، سواء كان عندهم ما يعطون أم لم يكن . فالحاصلات الزراعية لا يجوز نقلها أو بيعها أو التصرف فيها على أى نحو من أنحاء التصرف إلا بإذن من العمدة والصراف . وهذا العمدة أو هذا الصراف لا يعطى هذا الإذن إلا إذا استيقن أن ليس على خزانة الدولة بأس ، لأن المال قد دفع ، والضريبة قد أديت وقد يؤدى المال وتدفع الضريبة ولكن العمدة محنق على صاحب الزرع أو الصراف مغيظ من صاحب الزرع ، فلا بأس بأن يرفض الإذن أو يؤخر حتى يعلم صاحب الزرع أن السلطان المخوف ليس سلطان المأمور والمدير والوزير فحسب ، بل سلطان العمدة والصراف أيضا . وإذن فلا بد من أن يسلط بعض الناس على بعض ، ولابد من أن يذل بعض الناس لبعض ، ولابد أن يتحكم بعض الناس فى حياة بعض ، لأن الدولة تريد أن تعيش ولا بد لها من المال لتعيش ، ولأن الدولة تريد أن تعيش مترفة فلابد لها من المال لتعيش مترفة . وكيف يجتمع مؤتمر الطيران آخر هذا العام ؟ وكيف يجتمع مؤتمر البريد أول العام المقبل ؟ وكيف تدفع معونة الممثلين والممثلات إذا أقبل الخريف ؟ وكيف تمنح العلاوات الاستثنائية ؟ وكيف تنشأ

قاعة المحاضرات فى الجامعة ؟ وكيف تظهر مصر نفسها للناس غنية مترفة إذا لم تدفع إلى الدولة أموالها ، ولم تؤد إلى الدولة ضرائبها ؟ وكيف تدفع الأموال وتؤدى الضرائب إذا لم يبسط سلطان العمدة والصراف على الأغنياء والفقراء وعلى الأقوياء والضعفاء ، وعلى الموسرين والمعسرين ؟ ولا ينبغى أن يضيق المصريون بذلك أو يشكوا منه ، فعسى أن يكره المصريون شيئا وهو خير لهم . وأى خير يطمع فيه المصريون أكثر من أن يأخذوا بالحكم الديمقراطى الصحيح فتعنو وجوههم جميعا للعمدة والصراف ، لا فرق فى ذلك بين الذين يرون لأنفسهم مكانة فوق مكانة العمدة والصراف والذين لا يرون لأنفسهم حظا من هذه المكانة .

المصريون جميعا سواء أمام القانون ، والمصريون جميعا سواء أمام العمدة ، والمصريون جميعا سواء أمام الصراف ، ولكن القانون يسوى بين المصريين بالحق والعدل . أما العمدة والصراف فيسويان بين الناس بالشهوة والهوى . ولا بأس على المصريين من هذا ، ففيه تمرين لهم على احتمال الشدائد والصبر على ما يكرهون . ولا ينبغى للمصريين أن يضيقوا بذلك أو يشكوا منه فرئيس الوزراء عجلان ، قد وقف عنايته على درس الأحوال وتعرف الشئون ، فهو يسأل عن سوق القطن ، وهو يلقي مدير بنك التسليف ، وهو يكلف المفتشين الماليين أن يتفرقوا فى الأقاليم ليبحثوا أو يدرسوا ثم يرفعوا التقارير .

فإذا سألت : أين كان وزير المالية ورئيس الوزراء قبل هذه الأيام ليعرف شئون الناس وأحوالهم وقدرتهم على الدفع أو عجزهم عن

الأداء ، فإن سؤالك يدعو الى الابتسام وهز الرءوس ورفع الأكتاف . فقد كان رئيس الوزراء ووزير المالية مريضا يستريح فى أوربا ، ويتردد على لوسرن وباريس . وكان رئيس الوزراء مشغولا بصحته الغالية عن أحوال الناس وشئونهم وعن قدرة الناس وعجزهم . وصحة رئيس الوزراء قوام الحياة المصرية ، فمن الحق على رئيس الوزراء أن يشغل بها قبل أن يشغل بشئون الاقتصاد ، ولا تقل إن الذى تشغله صحته عن الشئون العامة يجب أن يفرغ لصحته ، وأن يدع الشئون العامة . فهذا كلام فارغ لا يقوله العقلاء ، لأن رئيس الوزراء صحيحا ومريضا ، قريبا وبعيدا ، وقويا وضعيفا ، رجل قد فرضته الظروف على مصر فرضا . وهو وحده دون غيره قادر على فهم الشئون والأحوال ، وتدبير السياسة والاقتصاد .

رئيس الوزراء معذور إذن حين شغل بصحته عن الأزمة . ورئيس الوزراء معذور أيضا حين شغل بأزمته الوزارية الخاصة عن الأزمة الاقتصادية العامة . وليس على رئيس الوزراء ولا على مصر بأس فسيتدارك رئيس الوزراء كل ما فات ، وسينجز من الأعمال فى هذه الأيام القليلة المقبلة مالم يستطع إنجازه فى تلك الأشهر الطويلة الماضية . وأى دليل على ذلك أبعث للأمل وأدعى للرجاء من أنه أخذ يسأل عن سوق القطن ، ويقابل مدير بنك التسليف ، ويكلف المفتشين الماليين البحث والدرس ، ورفع التقارير . ولا تذكر أمر المصارف والديون العقارية ، ولا تذكر أمر الدول وأداء الدين

وفوائده ذهبا أو ورَقا ، فكل هذا شيء يسير سيفرغ له رئيس الوزراء بعد أن يتعرف أمر سوق القطن ويقرأ تقارير المفتشين عن قدرة الناس على تأدية الضرائب .

فرئيس الوزراء متعجل ولكن على مذهبه هو ، لا على مذهبك أنت . وكل وزير خطير مكلف قبل كل شيء أن يدبر من المال ما يمكن الحكومة من الحياة الناعمة المترفة ، ثم يفرغ بعد ذلك لشئون الناس فيهون عليهم ويرد عنهم ما يخافون ، ليطمئن المصريون إذن ، ولينامِوا ملء جفونهم ، وليذعنوا لتحكم العمدة وعبث الصراف ، ولينتظروا ، فرئيس الوزراء عجلان ، وهو زعيم لهم منذ اليوم بأن تؤدى الضرائب على وجهها فتسعد الحكومة وتنعم ، وبأن تؤدى الديون إلى المصارف فتسعد المصارف وتنعم وتهدأ الأمة وتستريح وبأن تحل مشكلة الدين العام فترتع الحكومة والأمة فى روضة بهيجة من اليمن والعز والنعيم والرخاء الذى لا حد له .

لقد أقبلت الخطوب على مصر مخيفة مروعة ، ولكن مصر خليقة ألا تخاف ولا ترتاع ، فرئيس الوزراء عجلان ، يسأل عن سوق القطن ويلقى مدير بنك التسليف ، ويكلف المفتشين أن يبحثوا أو يدرسوا ويرفعوا التقارير .

مصر

مصر[1] بلد خلقه الله ليكون حرا مستقلا ، عزيزا كريما ، ومتعه الله بحقه فى الحرية والاستقلال ، ونصيبه الأوفى من العزة والكرامة قبل أن يشعر غيره من البلاد بمعانى هذه الكلمات ، بل قبل أن يعرف التاريخ وجود غيره من البلاد ، ولكنه الآن قد فقد حريته واستقلاله ، وأوذى فى عزته وكرامته . وهو يستقبل الآن يوما من هذه الأيام التى فقد فيها الحرية والاستقلال ، والتى غض فيها من عزته وكرامته . وأهله الآن – كما كانوا من قبل – يعرفون معنى الحرية والاستقلال ، ويقدرون قيمة العزة والكرامة ، ويحرصون أشد الحرص على أن يكونوا أحرارا مستقلين ويجدّون أشد الجد فى أن يكونوا أعزة كراما .

مصر بلد كانت له الكلمة فى حياة الأمم والأجيال منذ عشرات القرون قبل أن يعرف غيره من الشعوب معنى كلمة الأمم والأجيال ، بل قبل أن يعرف التاريخ غيره من الشعوب بزمن طويل . ولكنه الآن ليست له كلمة فى حياة أمة ولا شعب ، بل ليست له كلمة فى حياة

---

(1) ١٤ – ٩ – ١٩٣٣

نفسه . إنما الكلمة فى حياته لقوم آخرين أقبلوا من وراء البحر ، ففرضوا عليه قوتهم فرضا ، وأخضعوه لسلطانهم إخضاعا وأخذوا منذ ذلك اليوم يقضون فى أمره ، لا يستشيرونه ولا يسألونه ولا يسألون أنفسهم ولا يسألون غيرهم من الناس أيرضيه قضاؤهم فى أمره أم لا يرضيه ؟

مصر بلد لا تسأل أحدا من أهله عن الحرية والاستقلال إلا أنبأك بأنه يلح فيهما الحاح المظلوم فى الوصول إلى حقه ، ولا تسأل أحدا من أهله عن العزة والكرامة إلا أنبأك بأنه يحرص عليهما كما يحرص الحى على الحياة . ولكنه مع ذلك لا يستمتع بهذا الحق الذى يلح فيه ، ولا يظفر بهذه الحياة التى يحرص عليها لأن قوما جاءوا من وراء البحار فصبوا عليه الحديد والنار ، واضطروه إلى حياة بعيدة كل البعد عن حياة الشعب الحر المستقل وعن حياة الشعب العزيز الكريم .

مصر بلد يعيش أهله عيشتين ، إحداهما شر كلها ، وذل كلها ونكر كلها . وهى عيشة الشعب الذى يتسلط عليه الأجنبى ويقضى فى أمره كما يشاء . والأخرى عيشة هى خير كلها وعز كلها ومجد كلها ، وهى عيشة الشعب الذى أحسّ الضيم فأقسم على رفضه ، وأحسّ الذل فأقسم على نبذه ، وأحسّ الهوان فأقسم على أن يخلص منه مهما يكلفه هذا من الجهود .

مصر هو هذا البلد الذى يعيش أهله عيشة الصراع المتصل العنيف بين الواقع والأمل ، وبين الحياة اليومية والمثل الأعلى ، والذى لا تطلع عليه الشمس إلا أحسّ ذلا يلم به ، وعزا يدفعه إلى رفعه ، والذى

عرف كيف يصبر ولكن فى غير يأس ، وكيف يثبت ولكن فى غير استسلام ، وكيف يطاول ولكن فى غير رضى بالخسف أو استسلام للضيم ، والذى اتخذ لنفسه فى الحياة مثلا أعلى لن يطمئن للحياة قبل أن يصل إليه ، وهو الحرية الكاملة والاستقلال التام . والذى أخذ يجدّ فى سبيل المثل الأعلى رغم ما يبث فى طريقه من العقبات ، وما يصب عليه من ألوان الشر وما يهيأ له من ألوان المكر والكيد فلم يمنعه شىء من ذلك أن يمضى فى طريقه ثابت القدم ، ماضى العزم ، صادق النية ، مؤثرا للموت على أن يقف فى هذه الطريق .

هذه هى مصر التى تذكر اليوم فى حزن يبعث الأمل ويجدد النشاط ويثير الحفيظة ويذكر بالمجد القديم ، ويقرب من المثل الأعلى . تذكر ذلك اليوم المشئوم الذى دخل فيه الجيش الإنجليزى مدينة القاهرة منذ أكثر من نصف القرن .

لم تنس مصر ذلك اليوم منذ كان ، ولن تنسى مصر ذلك اليوم حتى بعد أن يخرج جيش الإنجليز من القاهرة . هو الآن تذكار ذلة فرضها الأجنبى ظلما وعدوانا ، ولكنه سيكون من غير شك ولا ريب تذكار عزة يفرضها المصريون على الزمان فرضا لأنهم يؤمنون بحقهم ويجاهدون ولن يكفوا عن جهادهم ، ولن يفتروا فيه حتى يبلغوا هذا الحق ، وحتى يجبروا الإنجليز على أن يعودوا أدراجهم ويجلوا عن بلادهم معترفين لهم من الحق بما كانوا ينكرون .

إن المصريين اليوم أعرف بالحق وأحرص عليه من أن يعرضوا عنه أو يقصروا فى ذاته وإن الشباب المصرى اليوم أذكى قلبا ، وأرق خلقا

من أن يخدع نفسه بالألفاظ أو يعلل نفسه بالأماني ، فلن يؤمن الشباب المصري بأنه حر حقا والجيش الإنجليزي مقيم في أرض مصر ، ولن يؤمن الشباب المصري بأنه مستقل حقا والسلطان الإنجليزي مبسوط على أرض مصر ، ولن يصدق الشباب المصري أنه عزيز كريم حقا وأمور مصر كلها صغيرها وكبيرها تصرف على غير ما تريد مصر .

إن الشباب المصري الآن أذكى قلبا ، وأعظم تقديرا للحق والواجب من أن يطمئن إلى غير ما يطمئن إليه الشباب في كل أمة حرة مستقلة حقا . ليس الشباب المصري غافلا ولا لاهيا ولكنه فطن يقظ ، يعلم حق العلم ما يراد منه ، ويعلم حق العلم ما يريد هو ، ويعلم حق العلم كيف يأبى على الغاصبين والمستعمرين غصبهم واستعمارهم وكيف يقدم حياته وجهوده ثمنا يسيرا هينا لما يريد من تحقيق آماله في العزة والاستقلال .

إن الشباب المصري الآن يعرف تاريخ مصر ، ويعلم حق العلم بما اختلف على بلده من الخطوب ، وما ألم به من المحن ، ويعلم حق العلم كيف يستفيد من درس هذا التاريخ ، كيف يستشعر العزة والإباء حين يقرأ من صحف التاريخ المصري تلك الصور التي تصور مجد مصر ورفعتها في العصور القديمة والعصور الوسطى . ويعرف كيف يستشعر الصبر والثبات وإباء الضيم ، والجد في سبيل المجد حين يقرأ من تاريخ مصر تلك الصحف التي تصور ما أصاب مصر من ضروب البغي والعدوان . وهو حين يقرأ صحف التاريخ المصري على

اختلاف ما فيها من الصور المشرقة والقاتمة يعرف كيف يحب مصر سعيدة وشقية ، وكيف يكبر مصر عزيزة ومستقلة . وكيف يقدم حياته فداء لهذا البلد الذى ذاق أحلى ما ذاقته الشعوب من حياة السعادة والعز والنعيم فلم يفسده أشر ولا بطر ، وتجرع أمر ما تجرعته الشعوب من كئوس الظلم والبغى والعدوان ، فلم يفسده استسلام ولا استكانة ، ولا خنوع ولا خضوع .

من زعم أن الشباب المصرى يلهيه عن واجبه الوطنى شيء من الأشياء مهما يكن فهو خادع أو مخدوع ؟ ومن زعم أن الشباب المصرى كان محتاجا إلى هذا اليوم الذى يذكّره باحتلال الإنجليز للقاهرة ، أو بذلك اليوم الذى يذكره بضرب الإنجليز للاسكندرية ، فهو خادع أو مخدوع ؟ فإن فى كل قلب مصرى صورتين تختصمان دائما ، وتتصارعان دائما ، إحداهما تمثل الاعتداء الأجنبى والأخرى تمثل العزة القومية . وقد كان كل يوم من أيام المصريين ، وسيظل كل يوم من أيام المصريين تذكارا قويا محزنا محييا للأمل ، يعيد على المصرى ذكرى تلك الأيام السود التى وطىء فيها الأجنبى أرض الوطن الخالد العزيز .

لا تسل المصرى شابا كان أو شيخا ، كبيرا كان أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا عن مصر هذه التى يحبها وينهض للذود عنها ، ويبذل حياته لاستنقاذها أعربية هى أم فرعونية ؟ فذلك شيء لا يفكر فيه المصريون إلا حين يريدون أن يتحدثوا فى العلم ، وفيما يشبه العلم من الحديث . فأما مصر التى تملأ قلوب المصريين وتدفعهم إلى الأمل

والعمل دفعا فهى فوق الفروض جميعا ، وهى فوق الاحتمالات جميعا ، وهى فوق علم العلماء ، وبحث الباحثين وفلسفة الفلاسفة . هى هذا الوطن الخالد الثابت السعيد الذى تنبتنا أرضه وتظلنا سماؤه ، ويسقينا ماؤه ، والذى يخرج لنا كل ما تشتمل عليه الحياة من أنواع اللذة التى تحبب العيش وأنواع الألم التى تكون الأخلاق .

مصر هى هذا الوطن الخالد الثابت السعيد الذى تختلف عليه الأزمنة وما تحمل من الخطوب والصروف فلا يتغير ولا يمضى مع الزمن ، ولكنه ثابت مقيم ، مبتسم دائما ، تشرق شمسه الحلوة الهادئة كل يوم فتبعث الحركة والحياة فى كل شىء ، وفى كل إنسان ، ويجرى نيله القوى الرزين فيبعث الحركة والحياة فى كل شىء وفى كل إنسان .

مصر هذه هى التى عاش لها آباؤنا مهما تكن أجناسهم الأولى فلم يعدلوا بها بلدا ، ولم يضنوا عليها بجهد ، ولم يبخلوا عليها بالحياة . مصر هذه هى التى نعيش لها نحن مهما تكن أجناسنا الأولى كما عاش لها آباؤنا ، وكما سيعيش لها أبناؤنا لا نعدل بها بلدا مهما يكن ، ولا نضن بجهد مهما يكن ولا نبخل عليها بالحياة

مصر هذه هى التى نراها فى أنفسنا اليوم مستذلة للسلطان الأجنبى ونريد أن نراها فى أنفسنا غدا أعز وأمنع وأكرم من أن يطمع فيها الطامعون .

ظاهرة

صحيفة[1] الوزارة متحمسة فى هذه الأيام أشد التحمس للأخلاق ، حريصة أشد الحرص على الفضيلة ، كارهة أشد الكره للرذائل ونقائص الأعمال . وهى اليوم ثائرة فاترة ، واقعة طائرة ، ساكنة دائرة ، تندب الأخلاق وتحث الأمة على حمايتها ، وتستثير مصر للضرب على أيدى الكتاب الذين لا يزالون يذكرون أن رئيس الوزراء مريض ، لأن الإطالة من ذكر المرض فى رأى صحيفة الوزارة لون من ألوان الشماتة التى لا تليق بكرام الناس ، والتى لا ينبغى أن يرضاها المصريون ولا أن يصبروا عليها . وعزيز علينا أن تغضب صحيفة الوزارة ، ولكن ما ذنبنا نحن إذا كان رئيس الوزراء رجلا يعمل فى السياسة العامة ، ويريد أن ينهض بأعبائها الثقال ؟ وما ذنبنا نحن إذا كان الذين يعملون فى السياسة ويريدون أن ينهضوا بأعبائها مضطرين بحكم الصناعة والفن أن يتلقوا ما يوجه إليهم من النقد فى كل يوم ؟ وما ذنبنا نحن إذا كان الناس قد أجمعوا فى أقطار الأرض على أن الصحة الكاملة الموفورة شرط أساسى للعمل فى السياسة ،

(١) ١٥ - ٩ - ١٩٣٣

والنهوض بما تفرضه الحياة العامة على العاملين فيها من القدرة على احتمال الأعباء ؟ وما ذنبنا نحن إذا كان رئيس الوزراء قد آثر العمل فى السياسة رغم هذا المرض الذى ألم به واضطره إلى اعتزال العمل أشهرا طوالا دون أن يعتزل ما يجلب منصب الحكم لصاحبه من مزايا كثيره مختلفة ؟ ثم ما ذنبنا نحن إذا كان رئيس الوزراء نفسه بعد أن استراح فأطال الراحة ، واستشفى فأطال الاستشفاء ، قد فكر فى الاستقالة وتحدث فيها إلى الصحف ثم إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ؟ وأكد ومازال يؤكد أن ليس لهذه الاستقالة علة يعلمها إلا المرض ؟

وأخيرا ما ذنبنا نحن إذا كان رئيس الوزراء يحدثنا بأنه يعدل عن الاستقالة مضحيا بصحته فى سبيل بلاده ، فنحن من أهل هذه البلاد ، ولنا الحق المطلق سواء أراد رئيس الوزراء أم لم يرد فى أن نقبل تضحيته بصحته فى سبيلنا أو أن نرد على رئيس الوزراء تضحيته هذه شاكرين له ، مؤثرين صحته الغالية على منافعنا الفانية ؟

إن هناك ظاهرة خليقة بالتفكير ، وهى أجدر بالتفكير من هذه الظاهرة التى تشير إليها صحيفة الوزارة ، وهى رغبة الناس فى الحكم وإصرارهم عليه ، وتعلقهم بأهدابه رغم اعترافهم بأنهم لا يستطيعون حمله ولا يطيقون الصبر عليه .

لقد رفع رئيس الوزراء استقالته إلى حضرة صاحب الجلالة الملك لأنه مريض ، وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فجعل إليه الأمر فى أن يصر على الاستقالة فتقبل ، أو يعدل عنها فترد ، لا يستشير فى ذلك إلا صحته وقدرته . فلو أن رئيس الوزراء مضى فى

الاستقالة كما عرضها لأنه مريض لا ستراح من الحكم ونقد الذين لا يرون رأيه فى الحكم ، ولا يحبون أن تكون أمور الحكم إلى المتعبين المكدودين .

فأما وقد آثر رئيس الوزراء منصبه فإنه قد آثر فى الوقت نفسه ما يستتبعه هذا المنصب من القيل والقال ، والأعباء الثقال . وليصبر رئيس الوزراء لنقد الناقدين اليوم كما صبر له من قبل . ولسنا نحن الذين قالوا للصحافيين بعد خروج المندوب السامى : أنا تعبان

وإذا كان ذكر المرض يؤذى رئيس الوزراء ، فالأمر يسير ، فما الذى يمنع أن يستصدر رئيس الوزراء تشريعا يمنع ذكر مرض الوزراء ويفرض عقوبة على الذين يشيرون إليه ؟

أما بعد ، فالله الذى يعلم سرائر الناس ، مطلع على أننا لا نريد لرئيس الوزراء فى صحته شرا ، ولا نتمنى له إلا الشفاء الخالص السريع ولكن الله الذى يعلم ظواهر الناس وخوافيهم مطلع على أن مصلحة مصر إنما تتم حين ينهض بحمايتها وتدبيرها الأصحاء .

صلح

كانت[1] أنباء تستفيض بها الأحاديث بعد أن كانت سرا يهمس بها بعض الناس إلى بعض. ثم أخذت تتردد على الألسنة وتطوف فى الأندية حتى استقرت فى قلوب الناس وجعلوا بينها وبين الأزمة التى أثارها الوزراء سببا.

ولعلك قد فهمت عنى ما أريد أن أقول، فلم يكد يثير رئيس الوزراء أزمته من باريس أو من فرسايل حتى أخذت الصحف تشير وتلمح إلى خلاف بينه وبين موظف من كبار الموظفين، جعل سلطانه على الحكم محدودا، يحتاج إلى شىء من الإطلاق والسعة. وأشارت الصحف إلى أن رئيس الوزراء قد كره هذا التضييق وأنكره وأراد أن يزيله ويمحوه إما بالاستقالة التى تريحه من السلطان الواسع والضيق معا. وإما بالبقاء فى الحكم على أن يكون الحكم خالصا له من دون غيره من الموظفين الذين لا تجعل لهم مناصبهم يدا فى الحكم ولا سبيلا على الحاكمين.

---

(١) ١٦ - ٩ - ١٩٣٣

وعاد رئيس الوزراء بعد أن امتلأت الأرض بأنباء الاستقالة وأسبابها الرسمية التي جهر بها الرئيس ، وأسبابها الخفية التى نبأت بها الصحف ورواة الأحاديث . فلم يكد يذهب إلى حفلة الشاى التى أقيمت له حتى لاحظ الصحفيون والرواة ، والذين يحبون التعليل والتأويل أن موظفا من كبار الموظفين قد غاب عن هذا الحفل ، وأخذوا جميعا يقربون الآماد والمسافات بين الأزمة وبين ذلك الغياب . ثم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من زعم أن هذا الموظف الكبير لم يغب عن الحفل وحده ، وإنما غاب عن الإسكندرية كلها ، وتركها خالصة للمحتفلين . ومنهم من زعم أنه لم يترك المدينة ، وإنما قضى ساعة الحفل عند أحد الوزراء الذى لم يستطع أن يشهد الحفل لأنه كان مريضا .

وأخذ الناس يذهبون مذاهب فى التأويل والتفسير تقوى الصلة بين أزمة رئيس الوزراء وغيبة الموظف الكبير عن حفل الشاى أو تضعفها ولكن مرور الأيام القليلة التى جاءت بعد الحفل لم يدع شكا عند الناس فى أن هذا الموظف الكبير ليس بريئا كل البراءة من هذا التعقيد الذى اعترض حياة الوزارة القائمة فزادها عسرا إلى عسر ، وحرجا إلى حرج .

فقد كان الناس يعلمون أن هذا الموظف الكبير[١] يلقى رئيس الوزراء فيكثر من لقائه ، يزوره فى داره ، ويزوره فى ديوانه ،

---

(١) هو محمد زكى الأبراشى باشا ناظر الخاصة الملكية . انتهز فرصة مرض صدقى باشا وغيابه الطويل وأخذ يحضر جلسات مجلس الوزراء ويصدر الأوامر إلى الوزراء .

ويتحدث إليه فيطيل الحديث ، وربما حضر بعض الجلسات لمجلس الوزراء ولكنهم لاحظوا منذ عودة الرئيس أن هذه الزيارة قد انقطعت أو انقطع الحديث عنها والعلم بها . وأنفق رئيس الوزراء جهدا غير قليل ليقنع الناس بأن المرض وحده هو الذى حمله على الاستقالة ، ولكن الناس لم يقتنعوا وهم معذورون ، فإن الأصحاء الأقوياء إذا اضطرتهم الظروف إلى الاستقالة واعتزال الحكم تكلفوا المرض وانتحلوه فكيف برئيس الوزراء إذا كان مريضا حقا أو بارئا حقا من المرض ، ولكن عهده بالمرض ليس بعيدا .

لم يقتنع الناس إذن بأن المرض وحده هو الذى أثار هذه الأزمة ولا سيما وعهد المرض بعيد يرجع إلى أشهر ثمانية ماضية ، ولم يجد الناس بدا من أن يستمعوا لقول الصحافيين ورواة الأحاديث من أن خلافا بين رئيس الوزراء وموظف من كبار الموظفين كان له فى هذه الأزمة أثر غير قليل .

وجاءت الأهرام فأكدت رأى الناس وثبتته فى نفوسهم تثبيتا حين روت لهم بلهجة القاطع الجازم أن رئيس الوزراء لما هَمَّ بالاستقالة كتب إلى مصر يرشح خليفته ، ويقسم أمور الدولة شطرين : له أحدهما فى البرلمان ، ولخليفته أحدهما الآخر فى الدواوين . وزادت الأهرام على ذلك أن كتاب رئيس الوزراء هذا لم يرض بعض الجهات فنشأت الأزمة وعقدت تعقيدا .

وكان المنتظر أن يكذب رئيس الوزراء أو غير رئيس الوزراء من الجهات الرسمية حديث الأهرام هذا تكذيبا قاطعا يزيل الشك ويمحو

اللبس ويبين للناس أن رئيس الوزراء أعلم بتقاليد الدستور ، وأحرص عليها من أن يتورط فى مثل هذا الخطأ ولكن هذا الحديث لم يكذب تكذيبا صريحا ، بل لم تستطع صحف الوزارة أن تنكره إلا على استحياء شديد ، وظلت كلمة الأهرام عالية ، وكلمة الصحف الوزارية خافتة لا يكاد يسمعها أحد . فصدق الناس حديث الأهرام وهم مضطرون إلى أن يصدقوه ما دام الذين يعنيهم أمره لم يكذبوه تكذيبا صريحا على كثرة ما يلقون إلى الصحف من فنون التكذيب .

وجاءت المقطم أمس فأكدت كل هذه الأنباء تأكيدا لا يسمح بالشك فيها حين تحدثت إلينا عن هذا الاجتماع الضيق الضئيل الذى عقد فى منزل وزير الداخلية أول امس ، والذى دعى إليه رئيس الوزراء ونائبه السابق ، وهذا الموظف الكبير فتساقوا الشاى ممزوجا بحلو العتاب أو مره ، ثم صفت بينهم الأمور ، وانصرفوا بعد ذلك وهم يشكرون لمضيفهم سعيه الخير الحميد . فقد كان هناك إذن كدر غسله الشاى ، وشر أصلحه العتاب ، واختلاف محاه أو خففه هذا الاجتماع . وإذن فلم تكذب الصحف ، ولم يتجن المتحدثون فى الأندية حين زعموا أن الخلاف بين رئيس الوزراء وهذا الموظف الكبير كان من أسباب الأزمة ومثيراتها . إن لم يكن سببها ومثيرها الوحيد .

وإذن فلم يكن الناس مخطئين أيضا حين كانوا يعتقدون أن عدول رئيس الوزراء عن الاستقالة لا يلغى الأزمة وإنما يؤجلها ، لأن إلغاء الأزمة إنما يكون بإلغاء أسبابها ، ولم تلغ هذه الأسباب .

لم يكن الناس مخطئين لأن سعى وزير الداخلية فى هذا الصلح وإجابة رئيس الوزراء إليه ، وما كان من تساقى الشاى والعتاب دليل واضح على أن الذين شربوا الشاى والعتاب أول أمس كانوا هم أيضا مقتنعين بأن الخلاف بين رئيس الوزراء وهذا الموظف الكبير سيظل شجى فى حلق الوزارة يجب أن ينتزع ، وشوكة فى جنب الوزارة يجب أن تسل ، وإلا فلن يستقيم للوزارة أمر ، ولن تعتدل أمامها الطريق . ولذلك حاولوا أول أمس أن ينتزعوا هذا الشجى ويستلوا هذه الشوكة . أفتراهم قد وفقوا إلى ما كانوا يحاولون ؟ أم تراهم قد وفقوا إلى شيء دون ما كانوا يحاولون ؟ أفتراهم قد نزعوا الشجى نزعا ، ومحوا آثاره محوا ؟ أم تراهم قد اجتهدوا فى أن يخفضوا من حدته ويلطفوا من شدته ويجعلوه بحيث لا يمنع من مرور الشاى فى الحلق ولو ممزوجا بالعتاب . أما الوزاريون فسيقولون إن الجو بين رئيس الوزراء وهذا الموظف الكبير لم يكن فى يوم من الأيام أصفى مما هو الآن .

وليس فى ذلك شيء من الغرابة فلم تكن الوزارة فى يوم من الأيام أقوى مما كانت يوم همّ رئيس الوزارة بالاستقالة ، ولن تكون الوزارة فى يوم من الأيام أقوى منها يوم يرفع رئيس الوزراء استقالته إلى حضرة صاحب الجلالة الملك .

كذلك قال الوزاريون وكذلك سيقول الوزاريون ، فلا تسمع لهم إذن حين يزعمون لك أن الشاى أول أمس قد نزع هذا الشجى من حلق الوزارة نزعا ، وصفى كل شيء من حولها تصفية لا كدر فيها

ولا غبار . ولا تسمع لهم واسمع لقول الشاعر القديم فإنه أصدق تصويرا للموقف وأدق تعبيرا عن حقيقته . وقد أثبتت سياستنا المصرية وسياسة غيرنا من البلاد أن مثل هذا الخلاف لا يمحى إلا بأن يعتزل أحد المختلفين ، وإنما يخفف ويهون ويستر أمره على الناس لتجرى الأمور فى صورة مقبولة فى ظاهر الحال كما قال الشاعر القديم

أرينى سلاحى لا أبالك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

ونحن نتمنى صادقين أن يصفو الجو بين المختلفين ، وأن يكون الشاى الذى تساقوه يوم الخميس مطهرا للقلوب من آثار الحفيظة والموجدة ولكنا نتمنى مع ذلك أن يكون هذا الصلح معينا لا على أن تستقيم أمور الوزارة وحدها ، فأمور الوزارة عندنا فى المنزلة الثانية أو الثالثة ، بل على أن تستقيم أمور مصر ، فأمور مصر عندنا أجل وأعظم من أمور الوزارة ومَن تختلف أو تتفق معه من الموظفين .

نعم نحن نتمنى صادقين أن يكون هذا الصلح مريحا لرئيس الوزراء فيفرغ لأزمة المصريين ليعالجها بكفايته البارعة فيصد المصارف عن ثروة المصريين ، ويكف يد الدولة عن هذه الأرض التى تريد أن تبيعها بعد أيام لأن أهلها عجزوا عن تأدية الضرائب ، ويعلن إلى الدول الأجنبية فى حزم الواثق المطمئن أن مصر لن تؤدى دينها وفوائده إلا ورَقا . ويرد إلى المصريين الاطمئنان على أنهم آمنون على أنفسهم ودمائهم ، وعلى أموالهم ومرافقهم . نتمنى هذا كله صادقين ونذكر المختصين الذين أذن الله لهم بالصلح يوم الخميس ، بأن الصلح

جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا . وهم يعلمون حق العلم أن الحلال فى السياسة المصرية بيّن ، والحرام فى السياسة المصرية بيّن ، كما أنهم يعلمون حق العلم أن الصلح والخصام بين الأفراد لا يغيران من سياسة الأمم شيئا ، وإنما الذى يحدث الأزمات ويعقدها وينتهى بها حتما إلى إسقاط الوزارات ، هو ما لا يأذن الله به ، ولا تأذن به السياسة الصحيحة الصالحة من تحليل الحرام ، وتحريم الحلال .

قسوة

قسوة(1) لا يحبها الله من أحد ، ولا يرضاها الله لأحد . هذه التى تلم بالوادعين الآمنين الذين لم يقترفوا إثما ولم يجترحوا سيئة فتلقى بينهم وبين الحياة الراضية حجابا صفيقا ، وتقطع بينهم وبين الأمل والرجاء الوسائل والأسباب .

قسوة لا يحبها الله من أحد ولا يرضاها الله لأحد ، هذه التى يسلطها الإنسان على الأسر الهادئة المطمئنة ، فيها النساء والأطفال ، وفيها الشباب والشيب . فإذا هدوءها يستحيل إلى اضطراب ، وإذا اطمئنانها يستحيل إلى قلق مخيف ، وإذا ابتسام الأطفال والشبان للحياة وفرحهم بها ، وجدهم فيها قد استحال إلى اكتئاب وحزن وسكون يبعث فى قلوب الرحماء لوعة وإشفاقا ، وإذا الآباء والأمهات محزونون مروعون ، تشرق عليهم الشمس بالخوف إذا أشرقت ، ويقبل عليهم الليل بالهمّ إذا أقبل . قد قُتِّر عليهم الرزق أو قطع عنهم الرزق ، فإذا هم لا يدرون ماذا يصنعون ليطعموا هذه البطون التى لا تشبع ، وليكسوا هذه الأجسام التى لم تتعود التعرض لألم الحر والبرد ، ولا الظهور فى الأسمال والأخلاق ، وليعلموا هؤلاء الأبناء

---

(1) ١٧ - ٩ - ١٩٣٣

والبنات الذين ليس لهم بد من أن يتعلموا ، وليحفظوا على أنفسهم هذه المكانة الاجتماعية التى يحرص الناس عليها أشد مما يحرصون على أى مظهر من مظاهر الحياة

نعم وقسوة لا يحبها الله من أحد ، ولا يرضاها الله لأحد . هذه التى تلم بالأساتذه والطلاب فتقطع بينهم وبين أسباب الدرس فجأة وترد الأساتذة إلى شيء من الحزن والأسى لا حد له ، وترد الطلاب إلى شيء من الحيرة والوجد لا حد له .

قسوة لا يحبها الله من أحد ، ولا يرضاها الله لأحد ، هذه التى يسلطها الإنسان على الأبرياء فتصيبهم بهذا كله وبأكثر من هذا كله وقد كانوا ينتظرون أن يمسهم العدل بجناحه الرفيق فيزيد لهم ما هم فيه من نعمة الله ، ويتيح لهم فضلا من لين العيش ، ويمكنهم من أن يعودوا إلى أهلهم راضين مبتهجين ، يحملون إليهم أنباء فيها الغبطة والابتهاج ، ثم إذا كان الغد أقبلوا على طلابهم وقد ضوعف حظهم من النشاط ، وتجددت قدرتهم على الجدّ ، وفتحت أمامهم أبواب جديدة للبحث والدرس والتفكير والتعليم

نعم قسوة منكرة لا يحبها الله من أحد ، ولا يرضاها الله لأحد ، هذه التى يذكرنا بها صديقنا الزنكلونى وما نسيناها ، وما كان لنا أن ننساها حتى يأذن الله أن يرفع شرها ، ويكشف ضرها ، وتمحى آثارها السيئة . جماعة من المصريين قد نيفوا على السبعين كانوا منصرفين إلى أعمالهم كأحسن ما ينصرف الناس إلى أعمالهم ، نصحا للناس ولأنفسهم وصدقا فى هذا النصح ، وإخلاصا فيه ، لا

يضعفون ولا يظهرون فى سيرتهم غير ما يضمرون . وإنهم فى ذلكَ وإذا الأَنباء تسقط عليهم ، ولم يكونوا ينتظرونها ولا يتوقعونها . وإذا الأَسباب قد قطعت بينهم وبين العمل كما قطعت بينهم وبين الأَمل ، وكما قطعت بينهم وبين الرزق . وإذا هم يعودون إلى أهلهم وقد وقفت عقولهم عن التفكير ، وانعقدت ألسنتهم عن القول ، وأعربت عما يشعرون به من الأَسى واليأس ، ومن اللوعة الممضة ، والخوف المزعج ، هذه العلامات التى ترتسم على وجوههم والتى تصور من الكآبة والحزن ما ليس إلى تصويره فى القول من سبيل . والذين أرسلوا عليهم هذه الصواعق فى غير نذير ولا تنبيه ، مصريون مثلهم يكرهون أن تلم بهم الصواعق ويشفقون أن تقطع عليهم أسباب العمل والأَمل والرزق ، ويسألون الله إذا أصبحوا ، ويسألون الله إذا أمسوا . وكانوا يسألون الله وهم يرسلون هذه الصواعق ألايلم بهم مثل هذا المكروه الذى كانوا يسلطونه على إخوانهم المصريين . وألا يعودوا إلى أهلهم كما يعود إخوانهم المصريون ، وقد أظلمت الدنيا أمامهم وغشى اليأس وجوههم بهذا الغشاء القاتم الصفيق . جماعة من علماء الدين قد وقفوا أنفسهم على أن يدرسوا الدين ويعلموه . وأرادت ظروف الحياة المصرية والحياة الأَزهرية خاصة ألا يعرفوا من أسباب العيش غير هذه الصناعة فأخلصوا لها ، وجدوا فيها ووثقوا بها ، واكتفوا بحظهم منها . وإذا هم يردون عنها ردا ، ويدفعون عنها دفعا ، ويلقون إلقاء فى الشوارع حيث لا يجدون ما يعملون ، ولا يعرفون أين يذهبون . والذين ينزلون بهم هذا الشر ويرمونهم بهذا النكر ويصدونهم عن درس الدين وتعليمه والانقطاع لدرسه

وتعليمه ، هم قوم مثلهم من علماء الدين . لو فتشت عن قلوبهم لرأيتها تضرع إلى الله فى أعقاب كل صلاة أن يتم عليها هذه النعمة التى هى فيها ، ويصل لها أسباب هذه الحياة التى تحياها والتى قطعت فجأة عن هؤلاء العلماء البائسين .

بهذا كله يذكرنا صديقنا الزنكلونى[1] فى كلمات لا يقرؤها المصرى الصادق إلا انقطع قلبه حزنا ، وتفطر فؤاده أسى ، ولا يقرؤها الرجل الصادق من رجال الدين الذين اشتركوا فى هذه المأساة إلا امتلأ قلبه ندما ، وذابت نفسه ألما ، وتمنى لو أن ما فات من دهره لم يكن ، وتمنى لورد عليه ما مضى من الأيام ليصلح بنفسه ما جنت يداه . وتمنى لو أتيح له أن ينفق ما بقى من حياته محزونا نادما تائبا إلى الله ، مستغفرا يردد قلبه وعقله ولسانه هذه الدعوة التى كان يرددها الجحاف بن حكيم السلمى ، وقد ملأها يأسا وألما ، وأملا وقنوطا حين كان يطوف بالكعبة ويقول : « اللهم اغفر لى ، وما إخالك تفعل » وكان الجحاف قد أيم نساء ويتم أطفالا . ومن الحق أن أصحابنا هؤلاء لم يؤيِّموا النساء ولكنهم جعلوهن كالأيامى ، ولم ييتموا الأطفال ولكنهم جعلوهم كاليتامى ، يعيشون أضيق عيش وأنكده فى غير استحقاق لذلك منهم . ولا من هؤلاء الرجال الذين كانوا يقومون على حياتهم فردوا إلى العجز بعد القدرة وإلى الضيق بعد السعة .

---

(١) هو الشيخ على سرور الزنكلونى من علماء الأزهر الشريف .

قسوة منكرة هذه التى يذكرنا بها صديقنا الزنكلونى وما نسيناها ، وما ينبغى أن ننساها . ويزيدها نكرا وثقلا أنها مازالت ملمة بأهلها ، لم ترفع عنهم ولم يحاول أحد أن يرفعها عنهم ، ولم يظهر على الذين جنوها ألم ولا ندم ، ولا سعى إلى الخير ، ولم تفتح للذين أصابتهم أبواب ما إلى نوع من أنواع الحياة ، فهم كما أراد رؤساؤهم القساة أن يكونوا منذ ردوا إلى البطالة والحرمان ، لا يجدون ما يعملون ولا يجدون ما يعينهم على احتمال هذا العذاب الذى لا نعرف أنهم جنوا ما يجعلهم له أهلا .

إن مما يؤلم المصريين حقا أن يقسو بعضنا على بعض إلى هذا الحد ، فى هذا العصر المنكر الذى يدعو كل شىء فيه إلى أن يرفق بعضنا ببعض ، ويرق بعضنا لبعض . وإن مما يؤلم المسلمين حقا أن يقسو بعض رجال الدين على بعض ، والدين يأمرهم أن يتواصوا بالخير والصبر ، وأن يتعاونوا على البر والمعروف ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان . وإن مما يؤلم الناس حقا أن يقسو الإنسان على أخيه الإنسان ، والدين والعرف والأخلاق تأمر كلها بالعدل وتنهى كلها عن الجور ، وتدعو كلها إلى الرحمة وتصد كلها عن القسوة ، وتحرص كلها على أن يكون الحب والبر أساس الصلات بين الناس .

نعم إن مما يؤلم حقا ، ويسوء حقا ، ويوئس من عدل الناس حقا ، أن تقع هذه المأساة فى بلد دينه الإسلام ، له دستور يكفل العدل والإنصاف وقوانين تنظم معاقبة المسىء ومكافأة المحسن ، ثم لا

يرفع هذا الشر ولا يزال هذا النكر عن هذه الضحايا البائسة التى لا تعرف فى أى سبيل ضحى بها المضحون .

لقد احتمل هؤلاء الناس ما سلط عليهم من الشر كراما ، وصبروا عليه كراما . فلهم من هذا الصبر وذلك الاحتمال أحسن العزاء عما هم فيه من الألم والحزن . وإذا كان هناك قوم خليقون بالرحمة والإشفاق ، فإنما هم أولئك الذين كانوا يقدرون على دفع الشر قبل وقوعه ، ثم لم يدفعوه ، والذين مازالوا قادرين على رفع الشر بعد وقوعه ثم لا يرفعونه . أولئك خليقون أن تستغفر لهم ضحايا هم مما سلطت عليهم من سوء . والله وحده خليق أن يعين كلا على كل ، وأن ينصف كلا من كل ، وأن يجزى الصابرين المجاهدين أحسن الجزاء ، وأن يقرب لمصر هذا اليوم الذى لا يجنى فيه المصريون على المصريين ، ولا يقسو فيه رجال الدين على رجال الدين .

نداء

أصدره[1] صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأخذت الصحف تذيعه فى الناس منذ أمس ، وفيه نذير شديد ، وتحذير للناس غليظ من أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى مدارس المبشرين ومعاهدهم بعد ما تبين لهم من أمر هذه المدارس والمعاهد ، وبعد أن أقيمت لهم الملاجىء الإسلامية ، وفتحت أمامهم أبواب المعاهد والمدارس القائمة لتعينهم على ما يحتاجون إليه من تعليم الأبناء والبنات ، وتربيتهم فى بيئات إسلامية خالصة تحفظ عليهم دينهم وأخلاقهم وقوميتهم وتحميهم من كل فتنة وترد عنهم كل عدوان .

وليس من شك فى أن صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر حين فكر فى إصدار هذا النداء ، وحين أصدره قد أدى واجبا يفرضه عليه مركزه فى هذه البلاد ، وفى غيرها من البلاد الإسلامية ، فالله – عز وجل – يطالب المسلمين جميعا بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ويسارعوا إلى الخير . وهذا الواجب أشد لزوما للذين نصبوا

---

(١) ٢١ – ٩ – ١٩٣٣

أنفسهم رجالا للدين وأئمة للمسلمين . فكيف إذا كانت الدولة هي التي نصبتهم لذلك وكلفتهم إياه ، وأرادتهم على أن يفرغوا للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإسراع إلى الخير .

فشيخ الأزهر إذن قد اجتهد فى أن يؤدى لله وللمسلمين وللدولة هذا الواجب الذى لم يكن له بد من تأديته ، وله على هذا الاجتهاد فى تأدية الواجب أجره من الله ، وشكر الناس إياه ، سواء أوفق أو لم يوفق ، سواء أخطأ أم أصاب . فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . ولسنا نشك ولا نرتاب فى أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ودعا إلى الخير ، فقد برئت ذمته من عصيان العصاة ، وبغى البغاة وتقصير المقصرين وأصبح الثقل كل الثقل والإثم كل الإثم على أولئك الذين يؤمرون بالمعروف ثم لا يأتمرون ، وينهَون عن المنكر ثم لا ينتهون ، ويدعون إلى الخير ثم لا يستجيبون وأكبر ظننا أن المسلمين سيؤدون لله ولأنفسهم واجب الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر ، والإسراع إلى الخير كما أدى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر أو كما اجتهد صاحب الفضيلة الأستاذ فى أن يؤدى واجبه مريدا الإصلاح ما استطاع

ولكن هذا النداء يدعو إلى شيء من التفكير لعله لا يخلو من العبرة والموعظة الحسنة . وهو يدعو إلى التفكير من نواح مختلفة نقف عند بعضها ، لأنه خليق حقا أن نقف عنده ، وندعو الناس جميعا إلى أن يطيلوا فيه الروية والتفكير . فهذه المدارس والمعاهد التى أقامها المبشرون ، ودعوا إليها الناس ، أو دفعوا إليها الفقراء والضعفاء دفعا ،

يحدثنا صاحب الفضيلة بأنها مدارس ومعاهد أعدت لإخراج الناس من دينهم . وصاحب الفضيلة لا يقول هذا عفوا ، ولا يلقى هذا إلقاء وإنما يقوله بعد أن تبين له أنه الحق الذى لا يقبل شكا ولا مراء . وصاحب الفضيلة ينهى المسلمين عن أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى هذه المعاهد والمدارس ، وسيستمع له المسلمون إن شاء الله عز وجل . ولكنا كنا نحب ومازلنا نحب أن تستمع له الوزارة قبل أن يستمع له الشعب ، أو أن تستجيب له الوزارة الراعية قبل أن تستجيب له الأمة التى هى الرعية كما يقول الحديث الشريف الذى رواه الأستاذ فى ندائه . فما دامت الوزارة راعية للناس ، وما دامت الوزارة مسئولة عن رعيتها ، وما دامت كل وزارة مصرية مهما تكن قد قبلت هذه التبعات ، تبعات الراعى الذى يسأل عن رعيته ، فقد يخيل إلينا أن الإثم الذى يصيب المسلمين إذا أرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى هذه المدارس والمعاهد يقع مضاعفا على الوزارات التى تسمح بإقامة هذه المدارس والمعاهد ، وهى تعلم كما علم الشيخ أنها أعدت لإخراج الناس عن دينهم وبأن تفتح أبوابها للناس وتدعوهم سرا وجهرا إلى أن يرسلوا إليها أبناءهم وبناتهم ليخرجوا فيها من دينهم . فليس يكفى أن تأمر الناس بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، وتدعوهم إلى الإسراع إلى الخير ، وإنما يجب أن تهون عليهم الائتمار بالمعروف وتيسر عليهم الانتهاء عن المنكر وتمهد لهم سبيل الإسراع إلى الخير .

وليس يكفى أن تقيم لهم الملاجىء وتفتح لهم المعاهد والمدارس وأنت تعلم حق العلم أن لهؤلاء المبشرين من ضروب الإغراء والإغواء ، ومن فنون الكيد والمكر ما قد يمكنهم من أن يصرفوا الناس

أو قليلا منهم عن هذه الملاجىء التى أقيمت ، وعن هذه المدارس والمعاهد التى فتحت لهم أبوابها . وواضح جدا أن شيخ الأزهر لا يستطيع أن يكف الناس بالقوة عن معاهد المبشرين أو يدفع الناس بالقوة إلى معاهد المسلمين . ولا يستطيع أن يغلق معاهد المبشرين إغلاقا . وإنما الوزارة المصرية وحدها هى التى تستطيع أن تتخذ من السبل والأسباب ما يحول قطعا بين المسلمين وبين هذه الدور التى أعدت لإخراج أبنائهم وبناتهم ، – كما يقول الشيخ ، وكما تعلم الوزارة – من الإسلام

وقد اقترحنا واقترح الناس معنا ، واقترحت هيئة كبار العلماء على الوزارة ضروبا من الوسائل لتحقيق هذه الغاية التى لا بد من تحقيقها . فقد نحب أن نعلم ماذا فعلت الوزارة بكل ما اقترح عليها من الوسائل والأسباب ، أخذت من غير شك فى إنشاء الملاجىء ودعت إلى هذا الإنشاء وأعانت عليه ولكن مدارس المبشرين ومعاهدهم وملاجئهم مازالت قائمة ، ومازالت أبوابها مفتحة ، ومازال الناس يُدعَون سرا وجهرا فى أكبر الظن إلى أن يرسلوا إليها الأبناء والبنات ، ومازالت هذه المدارس والملاجىء تملك من ضروب الإغراء ما قد يجعلها أحب إلى بعض الناس ، وآثر عندهم من هذه الملاجىء التى أنشئت . فماذا اتخذت الوزارة من الأسباب لتحول بين الناس وبين هذه المعاهد الأجنبية ؟ أو لتحول بينهم وبين ما ينتظرهم من شر إن أرسلوا أبناءهم وبناتهم إليها ؟

لقد أجمع المصريون على مطالبة الوزارة بفرض المراقبة على هذه

المعاهد ، فماذا صنعت الوزارة بهذا الإجماع ؟ وإلى أى حد وصلت الوزارة فى وضع التشريع الذى وعدت به منذ زمن بعيد والذى ألح الناس وما زالوا يلحون فى أن تنشره بعد أن طوته طيا .

والناس جميعا يذكرون أن الحكومة الإنجليزية قد أذنت لمندوبها السامى فى أن يتحدث إلى الوزراة المصرية فى تنظيم هذه المراقبة . وهم جميعا يذكرون أن كلاما كثيرا قيل فى هذا الإذن ، وأن أنباء كثيرة أذيعت حوله وأن الصحف الإنجليزية تحدثت بأن وزارتنا قد اتصلت بالهيئات التبشيرية العليا لتشاورها فى أمر هذه المراقبة ، والناس جميعا يعلمون أننا أنكرنا تدخل الإنجليز فى أمر هذه المراقبة واستشارة المبشرين فى أمر هذه المراقبة التى يراد أن تفرض على معاهدهم ، ولكن الناس يريدون أن يعلموا ماذا أصاب التشريع الذى يفرض هذه المراقبة ؟ أعدلت عنها الوزارة واكتفت بإنشاء الملاجىء وبما يصدره شيخ الأزهر من النداء ؟ أم لا تزال جادة فيه ؟ فإن تكن الأولى فقد ينبغى أن تعلم الوزارة أن إنشاء الملاجىء ونداء الشيخ وغيره من المسلمين قد تخفف الشر ولكنها لا تمحوه : وإن تكن الثانية فقد نحب أن نعلم ما بال هذا التشريع لم يعلن أمره للناس أو لم تعلن أنباؤه إلى الناس . وهذا فصل الدراسة قد ابتدأ وكان ينبغى أن يحال بين الناس وما فى معاهد المبشرين من الشر قبل أن يبتدئ العام ، وتتكرر الحوادث المحزنة الخطرة التى وقعت من قبل .

نعلم أن الوزارة قد شغلت بنفسها فى هذه الأسابيع ، ولكن الوزارة لم تقم لتشغل بنفسها وإنما أقيمت لتشغل بالناس .

ونعلم أن الوزارة قد شغلت بجباية الضرائب لأن الدولة فى حاجة إلى المال ، ولكننا نعلم أن جباية الضرائب ليست شيئا يقصد لنفسه ، وإنما تجبى أموال الناس لتنفق فى مصالح الناس . ومن أهم مصالح الناس أن تحمى الحكومة فقراءهم وضعفاءهم من عدوان الأجنبى . ونعلم أن لدى الوزارة من المشكلات الداخلية السياسية ما قد يضطرها إلى أن تشفق من إغضاب الأجانب وترغب فى مصانعتهم بعض الشيء ، ولكننا نعلم أن الوزارة لم تقم لتستعين بمصانعة الأجانب على البقاء فى الحكم ، وإنما أقيمت لتخدم الشعب وتحقق مصالحه فى غير هوادة ولا ضعف فإن وفقت إلى ذلك فهو الخير وإلا وجب عليها أن تستقيل .

نحب أن تنظر الوزارة إلى نفسها نظرة الجد ، وأن تعلم أنها لم تقم لتشغل بأمر دون أمر ، أو لتشتد فى بعض الأمور ، وتلين فى بعضها الآخر ، وإنما أقيمت لتعنى بأمور الدولة كلها ، ولتشتد فى حقوق الدولة كلها . نعم ، ونحب أن تعلم الوزارة ، وأن يعلمها شيخ الأزهر – إن لم يكن قد فعل – بأنه إذا كان من الحق أن الذين يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى المعاهد التى أعدت لإخراج الناس من دينهم مرتدون ، فإن الذين يسمحون ببقاء هذه المعاهد التى أعدت لإخراج الناس من دينهم دون أن يحولوا بينها وبين غايتها المنكرة فى قوة وصراحة يتعرضون عند الله وعند الناس وعند شيخ الأزهر لأمر عظيم .

فلترفق الوزارة بنفسها أن يصيبها من شيخ الأزهر هذا الأمر الذى أرسله صارما رهيبا .

خاتمة

ورفع[1] الستار فإذا مشهد مهيب رهيب ، يملأ النفوس روعة ويمزق الأفئدة حزنا وأسى . هوة بعيدة الغور ، لا يكاد يظهر لها قرار تسعى إليها فى وجل واضطراب وزارة مثقلة قصيرة الخطو ، لا تكاد تنهض حتى تكبو ، وقد تفتحت أبواب السماء وامتلأ الجو بينها وبين الأرض بأرواح يصعد بعضها ويهبط بعضها الآخر ، ولها كلها دوى مختلط قد ملأ الفضاء كله ، بعضه عذب كل العذوبة ، وبعضه مر كل المرارة . فأما تلك الأرواح التى كانت تهبط من السماء فإنما هى ملائكة تحمل إلى الناس نسيم الرحمة والراحة ، وضوء الأمل والرجاء ، وتنادى الناس فى أصوات حلوة أخاذة : لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وأما الأرواح التى كانت تصعد فى السماء فملائكة تحمل شكاة الشاكين وبكاء الباكين ، وحزن المحزونين ، وبؤس البائسين وألم الذين نكبتهم الخطوب ودهمتهم الحوادث وامتحنهم الله فى أنفسهم

---

(١) ٢٢ - ٩ - ١٩٣٣

وأبنائهم وأموالهم وأخلاقهم وكرامتهم . وكانت هذه الأرواح ترتفع إلى السماء رفيقة شفيقة تستزيد رحمة الله للناس ، وتستمطر عدل الله على القساة الظالمين .

وكانت هذه الهوة العميقة التى لا يكاد يظهر لها قرار ممتلئة بأشباح بشعة منكرة ، تضطرب فيما بينها أشد اضطراب ، وتختلط أصواتها المنكرة أشد اختلاط

وكانت هذه الأشباح المنكرة المضطربة كلها أوزارا وأوضارا وآثاما وسيئات . قد كتبت عليها أسماؤها بأحرف من نار تخلب الأبصار . فبعضها يسمى ازدراء الشعب ، وبعضها يسمى قهر الشعب ، وبعضها يسمى تبذير أموال الشعب ، وبعضها تسليط الأجنبي على الشعب إلى ذلك من الأسماء التى لا تحصى . وكانت هذه الأشباح المنكرة المضطربة تدور فى هوتها العميقة الواسعة دورانا عنيفا ، وكان لها هدير قوى مخيف .

وكان النظارة ينظرون فى الجو فيرون هذه الأرواح الهابطة وتلك الأرواح الصاعدة فتمتلىء قلوبهم خوفا وأمنا ، ثم ينظرون فإذا وزارة مثقلة مكدودة تسعى سعى المقيد ، تريد أن تقف فتُدفع وتريد أن تتأخر فترد ، وهى تدنو من حافة الهوة ، وحافة الهوة تدنو منها ، وقد تعلقت قلوب النظارة ونفوسهم بهذا المنظر العجيب ، وبهذا الصراع الرائع بين الحق والباطل ، وبين العدل والجور ، وبين الإنصاف والإجحاف ، وبين الرحمة والقسوة ، وبين النعماء والبأساء ، ثم ترتفع أصوات النظارة فجأة فإذا صيحة قد ملأت ما بين الأرض

والسماء ، كلها رضى ، وكلها ابتهاج ، وكلها تفدية للوطن ، ثم يلقى النظارة بأبصارهم نحو الهوة فإذا هى قد أطبقت كأنها لم تكن ، وإذا الأرض أمام أعينهم سواء

الله أكبر من كل كبير ، والله أعظم من كل عظيم ، والله أعز قوة وأعلى سلطانا من أن يقاومه أصحاب القوة والسلطان ، والله أشد حولا وأعظم طولا من أن يتحداه طاغية مهما يكن أو يتصدى لأمره عظيم مهما يبلغ من شأنه الارتفاع

عفا الله عن رئيس الوزراء المستقيل ، لقد جمع جموعه ، وألب قواه ، وتأهب ثم وثب حتى إذا استقر على كرسى الحكم رفع طرفه فى الجو مطاولا ، وخفض طرفه إلى الأرض مستكبرا ، ونظر إلى من حوله وما حوله مزدريا ، ثم أعلن فى ثقة وحزم ألا إنها عشر سنين ، لن تنقص وقد تزيد . ثم مضى يصرف الأمر تصريف الواثق المطمئن الذى لا يخاف الأيام ولا يحسب للأحداث حسابا . وماله يخاف الأيام ويحسب للأحداث حسابا ، وقد فرض نفسه على الأيام والأحداث عشر سنين لن تنقص وقد تزيد ؟ فليمض أمامه إذن لا يلوى على شىء ، ليتقدم شهرا وشهرا ، وليتقدم عاما وعاما . وليمض آمنا مطمئنا حتى ينفق من سنينه العشر تسعا أو أكثر من تسع ، ويومئذ يستطيع أن يفكر فى الحساب . ويومئذ يستطيع أن يقدر خطر الأيام وعادية الأحداث . فأما قبل ذلك فالطريق ممهدة مبسوطة ، والريح مواتية مسالمة ، والجو صفو صحو ، والبحر هادئ مطمئن .

وأما هذه الأصوات التى ترتفع من حوله ومن حول صديقه المندوب السامى بالاحتجاج والإنكار وبالشكاة والأنين والتحذير والتخويف فإنما هى نقيق الضفادع . ومتى تعود الساسة العظماء والقادة والزعماء والمسيطرون على الناس والأشياء أن يحسبوا لنقيق الضفادع حسابا ، أو يلقوا إلى نقيق الضفادع بالا ؟

ويمضى رئيس الوزراء المستقيل أمامه البأس والبطش ، ويتبعه القهر والعنف ويحيط به الاستخفاف بالناس والاستكبار على الناس ، والسخرية من أمر الناس ، ويرمقه صديقه المندوب السامى بعين ملؤها الحنان والعطف ، والتشجيع والتأييد ، ونقيق الضفادع على ذلك متصل ، لا ينقطع ، مستمر لا يقف ، يزداد حدة وشدة كلما تقدمت الأيام ، وإذا هو قد طال حتى ثقل على الأسماع ، وحتى ضاقت به نفوس ، وتبرمت به قلوب ، وإذن فلا بد من أن تسكت هذه الضفادع ، وأى شيء أيسر من أن يفرض على الضفادع السكوت ؟ إشارة يسيرة إلى الجند والشرطة فإذا الألسنة معقودة ، والأفواه مكمومة ، والجو من حول رئيس الوزراء هادئ ، لا يسمعه إلا أناشيد النصر والفوز ، وتعدو الشرطة ويبطش الجند ، وتسفك دماء ، وتزهق أرواح ، ويلجأ الناس إلى غير ما يحبون ، ويغرى الناس بأن يبيعوا ضمائرهم بيعا ، حتى إذا تمت الصفقة ، وبيعت الضمائر أذل البائعون وقبضوا ثمن ضمائرهم استكانة وهوانا .

ويفتح رئيس الوزراء وأعوانه آذانهم يلتمسون فى الجو أناشيد الفوز والانتصار ، فلا يسمعون إلا نقيق الضفادع متصلا ، لا ينقطع ، مستمرا لا يقف ، يزداد حدة وشدة كلما تقدمت الأيام .

هنالك يصدر الأمر إلى الشرطة والجند أن أمعنوا فى البأس والبطش هنالك يضع السادة القادة ، الزعماء العظماء أصابعهم فى آذانهم . هنالك يلقى السادة القادة ، والزعماء العظماء حجبا كثيفة بينهم وبين من حولهم وما حولهم من الناس والأشياء ، وإذا نقيق الضفادع يصل إلى الأسماع مهما تسد الآذان ، وإذا اضطراب الضفادع يصل إلى العيون مهما تلق الحجب والأستار . وإذا نقيق الضفادع واضطرابها يطغيان على كل شىء ، ويغمران كل شىء ويكتسحان كل شىء . وإذا مقاومة السادة القادة والزعماء العظماء لهذا النقيق والاضطراب تضعف شيئا فشيئا ، وتفتر قليلا قليلا ، وترق حتى تعجز عن الاحتمال ، وإذا رئيس الوزراء المستقيل مريض ، لا يقوى على العمل ، وإذا المندوب السامى مضطر إلى أن يعبر البحر إلى بلاد الإنجليز ، وإذا الذين كادوا لمصر ومكروا بها يدبرون أمرهم بينهم ويجيلون الرأى فى أنديتهم سرا وجهرا ، كيف يخرجون من هذا المأزق ؟ وكيف يخلصون من هذا الضيق ؟ إيه أيتها الضفادع ، ارفعى أصواتك بهذا النقيق فهؤلاء الإنجليز الذين كانوا يرونك ضفادع قد أخذوا يثوبون إلى أنفسهم ، ويشعرون بأنك لست من الضفادع فى شىء ، وإنما أنت الأمة المصرية الخالدة التى لن يقهرها وزير وإن كان صدقى باشا ، ولن تذلها دولة وإن كانت دولة الإنجليز .

إيه أيتها الضفادع ، ارفعى صوتك بهذا النقيق فإن فيه عظة لمن أراد أن يتعظ ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر . ارفعى صوتك بهذا النقيق ورجعيه ترجيعا ، فإنه يصدع آذانا قليلة ، ولكنه يحيى الملايين من

أبنائك المخلصين . ارفعي صوتك بهذا النقيق ورجعيه ترجيعا ، فإنما هو نشيد الحرية والإيمان بها ، نشيد الاستقلال والجد فيه ، نشيد العزة والحرص عليها ، نشيد الثبات والإباء مهما يعظم ظلم الظالمين . ارفعي صوتك بهذا النقيق فإنه صوت الأمل الذى يمحو من قلوب الضعفاء والمستضعفين ظلمة اليأس والقنوط .

ليس مصريا من أشفق من ظلم الظالم . ليس مصريا من خاف من عدوان المعتدى . ليس مصريا من يئس من قدرة مصر على الحياة والعزة والفوز .

تبارك الله ، لم تتم خمسة عشر يوما منذ أعلن رئيس الوزراء المستقيل أنه قد استشار أطباءه فرأى أنه قادر على البقاء فى الحكم ، وقد استشار ضميره فرأى أنه سيضحى بصحته فى سبيل بلاده .

نعم ، ولم يتم أسبوع واحد على هذا الشاى الذى تساقاه الأصدقاء عند وزير الداخلية ، فصفا ما بينهم من الأمر ، ثم يمسى الناس أمس فإذا الطير تنتشر بينهم بأن مشورة الأطباء لم تكن لتمكن رئيس الوزراء المستقيل من أن يحتمل أعباء الحكم أكثر من أسبوعين . وبأن مشورة الضمير لم تكن لتمكن رئيس الوزراء من أن يمضى فى تضحيته الأخيرة أكثر من أسبوعين ، وبأن شاى الصلح لم يكن ليمكن رئيس الوزراء من أن يبتسم للحكم أكثر من أسبوع . وبأن رئيس الوزراء يرفع استقالته أمس إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ، وبأن حضرة صاحب الجلالة الملك يرفق بشعبه ويعطف عليه فيقبل استقالة هذه

الوزارة التى أذاقت مصر من الهمّ والغم ، ومن الحزن واليأس ألوانا . ويرحم رئيس الوزراء فيريحه من عناء الحكم .

تبارك الله ، لقد كتب لمصر الفوز ما آمنت بحقها ، ووقفت له ، وصبرت على ما يصيبها فى سبيله من الخطوب والأحوال .

تبارك الله لقد أمد مصر من عزها القديم ونهضتها الحديثة بهذه القوة التى تمكنها من الوفاء ، وتعينها على الثبات ، وتكفل لها الفوز فى الجهاد

ابتسموا أيها المصريون لحياتكم المقبلة ، واعتزوا أيها المصريون بمجدكم القديم ، واحذروا أيها المصريون أن توئسكم الخطوب ، واحذروا أيها المصريون أن يبطركم الفوز ، واعلموا أيها المصريون أن أموركم راجعة إليكم مهما تكن الظروف ، لأنكم تريدون ذلك وتصممون عليه . سيقولون لكم إن المحنة لم تنته بعد ، ولعلها أن تطول ، ولكنكم قد احتملتم أثقل أعبائها ، وبلوتم أمرّ كئوسها ، وخرجتم بعد ذلك ظافرين . ومهما تتنكر لكم الخطوب فلن تلقوا شرا مما لقيتم ، ولن تلقوا مثل ما لقيتم ، ولن تجدوا من خصومكم بعد اليوم إلا كيد الضعيف ومكر المخفق المشفق .

فثقوا بالله وانتظروا منه التأييد ، وأوفوا بعهد الوطن ، وأحسنوا فى سبيله الجهاد ، وأخلصوا الحب لصاحب العرش ، وانتظروا منه العناية الرشيدة والرعاية الحكيمة والعطف الكريم .



نعم[1] ، ثم كلمة تتردد فى جميع الأفواه ، وتنفتح عنها جميع الشفاه ، وتضطرب فى كل قلب ، وترتسم فى كل عقل ، وتفرض نفسها على كل ضمير منذ ختم صدقى باشا ، أو ختمت أعمال صدقى باشا ، أو ختمت الظروف القاهرة لصدقى باشا حياته السياسية مساء الخميس .

فصدقى باشا رجل من رجال السياسة ، قد فرغ من السياسة وفرغ الناس منه ، وفرغت السياسة منه أيضا ، ما فى ذلك شك ، وما إلى الريب فى ذلك سبيل ، إنما يعنى الرجل بالسياسة ويقف عليها قواه وجهوده حين يكون قادرا على إنفاق القوى وبذل الجهود ، أو حين يكون مالكا من هذه القوى والجهود لقليل أو كثير . وليس لصدقى باشا من هذا شيء يستطيع أن ينفقه فى السياسة . ونحن نتمنى أن يمده الله من القوى والجهد بما يمكنه من العناية بنفسه والإبقاء على صحته واستقبال الحياة فى شيء من الهدوء الظاهر فقد يخيل إلينا أن هذه الأعوام الثلاثة التى أنفقها صدقى باشا فى قهر أمته والبطش بها ، وفى إذلال وطنه والقسوة عليه قد حالت بينه وبين هدوء الضمير .

---

(١) ٢٣ - ٩ - ١٩٣٣

ليس قادرا على أن يعنى بالسياسة أو ينهض بأثقالها هذا الرجل الذى يصرف أعمال الدولة ، وفى فمه مقياس الحرارة . وليس قادرا على أن يعنى بالسياسة أو ينهض بأثقالها هذا الرجل الذى لا يستطيع أن يقضى فى ديوانه إلا ساعتين أو أكثر منهما قليلا ، والذى لا يجد مع ذلك بدا من أن يتخلف عن هذا الديوان يوما أو غير يوم فى الأسبوع . ليس قادرا على أن يعنى بالسياسة أو ينهض بأثقالها هذا الرجل الذى لا يستطيع أن يصل الحديث فى شئون السياسة مع رجل من رجال السياسة ساعة أو أقل من ساعة حتى يشعر بالضعف والإعياء فيلغى المواعيد ويكف عن الحديث ويسرع إلى داره ليستريح .

نعم ، ليس صدقى باشا قادرا على أن يعنى بالسياسة أو ينهض بأثقالها لا فى رياسة الوزارة ، ولا فى زعامة الكثرة البرلمانية ولا فى الأندية الخاصة . وقد يخيل الأمل لصدقى باشا أنه يقدر من ذلك على بعض ما يقدر عليه الناس ، وقد يخيل الوهم لفريق من أصفياء صدقى باشا أنه ما زال قادرا على أن يكون رجلا من رجال السياسة ، وقد يندفع صدقى باشا مع هذا الأمل فيكلف نفسه بعض أعمال السياسة ، وقد يدفعه أصفياؤه إلى هذا ، وهو من غير شك حر فيما يريد لنفسه . وأصفياؤه من غير شك أحرار فيما يريدون لصاحبهم . ولكن الشىء الذى لا يقبل شكا ولا جدالا هو أن صدقى باشا لن يغنى منذ اليوم فى السياسة المصرية شيئا .

وليس المرض وحده هو الذى يخرج صدقى باشا من ميدان الحياة السياسية ، ولكن هذه السيرة التى سارها فى أمته أكثر من ثلاثة

أعوام ، وهذه النتائج المنكرة التى انتجتها سيرته أثناء هذا العهد الطويل الثقيل ، قد أقامت أمام صدقى باشا من العقبات والمصاعب مالا يستطيع أقوى الناس فضلا عن أضعف الناس أن يذلله أو يتغلب عليه .

فرئيس الوزراء المستقيل رجل قد كتب عليه البعد المحتوم ، لا عن الوزارة ، ولا عن الزعامة البرلمانية المجدية ، بل عن الحياة العامة كلها . وما رأيك فى زعيم برلمانى لا يستطيع أن يخطب أنصاره وأولياءه إن كان له أنصار وأولياء ، أو يتحدث إليهم إلا دقائق لا تتجاوز الخمس ، ثم هو بعد ذلك متعب مكدود . فكيف به إذا احتاج إلى الجدال والنضال ؟ وكيف به إذا احتاج إلى التروية والتفكير ؟ وكيف به إذا احتاج أن يقرع الحجة بالحجة ، ويدفع الدليل بالدليل ؟ وكيف به إذا احتاج إلى أن يظهر على الخصوم فى البرلمان ؟ وكيف به إذا احتاج إلى أن يقهر الوزارة فى البرلمان ؟ وكيف به إذا احتاج إلى أن يتحدث إلى الشعب ليحمل على مذهب من المذاهب ، أو يصرفه عن رأى من الآراء ؟

كل ذلك شىء لا سبيل إليه ، لأن صحة صدقى باشا تحول دونه ، ولأن سياسة صدقى باشا تحول دونه ، فليس صدقى باشا هو الذى يستطيع أن يذكر الحرية فى البرلمان أو خارج البرلمان ، وهو الذى سجن الحرية فضيق السجن وأطاله ، ولو أن إلى قتل الحرية من سبيل لما تحرج من قتلها ، ولكن الحرية فوق القتل وفوق الموت . وهى تعمل سجينة أكثر مما تعمل مطلقة . وليس صدقى باشا هو الذى

يستطيع أن يتحدث عن عزة الشعب ، وقد عبث بها صدقى باشا أمام الأجنبى حتى ظهر ازدراء الأجنبى للمصريين ، وطمع الأجنبى فى المصريين ، واستغلال الأجنبى للمصريين ، وإذلال الأجنبى للمصريين . وليس صدقى باشا هو الذى يستطيع أن يتحدث عن الكرامة الوطنية وقد جد صدقى باشا ما استطاع ، وأنفق صدقى باشا ما يملك وما لايملك لينسى الناس كرامتهم الوطنية . وليس صدقى باشا هو الذى يستطيع أن يتحدث عن الاستقلال ، وقد أصبح أمام صدقى باشا كلاما لا معنى له ، ولفظا لا يدل على شىء ، ولونا من ألوان العبث ، وفنا من فنون الجدل . فأما الاقتصاد وما أدراك ما الاقتصاد ؟ فأما المال وما أدراك ما المال ؟ فأما الأزمة وما أدراك ما الأزمة ؟ فلن يستطيع صدقى باشا إن واتته الصحة والقوة ، وأذعنت له البلاغة والبيان أن يعرض لها ، ولو قد فعل بعد أن حيل بينه وبين الحكم ، وصرفت عن تأييده الشرطة والجنود ، وكف عن معونته أصدقاؤه المحايدون . نعم لو قد فعل لصاحت به الملايين : لا تذكر الاقتصاد وقد أفسدته ، ولا تذكر المال وقد أقللته ، ولا تذكر الأزمة وقد تركتها تتحكم فى الرقاب . نعم ولو قد فعل لما استطاع إلا أن يضحك من نفسه ، ولما استطاع إلا أن يضحك منه الأولياء والأصفياء . ومع ذلك فقد كان يقال فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، إن صدقى باشا رجل الاقتصاد ، ورجل المال ، وحلال الأزمات .

كل شىء يبعد صدقى باشا عن السياسة ، وكل شىء يفرض على رجال السياسة ألّا يحسبوا لهذا القائد العظيم والزعيم البارع حسابا منذ

اليوم . فقد أراد الله – ولا مرد لما يريد الله – أن يطوى سجل حياته منذ يوم الخميس . ولعل أصدق تصوير لموقف الرئيس المستقيل أو للموقف الذى ينبغى أن يقفه الرئيس المستقيل ما روته المقطم أمس من أنه سيعبر البحر فى الشهر المقبل إلى حيث يريح ويستريح ، إلى حيث لا يخطب ولا يكتب ، إلى حيث لا يجول ولا يصول ، إلى حيث لا يعنى بالسياسة من قريب أو بعيد . وإذن فماذا يكون بعد أن انقضى هذا الليل الطويل بما فيه من أحلام وأوهام ؟ وعمَّ تشرق الشمس بعد أن أفاق صدقى باشا ، فإذا عظمته كلها هباء ، وإذا سلطانه كله وَهْم باطل ، وظل زائل ، لم يفد صاحبه فوائد عاجلة فانية ، ولقيت مصر فى زمنه شر مالقيت فى هذا العصر الحديث

أما ما تريده الأمة بعد أن كشف عنها هذا الضر ، وجليت عنها هذه الظلمة ، وأزيح عن صدرها هذا الكابوس الثقيل ، فظاهر جلى لا يحتاج إلى سؤال ، ولا يحتاج إلى تفكير ، فقد وثب صدقى باشا إلى الحكم ، والأمة آمنة فروعها فيجب إذن أن يزول الروع ، وأن يعود الأمن . ووثب صدقى باشا إلى الحكم والأمة غنية فافتقرت فيجب إذن أن يزول الفقر ، وأن يعود الغنى ، ووثب صدقى باشا إلى الحكم والأمة حرة فقيدها وقهرها فيجب إذن أن يزول التقييد والقهر ، وأن تعود الحرية مطلقة مشرقة مبتسمة ، مبسوطة الجناحين على المصريين جميعا . وصدقى باشا لم يسلط هذا الشر كله على مصر إلا لأنه غلب مصر على حقها ، وحكم مصر على غير ما كانت تريد ، وسخر مصر للأهواء على حين كان يجب أن يسخر كل شىء لمصر ، فيجب إذن أن

تعود الحال إلى مثل ما كانت عليه قبل أن يعدو صدقى باشا على أمته ، ويثب صدقى باشا إلى مناصب الحكم .

لا ترضى الأمة بغير هذا ، ولا تستقيم الأمور بغير هذا ، ولا تعرف مصر راحة بغير هذا . فأما ما يراد بمصر بعد أن انجلى ذلك الليل الطويل الثقيل ، ليل صدقى باشا فشىء يكثر فيه الكلام ، وتتصل فيه الأحاديث ، ويذهب فيه الخيال كل مذهب ، ولكن الحق فيه لم يظهر بعد واضحا جليا للناس .

المنهزمون المخفقون يطيفون برئيسهم المنهزم المخفق فيمثلون قصة الحزب السياسى الذى يطمع فى أن تكون له كلمة مسموعة ، أو رأى يلتفت إليه وهذا أسخف ما يقع فى مصر الآن ، وأقل ما يستحق العناية من المصريين .

والمستوزرون الطامعون يلتقون سرا وجهرا ، ويدبرون أمرهم بينهم ، ويصطنعون ضروبا من التشكيلات والتلفيقات ، يضيفون رياسة الوزارة إلى اتحادى مرة ، وإلى مستقل مرة أخرى ، ويلفقون حول هذا الرئيس طائفة من الأسماء والأشخاص ، تجمعهم الأهواء والميول . ثم ينتظرون ما سيجرى به القضاء . وقد يدفعهم الأمل الكاذب إلى أن يجدّوا فى توجيه القضاء كما يريدون ، ولا يتحدث أحد عن هذه الضحية البريئة التى ذاقت ألوان العذاب أكثر من ثلاثة أعوام ، ولا يفكر فى رفع العذاب عنها ، أو رد الحرية إليها أو استمداد القوة منها .

منهزمون مخفقون يريدون فى غير غناء أن يخفوا الهزيمة والإخفاق ومستوزرون طامعون يريدون فى غير حياء أن يثبوا إلى الحكم وثوبا . والأمة تنظر إلى أولئك متهكمة ، وإلى هؤلاء متحدية . وتثق بأن الذين لم يعتبروا بهزيمة المنهزمين ، وإخفاق المخفقين ، ولم يتحرجوا من أن يفكروا فى انتهاج ما كان لهم من نهج ، وسلوك ما اتخذوا من سبيل سيلقون مثل مالقى أصحابهم من قسوة الظروف وتنكر الأيام وسخرية القضاء ، وسيصبحون كما أصبح أصحابهم منهزمين مخفقين ، يريدون فى غير غناء أن يستروا الهزيمة ويخفوا الإخفاق . كلا ، ليس الأمر سرّ هزيمة وإخفاق ، وليس الأمر وثوبا إلى الحكم واستئثارا بالسلطان ، وإنما الأمر الذى تفرضه الظروف الآن فرضا قاسيا ، وستفرضه غدا فرضا أشد قسوة وعنفا ، هو أن يندم المنهزمون المخفقون على ما جنوا على أمتهم وأنفسهم من السيئات ، وأن يخلص المستوزرون الطامعون من كواذب الأمانى ودوافع الطمع ، وأن يعلم أولئك وهؤلاء أن حياة الأفراد أقصر وأضيق وأهون من أن تحتمل الجناية على الشعوب والإساءة إلى الأمم ، والاستئثار بالحق دون أصحاب الحق .

فاللهم اهد الطامعين والمترددين إلى أن يفهموا الواجب ويشعروا شعورا قويا أن المصير الذى آل إليه صدقى باشا ليس شيئا يطمع فيه رجل له قلب أو عقل يحسنان الإحساس والتفكير .

شركاء

أسرعوا[1] إلى الرئيس المستقيل حين دعاهم ، لم يترددوا فى ذلك ، ولم يخطر لهم أن يترددوا فيه ، ثم وثبوا مع الرئيس المستقيل إلى الحكم واستقروا مع الرئيس المستقيل فى مناصبه . أقدموا على كل ما أقدم عليه ، وأحجموا عن كل ما أحجم عنه . احبوا كل ما أحب ومن أحب ، وكرهوا كل ماكره ومن كره . ومضوا معه حازمين عازمين ، لا يتخلفون عنه إصبعا ، ولعل بعضهم كان يسبقه أشبارا ، ولعله هو كان يردهم إلى الهدوء ، ويضطرهم إلى السعى مكان العدو ، ويلقى فى قلوبهم أن الأناة خير من التعجل ، وأن الإبطاء قد يفيد أكثر مما يفيد الإسراع .

هَمَّ بتغيير النظام فأسرعوا إلى تغيير النظام . اقترح قهر الشعب فلم يترددوا فى قهر الشعب . آثر العنف فلم يخافوا من إيثار العنف . مضوا معه حازمين عازمين ، مسرفين فى الحزم والعزم ، لا ينظرون إلى وراء ، ولا يبعِدون النظر إلى أمام . وإنما ينظرون إلى هذا الرجل الذى قام بينهم يعمل ويدعوهم إلى العمل ، ويأمل وينفخ فيهم

(١) ٢٤ - ٩ - ١٩٣٣

الأمل ، وكان منهم من يضعف عزمه عن هذه الأعمال الجسام ، والأحداث العظام التى كان يدفع إليها رئيس الوزراء المستقيل . فكانت نظرة من الرئيس أو ابتسامة تزيل هذا الضعف وتضع مكانه قوة على الجرى والعدو ، وعلى تجشم الخطوب ، واقتحام الأهوال . وكان الجند والشرطة يصطدمون بالناس فيسقط القتلى ويسقط الجرحى ، وتصطبغ الأرض بالدماء ، ويرتفع الأنين إلى السماء فلم تكن هذه الدماء تروع قلبا ، ولا تؤذى نفسا ، ولم يكن ذلك الأنين يبعث إشفاقا ، أو يثير شعورا ، وإنما كان أمرهم ثباتا مظلما ، قاتما هادئا ، مخيفا قاسيا ، عنيفا لا يعرف الرحمة ولا الإشفاق ، ولا يحب اللين ولا الدعة ولا يذكر أمس ، ولا يفكر فى غد ، ولا يستحضر بكاء الباكين ، ولا شكاة الشاكين ، ولا يرثى لهؤلاء الأمهات اللائى كن يفجعن فى أبنائهن ولا لهؤلاء الأبناء والبنات الذين كانوا يفجعون فى آبائهم ولا لهؤلاء الزوجات اللائى كن يضطررن إلى حياة الأرامل والأيامى .

وكذلك مضت أشهر وأشهر ، وكذلك مضى عام وعام ، وكذلك أكرهت مصر على غير ما كانت تحب ، وكذلك أوذى المصريون فى أكرم ما كانوا يحبون . ثم عملت الأيام عملها ، وأحدث الزمان آثاره فرثت صلات الود بين الرئيس المستقيل وزملائه ، وأخذ بعضهم يتنكر لبعض ، وأخذ بعضهم يمكر ببعض ، وأخذ بعضهم يضع العقبات أمام بعض حتى ساءت الحال ، وفسد كل شىء بين الأصدقاء المتعاونين ، واضطر الرئيس إلى أن يستقيل ليتخفف من

بعض الأثقال ويخلص من بعض الزملاء ، ثم يؤلف وزارته من جديد ، يضع فيها قوما مكان قوم ، ويختار لها أفرادا أقدر على استئناف المضى فى الطريق المرسومة إلى الوثوب . وهم إن دعوا أو اشتركوا ، ووثبوا إلى الحكم سيسيرون مع الرئيس الجديد سيرتهم مع الرئيس القديم سيشاركون فى كل شىء ، وسيتضامنون فى كل شىء حتى يخلصوا غدا كما خلصوا اليوم ، ليس عليهم بأس ، وليس عليهم جناح ، وليس ما يمنعهم من الاستعداد للوثوب مع رئيس آخر إن دعوا إلى الوثوب .

لو قيل هذا الكلام فى غير مصر لأنكره الناس إنكارا شديدا ، ولو وقعت هذه الأحداث فى غير مصر لضاق بها الناس ضيقا شديدا ، ولكن هذا الكلام يقال فى مصر فلا ينكره أحد ، وهذه الحوادث تقع فى مصر فلا يضيق بها أحد أولا يظهر الضيق بها أحد ، لأن المصريين قد عرفوا منذ عهد بعيد أن فيهم جيلا من المستوزرين ، دأبهم أن ينتظروا الحكم إن بعدوا عنه ، وأن يقبلوا الحكم إن دعوا إليه ، وأن يطيعوا رئيسهم ما وجبت طاعته ، وأن يلبوا دعوة غيره متى نهض بالأعباء

هذا الجيل موجود فى مصر منذ زمن بعيد ، يعرفه المصريون حق المعرفة ، وينكره المصريون أشد الإنكار ، ولكن ما حيلة المصريين فيه ؟ لقد وجد واتخذ لنفسه هذه الصناعة ولو كان أمر مصر إليها لردت هذا الجيل إلى حيث ينبغى أن يكون بعيدا عن السياسة أشد البعد ، نائيا عن الحياة العامة أشد النأى ، لأن هذا الجيل لا يصلح للسياسة ، ولا يصلح للحياة العامة . أحب الحكم للحكم ، فاقتنع الأجنبى بأن أمر

مصر يسير مادام بين أبنائها من ينهضون بأعباء السياسة فى غير شرط ولا مايشبه الشرط .

يجب أن يذكر المصريون هذا كله ، وألا ينسوه ، وأن يفتحوا أعينهم ليروا من وراء هذه الغيوم الرقيقة ما يأتيه جيل المستوزرين من هذه الحركات المريبة التى لن تنتهى إلا إلى ما يسوء .

يجب أن يسمع المصريون لهذه الأسماء التى تتلى عليهم فى الصحف كل يوم على أنها أسماء الذين قد يدعون إلى تأليف الوزارة أو إلى الاشتراك فيها فسيرون أصحابها كلهم أو أكثرهم من أصدقاء الرئيس المستقيل ، ومن أعوانه المقربين ، أو الذين كانوا مقربين ، ومن الذين شاركوه فى إقامة النظام الجديد ، من الذين شاركوه فى تقييد الحريات ، من الذين شاركوه فى كل هذه السياسة التى انتهت إلى شر ما هى عليه الآن . وهم جميعا أطهار أبرار ، خليقون فى رأى أنفسهم ، وفى رأى أصحابهم وأنصارهم أن ينهضوا بأعباء الحكم مرة ومرات .

نعم يجب أن يسمع المصريون لهذه الأسماء وأن يفكروا ويطيلوا التفكير فى لعب الحوادث ، وسخرية الظروف ، وإلا فأى استهزاء بالشعب أشد من استهزاء هؤلاء السادة الذين يشاركون صدقى باشا فى كل مايأتى ، ثم يتأهبون الآن ليرثوا صدقى باشا فى الحكم ، كأنهم لم يعاونوه ولم يظاهروه ، ولم يتضامنوا معه فى شيء .

أى استهزاء بالشعب أشد من استهزاء هؤلاء السادة الذين يذكرون أن تركة صدقى باشا ثقيلة ويفصلون ثقلها تفصيلا ، وهم الذين أحدثوا

معه هذه التركة الثقيلة ، ثم هم فى الوقت نفسه يستعدون للاستيلاء على هذه التركة ليزيدوها ثقلا على ثقل

يجب أن يفكر المصريون ويطيلوا التفكير ، وأن يذكروا ولا ينسوا أن التبعات التى يحتملها صدقى باشا أمام أمته ووطنه وربه ثقيلة أثقل مما يظن صدقى باشا ، ولكنه لا يحتملها وحده ، وإنما يحتملها معه هؤلاء الذين ظاهروه وأيدوه أمس ، والذين يولونه ظهورهم اليوم ، ويتأهبون لخلافته على الحكم .

ليس الإخفاق الذى أصاب صدقى باشا مقصورا عليه ، وإنما هو حظ شائع بينه وبين زملائه الوزراء ، بل بينهم وبين أصدقائهم وأوليائهم من هذين الفريقين اللذين كانا يسميان أنفسهما إلى وقت قريب الحزبين الشقيقين

وماأشد سخرية الظروف التى تصور صدقى باشا كأنه وحده المسئول وكأنه وحده الملوم . وتصور شركاء صدقى باشا كأنهم القادرون على إصلاح ماأفسد رئيسهم المستقيل .

يجب أن يفكر المصريون فى هذا كله ، وأن يسجل المصريون هذا كله ، وأن يثبت المصريون أن هذا العبث الذى يجرى من وراء ستار لا يخدع أحدا ، وإنما يخدع العابثين أنفسهم ، وأنه لا يزيد على أن يكون عبثا ، وأن مصيره لن يكون خيرا من مصير تلك السياسة التى فرضها الرئيس المستقيل على أمته أكثر من ثلاثة أعوام .

ثم يجب ألّا ييأس المصريون من أن أمورهم مردودة إليهم من غير شك ومن أنهم سيحولون بين خصومهم وبين هذا العبث الذى أسرفوا فيه إسرافا شديد الخطر على الكرامة والمنافع والأخلاق .

رئيس

قيل[1] لهم أقبلوا فأقبلوا مسرعين ، ولو قيل لهم عودوا لعادوا مسرعين . وقد يقال لبعضهم اعملوا فيملؤهم النشاط للعمل والجد فيه ، وقد يقال لبعضهم اكسلوا فيملؤهم الحب للكسل والحرص عليه ، ولكن من بينهم رجلا واحدا أبى إلا أن يميز نفسه تمييزا ، لأن الدعوة التى أرسلت إليه فيما يظهر لم تكن غامضة ولا مبهمة ، وإنما كانت واضحة جلية الأغراض ، فقد أشعر بأنه لا يدعى كما يدعى غيره من الناس ، وإنما يدعى لأمر عظيم .

فتأهب لهذا الأمر العظيم وأخذ العدة للإقدام عليه والنهوض به وأبى إلا أن يرسل النذير من باريس يسبقه إلى مصر على أجنحة البرق كما يقولون ، فتحدث إلى صحفى فى محطة من محطات باريس يعلن رأيه فى السياسة ومذهبه فى الحكم .

وهذا الرجل العظيم المقبل على أمر عظيم ، هو صاحب المعالى عبد الفتاح يحيى باشا ، الذى يكاد الناس يجمعون على أن الظروف تريد أن

---

(١) ٢٥ - ٩ - ١٩٣٣

تجعله رئيسا للوزارة المقبلة . وكان عبد الفتاح يحيى باشا مستقرا فى فرنسا ينعم بالحياة ويستقبل لذاتها التى حرمت فى هذه الأيام على كثير من المصريين بحكم هذه الأزمة المنكرة التى فرضتها تلك السياسة المنكرة ، سياسة صدقى باشا وأعوانه ، وكان عبد الفتاح يحيى باشا من هؤلاء الأعوان .

وعبد الفتاح يحيى باشا رجل قد يسر الله له أسباب الحياة . وأنعم الله عليه بسطة فى المال ، فهو يقيم فى مصر مترفا ، ويقيم فى أوربا مترفا . كان وزيرا مع صدقى باشا فلم يكن له بد من هذه الرحلة إلى أوربا ، ولم يكن له بد من أن يغير الجو ويبدل الهواء ، ولم يكن له بد من أن يسافر إلى أوربا على حساب الدولة ليزور المفوضيات ويفتش على أعمال الوزراء المفوضين .

فلما أخرجه صدقى باشا من الوزارة لم يكن له بد أيضا من أن يسافر على حساب نفسه ، لا على حساب مصر . وإنه لفى ذلك ، وإذا دعوة تبلغه أن أقبل فإن السياسة فى حاجة إليك . فيقبل مسرعا ، والله يعلم والسياسة تعلم : أيقبل على حساب نفسه ؟ أم يقبل على حساب مصر ؟ فلكل من الفرضين تأويل معقول ، فهو إن أقبل على حساب نفسه لم يَعْد أن يكون رجلا من الناس ، أتيح له الغنى فسافر ، ولم يكن بدمن أن يعود ، وكان قدر ما يحتاج إليه من النفقات للسفر والعودة فأنفق ماقدر . وإن كان قد عجل عودته تعجيلا . وهو إن عاد على حساب مصر ، فرجل من رجال السياسة ، وعظيم من عظماء الدولة ، أزعجته الدولة من راحته

وقطعت عليه أسباب لذته ، ودعته إلى أمر عظيم ، وسعت عند شركات الملاحة فى إن ترجىء له إقلاع السفينة ، فمن حقه على الدولة أن تؤدى عنه أجر هذه العودة . وليس على الرجل من ذلك بأس ، فالدولة محتاجة إليه ، وليس هو محتاجا إليها . وآية ذلك أنه سافر . ولو كان محتاجا إلى الدولة لأقام ، وآية ذلك أنه دعى إلى أن يعود ، ولو لم تكن الدولة محتاجة إليه لتركته حيث كان .

عبد الفتاح يحيى باشا إذن رجل عظيم ، يرغب عن السياسة فترغب فيه السياسة . ويعرض عن الحكم فيسعى إليه الحكم ، وينفر من السلطان فيتهالك عليه السلطان . وهو رجل مترف ، لا يقضى الصيف فى مصر حيث يقضيه المأزومون ، وإنما يقضيه فى أوربا حيث يقضيه الوزراء والأعيان وكبار الموظفين . وأكبر الظن أن عبد الفتاح يحيى باشا لم يذهب إلى أوربا ليدرس فيها شئون المصريين ، ولا ليقف فيها على ما يشقون به من ألوان البؤس وضروب الحرمان ، ولا ليرى فيها ما يطيف بهم فى المدن والريف من هذه الأشباح المزعجة المخيفة ، أشباح الفقر والإعدام والإفلاس والجوع ، وإنما ذهب إلى أوربا ليستريح من العلم بهذا كله ومن سماع الحديث عن هذا كله ، وليرى ويسمع أشياء أخرى ، فيها ترويح عن النفس وترفيه عليها . وكان المعقول – لو أن فى مصر شيئا معقولا – حين دعى إلى مصر ، وعرف لمَ دعى إلى مصر ، أن يفكر ويطيل التفكير ، وأن يؤثر الصمت ، ويغرق فيه حتى يتبين جلية هذا الأمر العظيم الذى يدعى إليه ، وحتى يتبين قدرته على النهوض بهذا الأمر أو عجزه عن احتمال

أثقاله ، وحتى يتبين كيف استقال رئيسه القديم ، وكيف يراد أن يخلفه ويسوى تركته أو يصفيها كما يقول أصحاب المواريث ، وحتى يتبين رأى المصريين الذين يدعى إلى حكمهم وتصريف أمورهم : أمشجع هو على قبول الحكم وتصريف الأمور ؟ أم منفر هو من قبول وتصريف الأمور ؟ وحتى يعرف الأشخاص الذين يراد على أن يرأسهم أو يشاركهم ويعمل معهم : أملائمون هم لطبيعته ومزاجه وميله إلى فهم الحكم ؟ أم مخالفون هم لطبيعته ومزاجه ومذهبه فى الحكم ؟

كان هذا معقولا ، لو أن أمور مصر فى هذه الأيام تجرى فى حدود المعقول ، لكن أمور مصر فى هذه الأيام مريضة ، تجرى كما تستطيع ، يذهب بعضها إلى الشمال ، ويصعد بعضها حين يجب الهبوط ، ويهبط بعضها حين يجب الصعود . ومادامت أمور السياسة فى مصر مريضة إلى هذا الحد ، فليس عجيبا أن يمرض الساسة وأن تجرى أعمالهم على غير المعقول . وكذلك لم ير رئيس وزارتنا المقبل فى هذه الدعوة التى وصلت إليه وتعجلت قدومه إلا شيئا واحدا ، وهو أنه يدعى للحكم ، وكيف يتردد من يدعى إلى الحكم فى قبول الدعوة حين توجه إليه ، لا يشترط فى ذلك شرطا ، ولا يتبين لذلك رأسا ولا ذنبا ، ولا يضع لذلك قاعدة ولا أصلا . لقد دعى إلى الحكم ، وكان من الممكن أن يدعى غيره إلى الحكم . ومازال من الممكن أن يدعى غيره إلى الحكم . فإما أن ينتهز الفرصة ويستوثق من الأمر ، ويثبت نفسه فيه تثبيتا ، وإما أن يفلت منه هذا الطائر الذهبى ذو

الريش البديع الذى يسمى الفرصة ليقع على غيره من المستوزرين ، فقد دعى من قبله رئيس مجلس الشيوخ فأقدم على عجل ، وهو ينتظر ، ودعى معه فيما يقال عضو فى مجلس الشيوخ فأقبل على عجل ، وهو يرجو . وفى مصر كثيرون لم يدعوا ، ولكن منهم من توهم فعاد من السفر ، ومنهم من توهم فأحيا الوهم فى نفسه آمالا كبارا . ورئيس وزرائنا المنتظر أذكى قلبا ، وأرجح حلما من أن يرسل هذا الطائر الذهبى ذا الريش البديع ، بعد أن أمسكه بيد واحدة أو بيدين اثنتين

فهو إذن خليق أن يشدد القبض على هذا الطائر ، وأن يمكن لنفسه فى الأمر تمكينا . وسبيل ذلك واضحة ممهدة . تصريح يلقيه إلى مكاتب الأهرام قبل أن يثب إلى القطار ، وفى هذا التصريح عهد بأنه يحب النظام الجديد الذى اشترك فى وضعه وفرضه ، ويحرص على حمايته وتثبيته ، ويرى فيه وحده الخير كل الخير . وفى هذا التصريح إنذار للمصريين بأن ليل صدقى باشا لم ينجل عن صبح مشرق ، وإنما انجلى عن ليل مظلم مثله . فمن خدعته الآمال ومنى نفسه أن يكون حرا تحت هذه الشمس المشرقة فليكذب نفسه ، وليطرح أمانيه ، وليمض فى نومه إن كان يحب النوم ، وليظل فى حزنه إن كان يحب اليقظة الحزينة . فقد ذهب صدقى باشا ، وجاء عبد الفتاح يحيى باشا ، وكلاهما يحب هذه السياسة التى تشقى بها مصر منذ أعوام ، وكلاهما يحرص على هذه السياسة أشد الحرص ، وقد حيل بين أحدهما وبين المضى فى تثبيتها وتأييدها لأنه عجز عن ذلك وأخفق

فيه ، ولكن صاحبه خليق بأن يتم ما بدأ وينفذ ما لم يجد إلى تنفيذه سبيلا .

نعم وفى هذا التصريح كبت للحساد ، وتحد للخصوم ، واختيار لخطة الحرب والمنافسة ، ووضع لأساس الوزارة الجديدة . فمن شاء أن يرضى فليرض ، ومن شاء أن يغضب فليغضب ، فرئيس وزرائنا المنتظر راض آمل واثق . وحسبك بهذا كله وضعا للأمر فى نصابه ، ومسيرا لسياسة مصر فى أيسر الطرق .

وكذلك يقبل عبد الفتاح يحيى باشا باسطا يدا كيد صدقى باشا إلا أنها أشد من هذه اليد قوة وقدرة على الحركة ، رافعا فى وجوه المصريين سوطا كسوط صدقى باشا إلا أنه أقدر من سوط صدقى باشا على أن يمزق الأجسام إن احتاجت إلى التمزيق .

وكذلك يمضى ليل ويتبعه ليل . وكذلك تبقى الأزمة السياسية كما كانت قبل أن يستقيل صدقى باشا معقدة أشد التعقيد ، مظلمة أشد الإظلام . وبرغم ذلك يبتهج المصريون ، لأن الليل الذى انجلى كان طويلا ثقيلا لن يبلغ طوله وثقله ليل آخر حتى ولو ألقى أستاره عبد الفتاح يحيى باشا .

وكذلك تظهر الحوادث فى سرعة غريبة حقا ، وقوة غريبة حقا أن المصريين قد كانوا ملهمين حين فرحوا بسقوط صدقى باشا وأصحابه ولكن فى غير إسراف ، ومن دون أن يزدهيهم الابتهاج أو يخرجهم عن أطوارهم . فقد ذهبت وزارة قاهرة ، وستأتى وزارة تريد أن تكون قاهرة . وما ينبغى للمصريين أن يبتهجوا حقا إلا يوم يمحى القهر محوا ، ويوم

يرفع عنهم ضرره رفعا . وهم قد عرفوا كيف يثبتون لصدقى باشا ، وكيف يضطرونه إلى الإخفاق والإفلاس . وهم يعرفون حق المعرفة كيف يثبتون لخليفة صدقى باشا وكيف يضطرونه إلى الإخفاق والإفلاس . وهم يعرفون حق المعرفة أنهم لن يستطيعوا أن ينتظروا من عبد الفتاح يحيى باشا ما لم ينتظروا من صدقى باشا ، فلن تفرج عنهم الأزمة ، ولن يكشف عنهم الضر ، ولن ترد إليهم الحرية ، ولن يشعروا بأنهم أعزاء فى بلادهم ، وإنما هى حال سيئة ستطرد أيام الرئيس الجديد كما أطردت أيام الرئيس القديم حتى يأذن الله بأن تزول ، وأخذت بوادر هذا الإذن العظيم تبدو واضحة قوية . فلم ينقل المندوب السامى ، ولم يضطر صدقى باشا إلى داره إلا لأمر من عظائم الأمور .

نعم ، إن المصريين يعلمون حق العلم أن هذه الأزمة السياسية الظاهرة التى يضطرب لها سطح البحيرة ليست شيئا ذا خطر ، وإنما هى مقدمة لشىء ذى خطر . وهم ينظرون إلى هذه الأزمة الظاهرة ساخرين منها ، يتخذونها لهوا ولعبا حين يتحدثون ويسمرون . وماهم لا يلهون بها ولا يضحكون منها ، وهذا رئيس الوزراء المستقيل يرفع استقالته ويعلم بقبولها ، وزملاؤه ما ضون فى أعمالهم قد جهلوا كل شىء ، وما هم لا يسخرون ولا يضحون ، وهذا رئيس الوزراء المستقيل يخيل إلى نفسه ساعة من نهار أو ساعة من ليل أنه زعيم كثرة برلمانية فيبرق ويرعد ، ويرغى ويزبد ، ويريد أن يتحكم فى الأمر ، ويلح فى أن يستشار ثم يرى فى الجو ابتسامة تكشر عن أنياب حداد ، فيهدأ ويستقر ، وينفى كل ما قال . وماهم لا يسخرون ولا يضحكون وهذا الرئيس المنتظر يدعى إلى الحكم فيظهر اللهفة عليه والرغبة فيه ، لا

يأخذ لذلك شرطا ، وإنما يعطى على نفسه كل شرط . وماهم لا يسخرون ولا يضحكون وهذه الوزارة المقبلة تهيأ وتجرى الأحاديث بتأليفها ، وتوزع الأعمال والدواوين على أعضائها ، ورئيسها بين السماء والماء يعجب بالنجوم وانعكاس صورها على الموج .

والاستشارة الملكية فى تأليف الوزارة لم تكن قد بدئت بعد . كل شىء غريب فى هذه الأيام إلا شيئا واحدا ، وهو أن المصريين لا يخدعون عن هذه الحال ، ولا ينظرون إليها نظرة الجد ، وإنما يتفكهون ويبتسمون وينتظرون

انتهى

محتويات الكتاب

صفحة

طبع بمطابع



٥ جمال الشاهد ـ مدينة الصحفيين ت ٨١٤٢٥٩

يطلب في مصر والشرق العربي من
دار الفرجاني - ص.ب (٢٣٨٢) مصر الجديدة - القاهرة